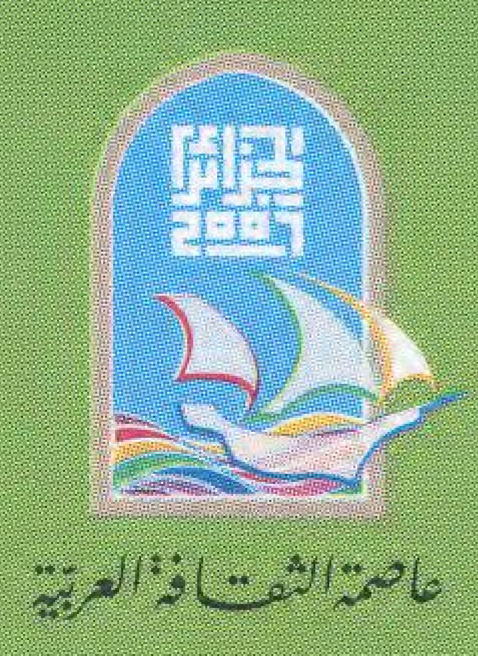
فرحات عباس

الشباب الجزائري

ترجمة: أحمد منّور



صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007

يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

- العنوان: فرحات عباس "الجزائر من المستعمرة إلى الإقليم
الشاب الجزائري (1930)"/ترجمة
- الغلاف والإخراج: **SIMPLE Production**
- السنة: **2007**
- الإيداع القانوني: **2505-2007**
- ردمك: **978-9947-24-276-6**

إهـــــــداء ٢٠٠٨
وزارة الثقافة
الجمهورية الجزائرية

فرحات عباس

الجزائر من المستعمرة إلى الإقليم

الشـــاب الجزائـــري

(1930)

متبوع بتقرير إلى الماريشال بيتان

(أبريل 1941)

فرحات عباس

الجزائر من المستعمرة إلى الإقليم

الشـــاب الجـزائـــري

(1930)

متبوع بتقرير إلى الماريشال بيتان

(أبريل 1941)

ترجمة الدكتور أحمد منور

تقديم الدكتور أبو القاسم سعد الله



بسم الله الرحمن الرحيم

الواقعية واللاواقعية في السياسة الجزائرية بين الحربين كانت هي المحك لنشأة قيادة الرأي الوطني (الأهلي). فدعاة الواقعية كانوا يطالبون فرنسا الاستعمارية بالمساواة ثم الاندماج للتمتع بثمار الحضارة ، بينما كان اللاواقعيون يرفضون إدخال أي تغيير على المجتمع الجزائري حتى لا تخدش هويته الحضارية، بالإضافة إلى نوع آخر من اللاواقعيين وهم أولئك المعارضون للاندماج والمطالبـــون بالاستقلال. وكان فرحات عباس من دعاة الواقعية. فقد بدأ حياته واقعيا وكان طول حياته منسجما مع عقـــيدته الســـياسية حتى وهو على هرم الثورة، بل إن واقعيته هي التي بررت وضعه على رأس الحكومة المؤقتة سنة 1958.

يبدو من كل التطورات التي خضع لها فرحات عباس والآراء التي أبداها أنه رجل موهوب حقا. فقد كان زعيما مثقفا بينما تزعم زملاؤه الأحزاب والحركات وهم نصف متعلمين أو شبه أميين، وكان له قلم ذرب يجري بما في فكره من معارف وآمال، وله موهبة سياسية ظهرت آثارها وهو ما يزال طالبا في الجامعة، ثم وهو جندي في الجيش الفرنسي، ثم تغذت موهبته من تقلبات السياسة الاستعمارية وتحولات العالم والقراءة المستمرة في الفكر الأوروبي حتى أصبحت له شخصيته الخاصة وآراؤه المستقلة في الدين والسياسة وأسلوب الحكم وفي الاستعمار والوطنية. لقد دخل الميدان بالقلم كاتبا صحفيا، وكان صيدليا بالمهنة وسياسيا بالغريزة، ثم زعيما بفضل شخصيته وتجاربه وطموحه، فلا غرابة أن ملأ فرحات عباس الساحة السياسية الجزائرية بين 1930 و1964 رغم معارضيه.

بعد الدراسة المستفيضة تبين أن هناك أوجه شبه وأوجه اختلاف بين فرحات وحمدان خوجة رغم أن بينهما قرن من الزمان.. كان خوجة على صلة بالسلطة العثمانية من خلال والده وخاله، ثم ربط صلة مع سلطة الاحتلال الفرنسي من خلال نفوذه ومعرفته بالفرنسيين قبل الاحتلال، وكان فرحات عباس أيضا على صلة بالسلطة الفرنسية من خلال والده، وربما من خلال آخرين من عائلته. كلا الرجلين استطاع أن يحتج على النظام القائم بأنه من خدامه وأساطينه، وكلاهما كان محسوبا على الاتجاه الواقعي المعتدل بالمعيار الذي ذكرناه، لا يتكلم من موقع التطرف ولكن من موقع مراعاة المنفعة للطرفين المتواجهين، وكلا الرجلين خاب فيما أمل من السلطة القائمة. كل منهما قد اتهم بأنه كان رومانسيا فيما ذهب إليه، لأن السلطة التي خاطبها كانت تغض الطرف والأذن والفؤاد عن الحوار والنصيحة ومراعاة المنفعة المتبادلة. كلاهما كتب كتابا يعتبر إدانة لتصرفات الاستعمار، وعبر عن مخاوفه مما سيحدث للجزائر إذا تمادت السلطة في غيها و لم تبدل سياستها نحو الأهالي و لم تعتمد على النخبة المحلية. (فالشاب الجزائري) الذي نشر سنة 1931 و(مرآة) الجزائر الذي نشر سنة 1833 يمثلان الخط المتواصل لسياسة فشل النخبة الجزائرية من جهة وعجرفة السلطة الفرنسية من جهة أخرى. أما أوجه الاختلاف بين الرجلين (حمدان خوجة وفرحات عباس) فهي كثيرة، ومنها أن كليهما كان يتكلم باسم نخبة لا سلطة لها تقريبا، ولذلك افتكت منها الراية حركة المقاومة الريفية في البداية وجبهة التحرير الوطني في النهاية.

لم يؤلف فرحات عباس كتابا سنة 1931 وإنما جمع مقالات سبق له نشرها في جريدة (التقدم)، تلك الجريدة التي كان يديرها أحد أعضاء النخبة الاندماجية في عشرينات القرن الماضي وأحد معارضي الأمير خالد في سياسته المطالبة بالمساواة دون التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية، وهو بلقاسم بن تامي (التهامي؟). كان ابن تامي هذا طبيبا ماهرا وسياسيا فاشلا، وكان من دعاة الاندماج بدون شروط ولذلك تجنس بالجنسية الفرنسية دون مراعاة

الأحوال الشخصية الإسلامية، ومع ذلك احتضن ابن تامي مقالات فرحات عباس التي كانت شديدة اللهجة في الرد على الخصوم من المستوطنين والساسة الفرنسيين، وعلى رأسهم لويس بيرتران وجان سيرفييه. وكان فرحات عباس قد وقع هذه المقالات "الساخنة" باسم مستعار، وهو كمال بن سراج (أحد الرموز الأندلسية) لأنه كان يكتبها وهو يؤدي الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي. وعندما نشرها في كتاب بعنوان (الشاب الجزائري) انكشف السر وعرف الاسم الحقيقي فتعرض صاحبه للضغط من قبل الصحافة الاستعمارية (صحافة المستوطنين بالخصوص). والواقع أن فرحات عباس كتب ما كتب تحت ضغط الظروف عندئذ، فقد كان الفرنسيون قد جلبوا على الجزائر بخيلهم ورجلهم من أجل الاحتفال المئوي بالاحتلال، ومن أجل إشعار الجزائريين بأنهم أناس منهزمون مقهورون. إن مقالات الشاب الجزائري يجب أن تفهم على أنها دفاع عن الأهالي، وأنها رد على اتهامات ظالمة تضمنتها صحافة النخبة الاستعمارية، لقد كان فرحات عباس في كتابه يحتمي -في نظره- بفرنسا الديمقراطية ضد فرنسا الاستعمارية.

من من شبابنا اليوم يتمثل قضايا بلاده -وهو في العشرينات من عمره- تمثل فرحات عباس لقضايا بلاده في وقته، ثم يكتب عن "المواطنين" كما كتب عباس عن "الأهالي" ويدافع عنهم بنفس الأسلوب وبنفس الحماس وبنفس الحجج الدامغة. إن (الشاب الجزائري) صفحة قوية من الدفاع عن الإسلام والعرب والبربر والمنافحة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم). وقد ناقش فيه مؤلفه قضايا التعليم وقابلية التعلم بالنسبة للجزائريين تحت الحكم الفرنسي، وعالج شروط الاندماج والمساواة دون التخلي عن الشريعة الإسلامية، وتكلم كلاما لا يتقنه سواه عن المسيحية التي رمز لها بـــ "هيبة المدفع". إن فرحات عباس يبدو في الشاب الجزائري "صاحب قضية" حاملا لهموم ينوء بها صدره. وقد كبرت معه القضية وثقلت عليه الهموم حتى تقاعد وودع الحياة السياسية، بل إنه لم يستسلم للدعة والراحة حتى بعد التقاعد.

وخلال المرحلة الطويلة التي قضاها في الميدان، اشتغل فرحات عباس "مساعدا" في ظل الدكتور ابن جلول زعيم حزب الاندماجيين، ثم أنشأ تنظيما خاصا به وهو الاتحاد الشعبي، كما تزعم حركة احتجاجية محتشمة خلال الحرب العالمية الثانية، ووجه تقريرا وافيا تضمن مظـالم الجزائريين إلى الماريشال بيتان، الحاكم الفرنسي تحت الهيمنة الألمانية، ثم حرر بيان الشعب الجزائري، وأرسل نسخا منه إلى الحلفاء (الأمريكان والانجليز والروس والفرنسيين الديغوليين). ونتيجة لهذه الجرأة السياسية والتصدر لقيادة التيار الاحتجاجي، ونتيجة لمجزرة الثامن مايو 1945 اقتيد فرحات عباس إلى سجن الكدية بقسنطينة، قبل أن يصبح زعيما لحزب البيان الديمقراطي إثر العفو العام الصادر سنة 1946.

وقبـل اندلاع ثورة التحرير جـرب فرحات عباس التعـامل مع الواقع الاستعماري فرفع شعار "الجمهورية الجزائرية" وأسس لها صحافتها ووضع لها برنامجها وخاض به الانتخابات المحلية (المجلس الجزائري والمجالس الإقليمية والبلدية) والانتخابات البرلمانية الفرنسية (برلمان فرنسا) وأصبح متكلما باسم النخبة في البرلمان الذي يدير شؤون المستعمرة (الجزائر) وتنافس مع نواب حزب الشعب (حركة الانتصار) على تمثيل الجزائر، واستطاع أن يجلب إليه عطف رئيس جمعية العلماء الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (كما اكتسب عطف الشيخ عبد الحميد بن باديس من قبل). وغداة الثورة كان فرحات عباس هدفا للاتصالات من جانب الفرنسيين ومن جانب الثوار معا، ولكن الاتصالات لم تثمر، ثم تأكد عباس بحنكته السياسية أن السفينة الوطنية قد جنحت وأنها لن تعود إلى المرسى القديم، فركبها وأصبح بالتدرج ربانها بعد اختياره في مؤتمر الصومام عضوا في المؤتمر الوطني للثورة، ثم اختياره بعد سنة عضوا في لجنة التنسيق والتنفيذ التي تحولت بعد سنة واحدة إلى حكومة مؤقتة في المنفى هو رئيسها.

هذه الرحلة المتعرجة في الواقع السياسي الجزائري. لم يخضها زعيم آخر من جيل فرحات عباس فيما نعلم. فقد أثبت تاريخ هذا الرجل أن دوره لن يتكرر

وأن بصماته على التاريخ الجزائري المعاصر لن تزول بسهولة. كان فرحات عباس قد درس تاريخ الحضارات ولاسيما تاريخ الإسلام، وكان فيما يبدو من النصوص والشواهد التي يوردها، أنه معتز بالإسلام واللغة العربية (رغم أنه لا يتقنها) ومعتز بتقاليد مجتمعه، ومن أجل ذلك كان يناقش المستشرقين في آرائهم، أمثال غوستاف لوبون ولوثروب ستودار وهنري ديكاستري وغيرهم. و لم يكن يشعر بالنقص إزاء تقدم الحضارة الغربية، ولكنه كان يعمل ويتمنى أن يصل شعبه المسلم المستعمر إلى مصاف فرنسا واليابان وغيرهما من الشعوب الآخذة بأسباب الحضارة الحديثة. وكان واثقا أن الشعب الجزائري (والمسلمين عامة) قادر على الوصول إلى هذا الهدف. وأن القيود الاستعمارية فقط هي التي تحول بينه وبين الوصول إلى هذا الهدف. لقد كان في جداله مع الآخرين يستشهد (رغم حداثة سنه عندما كان يكتب الشاب الجزائري) بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وتراث الأدب العربي.

كان فرحات عباس ضليعا في الفكر السياسي، وخبيرا في التيارات التي قامت على أساسها الثورة الفرنسية والفلسفة الحديثة كالليبرالية والشيوعية والماركسية، كما كان مطلعا على أحداث التاريخ الإسلامي والأوروبي والعلاقات الحضارية بين الشرق والغرب، كالحروب الصليبية. وقد تبلورت هذه الثقافة عنده وبرزت في كتبه اللاحقة بشكل ملفت للنظر. فقد أقام فلسفته السياسية على محاكمة الاستعمار على ما ارتكبه من مجازر (مذبحة قبيلة العوفية) وجرائم كالتمثيل بالموتى، والتعسف في القوانين كقانون الأنديجينا. ووصل به الأمر أن أصبح ينظر إلى المستقبل نظرة غائمة (غموض الغد، حسب تعبيره). ولكنه في نهاية المطاف كان متفائلا، و لم يتراجع عن هذا التفاؤل حتى في أحلك الظروف كالثامن مايو 1945 والهزات المزلزلة التي عاشتها الثورة الجزائرية.

إن التقرير الذي بعثه فرحات عباس إلى المارشال بيتان هو الذي جعل منه بحق زعيما غير معلن حاملا لهموم الشعب الجزائري في ظروف صعبة غابت

عنها جميع الأصوات الأخرى، لأسباب مختلفة. ولعل وقوفه موقف المدافع عن حقوق الشعب عندئذ هو الذي رشحه لصياغة بيان عام 1943، باسم الشعب الجزائري. فقد اجتمع بزملائه السياسيين الذين تمكنوا من الاجتماع، وبعد التداول في وضع ومصير الشعب ومسار الحرب اختير لصياغة البيان الذي أصبح "مرجعا" في تاريخ العلاقة السياسية بين فرنسا والجزائر. وإذا كانت أحداث مايو 1945 هي المرجع العسكري لثورة التحرير فإن بيان فبراير 1943 قد أصبح هو المرجع السياسي لها. واللافت للنظر أن الشعب الجزائري "المتسامح" قد غفر لفرحات عباس زلته بين الحربين حين أنكر وجود الأمة الجزائرية عبر التاريخ، قبل أن يراجع التاريخ ويصحح زلته ويصبح "بطلا" مدافعا عن وجود الأمة الجزائرية ذات التاريخ الراسخ الطويل.

بقي أن نختم بالقول إن نقل كتاب (الشاب الجزائري) من الفرنسية إلى العربية قد جاء في وقته بل ربما تأخر عن وقته، وهو لا يخدم مسيرة فكر فرحات عباس فقط ولكنه يخدم تاريخ الجزائر المعاصر بكل حرارة وجدارة. وقد أحسن الدكتور أحمد منور الترجمة فجاءت سلسة العبارة متينة البناء وفية المعنى، كما أنه أضاف إلى الترجمة تعاليق هامة. لذلك لا يسعنا إلا أن نهنئ الدكتور منور على هذا الإنجاز ونتمنى أن يتابع عمله هذا حتى يخرج للناس خاليا من الأخطاء المطبعية ونحوها ومتضمنا فهارس (كشاف) للأعلام وغيرها لأن ذلك سيخدم البحث العلمي في أوسع مجالاته، كما نتمنى أن يواصل مسيرته فيترجم الأعمال الأخرى التي كتبها فرحات عباس، فهي تمثل ثروة في الفكر السياسي العربي ومرجعا أساسيا لتاريخ الجزائر المعاصر.

-أبو القاسم سعد الله

قمار 5 مايو 2005.

((لماذا أقتلك؟.. ماذا؟ ألست مقيما في الجهة الأخرى من الماء؟ لو كنت يا صديقي مقيما في هذه الجهة لكنت قاتلا، ولكان قتلك على هذا النحو ظلما، ولكن، وحيث أنك تقيم في الجهة الأخرى فأنا شجاع وهذا الفعل عدل))

-باسكال: أفكار

إحياء لذكرى ابن عمي سعيد عباس، الذي مات من أجل فرنسا في مضيق الدردنيل، في الحرب العالمية الأولى، وذكرى ابنه محمد الصالح عباس، عضو جبهة التحرير الوطني، الذي أعدمته فرنسا في واد سقان في حرب الجزائر.

تنبيه إلى القارئ

إن هذا الكتاب هو مجموعة مقالات كتبت في تواريخ مختلفة تحت الاسم المستعار "كامل ابن سراج"، وقد كتبت المقالات الأولى حين كنت أؤدي خدمتي العسكرية سنة 1922، وكتبت الأخرى أثناء دراستي في الكلية المختلطة للطب والصيدلة بالجزائر.

وقد نشر الكتاب سنة 1931، غداة الاحتفالات بالذكرى المئوية لغزو الجزائر، في الفترة التي كانت مطالب "الأهالي" فيها تنحصر أساسا في المساواة في الحقوق مع الأوروبيين، وهو كتاب غير معروف كثيرا، لأنه لم يسحب منه إلا ألف نسخة. وإن إعادة طبعه هي فرصة بالنسبة إلي لكي أنشر التقرير الذي وجهته إلى الماريشال بيتان في أبريل 1941. إن هذه الوثيقة كانت آخر محاولة لي لدى حكومة فرنسا الشرعية، من أجل الحصول على إصلاحات عميقة، كفيلة بعلاج حالة اليأس لدى شعبنا.

لماذا هذا الرجوع إلى الوراء، والشعب الجزائري اليوم حر ويمتلك مصيره؟ إنه ببساطة من أجل أن يكتشف الشبان الجزائريون الذين يعيشون في الجزائر المستقلة أنواع الشقاء الذي عانى منه الشعب، ويعرفوا كيف كان رد فعل

جيلنا -رغم قلة إمكانياته- ضد النظام الاستعماري، وبكلمة مختصرة: من أجل أن تعرف مشكلاتنا وتطوراتها، التي كانت في الغالب تطورات مأساوية.

إن ما بين زمن شبابنا الأول والزمن الذي نعيش اليوم، عالم قد انهار، وآخر مختلف قد برز أمام أعيننا. لقد كنس التاريخ المخططات الكئيبة لأوروبا الاستعمارية، وقد تأسس طوال القرن الأخير (التاسع عشر) والنصف الأول من القرن الحالي (العشرين) نظام اقتصادي صنع وفرض بالقوة المادية، و لم يكتب له الاستمرار إلا بقوة السلاح.

وستقوم الحرب العالمية الثانية بتعديل هذه العلاقات، فتتراجع أوروبا الاستعمارية، وتحصل أمم جديدة على السيادة الكاملة، وإنه لمهم أن يكون لأولئك الذين يقودونها نظرة موضوعية وكاملة بقدر الإمكان عن المراحل القاسية التي لم يعيشوها، فالمعرفة بالماضي هي دائما مفيدة. إنها على قدر كبير من الأهمية من أجل تنوير شعب بتاريخه، لأنه بواسطته يمكن له أن يستخلص المعرفة والفائدة من هزائمه، ومن أخطائه، تماما مثل انتصاراته.

إنني أقوم بهذه العودة إلى الوراء أيضا لأن الفرنسيين، وبالخصوص أولئك الذين كانوا في الجزائر، مازالوا يعيشون وراء ستار من دخان الحقائق المقلوبة الفظة. لقد صدم هؤلاء وأولئك على السواء باستقلال الجزائر، لأن الحقائق الجزائرية كانت دائما، وبصفة نظامية، تخفى عليهم. لقد كنا نحن ضحايا أسطورة، وكانوا هم، من جهتهم، ضحايا خداع طويل.

لقد علموهم طوال ما يزيد عن قرن أن الجزائر، الولاية الفرنسية، ليست إلا امتدادا للمضلع السداسي الفرنسي(*). وعندما دقت ساعة الحقيقة بالنسبة إليهم مثلما هي بالنسبة إلينا شعروا أنهم ضحية خيانة، وحينئذ راحوا يقاتلون بشدة من أجل أن يستمر هذا الخيال المضلل. و لم يكن هناك إلا قلة من رجال الدولة الفرنسيين، وقلة من رجال السياسة الذين كانت لهم، في ظل الجمهورية

*) كناية عن خريطة فرنسا بأضلاعها السداسية، وهو تعبير شائع الاستعمال. (المترجم)

الثالثة والرابعة، شجاعة التفكير الصائب والقول الصحيح. والنادر منهم أولئك الذين كانت لهم الشجاعة لينددوا بـــ "الوضع البائس للأهالي"، وهؤلاء الذين فعلوا ذلك صلبوا على عمود التشهير، أو طردوا من الحلبة.

ويستنتج من هذا، من حيث النظرة النزيهة للتاريخ، أن مسؤولية حرب الجزائر تقع قبل كل شيء على عاتق السلطة المركزية في باريس، ثم بعد ذلك على عاتق أولئك الذين أداروا ووجهوا البلد نحو الوجهة التي تخدم مصالحهم وحدها. وعلى هذا النحو دفعوا بشعبنا نحو المأزق المميت، وعرضوه لاختبار قاس للقوة. إن فرنسيي فرنسا وأولئك الذين عاشوا على هذا الجانب من المتوسط سينتهون إلى فهم ذلك وإلى التسليم به، أما في الوقت الراهن فإننا مازلنا نعيش عدم قابلية الفهم، والحقائق المتناقضة الخادعة.

إن كتيبي هذا يبين كل ما حاولنا أن نقوم به -دون أن نفلح ويا أسفاه- من أجل إصلاح ذات البين بين المستعمر والمستعمر، ومن هذا المنحى يمكن له أن يسهم في إلقاء الضوء على الماضي، وأن يحدد مواضع الأخطاء، وأن يظهر الحقيقة كاملة.

إن الحقيقة هي وحدها التي تكون بناءة، هي وحدها التي ستسمح لبلدينا، في مستقبل آمل أن يكون قريبا، بتجاوز الذكريات السوداء للعهد الاستعماري، وبتبـــديد سوء الفهم، وبالتعاون بفعالية لفائدة بلدين لا ينبغي أن يكـــون هناك ما يجعلهما منذ الآن على طرفي نقيض. إن المصالحة التي لم تتم بالأمس يمكن لها أن تتم اليوم، وأن تمتد إلى مجمل شعوب المغرب ذات الثقافة الفرنسية.

* * *

إن غزو الجزائر قد ارتبط منذ البداية ارتباطا وثيقا بالخلاف الديني والحضاري. إن فرنسا شارل العاشر بتروها في سيدي فرج، كانت قد حلت محل إسبانيا المسيحية، إسبانيا الملكة إيزابيلا الكاثوليكية وشارل كان، بعد أن

وضعت حدا لمملكة غرناطة آخر معقل عربي إسلامي في إسبانيا. ألم يكن في نية هذين الملكين انتزاع إفريقيا الشمالية من الحضارة الإسلامية؟

انطلاقا من هذه الروح قامت سنة 1830 أمة مسيحية أخرى باحتلال الجزائر، وبعد ذلك برزت أطماع اقتصادية، بحرية وتوسعية، وهي الأطماع التي أسهب ضباط الغزو ورجال السياسة آنذاك في تفاصيلها. علما أن الجزائر لم تكن آنئذ أرضا شاغرة، بل كانت معمورة بقوم أشداء ومحاربين.

كانت الصدمة شديدة، وقد دافع شعبنا ببسالة. وبالرغم من هزائمه فقد أبى أن يستسلم، واستأنف القتال في مناسبات مختلفة، ودام ذلك أكثر من خمسين عاما، وكان يجد نفسه عقب كل عصيان وقد جرد أكثر من ذي قبل من ممتلكاته. وقد ازدادت حالته سوءا عندما نزلت بين ظهرانيه تجمعات سكانية أوروبية كانت تبيت نية القضاء على السكان الأصليين، حيث أظهر هؤلاء الأوروبيون -أيا كان المكان الذي جاؤوا منه، وأيا كانت جنسيتهم- طمعهم، وحقدهم على المسلم، وعملوا كل ما في وسعهم على استعباده بلا هوادة.

فمن ذا الذي يدهش، منذ ذلك الحين، وهو يلاحظ أن مقاومتنا للمحتل كانت باستمرار، تغذيها ألف ظلامة، وألف مزحة ثقيلة متكررة؟ وعندما توقف شعبنا عن إظهار هذه المقاومة عن طريق السلاح، كانت تلك المقاومة قد سكنت قلبه، فواجه المستعمر بحقه المشروع وبإيمانه. وقد صرح أحد رؤساء القبائل المستسلمة للجنرال "بيجو" سنة 1841، وهي قبيلة بني هاشم، قائلا: "إن هذه الأرض هي بلد العرب، ولستم فيها إلا ضيوفا عابرين، وحتى لو أقمتم بها ثلاثمائة سنة مثل الأتراك، فلا بد لكم أن تغادروها".

إن هذا الاطمئنان النفسي كان يجهل نوايا الغازي، أما نحن فنعرف أن الجنرال بيجو كانت له نوايا كبرى، فقد كانت تراوده أحلام بأن يجعل من الجزائر المسلمة فرنسا ثانية بإحلال تجمع من السكان الفرنسيين بها، يكون أشد مراسا وأكثر عددا من الشعب العربي نفسه، فعمل على إضعاف القبائل، وحرم شعبا بأكمله من مقومات حياته، عن طريق الغصب المتعدد الأشكال،

والتأميم الجماعي المتكرر لأجود الأراضي، واستيلاء الدولة على الغابات، مما جعل المجتمع العربي يتراجع.

انمحى رؤساء العرب والأرستقراطية القبلية، وتفككت القبائل، وتجزأت إلى دواوير صغيرة أسهل للمراقبة. ومنذ ذلك الحين أناخت علينا بثقلها الخانق إدارة عسكرية في الأول، ومدنية بعد ذلك، تميزت بالخصوص بطابعها القمعي، إلى درجة تحول معها الشعب المحارب في بدايات الاحتلال -الذي ما كان على الجنرال بيجو إلا أن يشيد به- تحول، يوما بعد يوم، إلى "تراب أفراد" قابل للاستغلال بلا مقابل.

وعن هذا "التراب" من الأفراد الذي كان يصر على التمسك بالحياة، سيقول الشيخ بن باديس[1] ذات يوم، وقد هاله أن يرى فضائل الأجداد تتلاشى: "إن شعبا يجمعه طبل ويفرقه شرطي ليس بشعب".

فقد الاستعمار الإحساس من نشوة السعادة. كانت الفرصة مواتية له. ألا يكون الأوربيون قد فكروا جديا -بعد المجيء المكثف للألزاسيين إلى الجزائر في حوالي 1872 وبعد أن منح اليهود صفة المواطنة- في احتلال مكثف شبيه بذلك الذي فرضوه في الولايات المتحدة؟ ((لقد كانوا يعتقدون أن السكان الأصليين، المصدومين بحضارة متفوقة، سيتناقصون حتما. إن هذا ما كان قد حدث في أمريكا، وهناك من كانوا يتنبؤون بالفناء الحتمي لجنس السكان الأصليين))[2].

حاول هؤلاء الأوروبيون أن يحلوا في كل مكان، وبكيفية منظمة وضارية محل شعبنا، واختل النظام القبلي، وآلت أسر كانت أحوالها ميسورة إلى حالة التسول، ووقعت أسر أخرى ضحايا مرابين أمسكوا بخناقها، ولكن هل تخلوا

---

1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، عالم ديني كبير، كان يزاول التدريس بمسجد "سيدي لخضر" في قسنطينة، وقد احتاج إلى 25 عاما لإنهاء تفسير القرآن. ترأس "جمعية العلماء" التي أسسها بمساعدة الشيخ العقبي، وطالب الإبراهيمي، ومبارك الميلي، والعربي التبسي وغيرهم. وكان في السياسة يقول بالمجموعة "الإثنية" والمجموعة "السياسية"، ولذلك كان قد دعم سنة 1936 مشروع قانون "بلوم-فيوليت" الذي يجعلنا متساوين مع فرنسيي الجزائر ، مع بقائنا في الوقت نفسه مسلمين أصلين. ولد في قسنطينة سنة 1889، وتوفي في 16 أبريل 1940 إثر مرض عضال، وقد شرفني بصداقته ودعمه.
2) شارل روبير آجرون "تاريخ إفريقيا الشمالية".

حقا عن المقاومة؟ أبدا، لم يحدث هذا، ففي صمت، وطوال القرن، راحت الجماهير الفلاحية والرعوية تعيد بناء ذاتها بيولوجيا تقريبا، ببقائها وفية لتقاليدها ولتاريخها. كانوا، في رد فعل أولي، يرفضون كل ما يعرض عليهم المستعمر، ويقارنون الفرنسيين -بعد انقضاء قرون- بالرومان وبـ "نصارى" عهد آخر. كانوا يقاطعون مدارسهم، وعاداتهم السلوكية، ولباسهم، وعندما يتبنون اللباس الأوروبي أحيانا، بسبب ضغط الحاجة أو لتلاؤمه مع عملهم، فإنهم كانوا يحتفظون بغطاء الرأس المحلي بكل اعتزاز، كنوع من تأكيد جنسهم وعقيدتهم.

ما من مركب نقص زعزع كيانهم. وإذا واجههم الأوروبيون بالعنف والقوة -وهما وسيلة الغالب التي يمارسها على المغلوبين- فإن هذه الجماهير البائسة والجاهلة في الغالب، تلجأ إلى إيمانها بربها، وتحافظ على وحدتها، وعلى نمط حياتها، التي تزيد من صلابتها سياسة التفرقة العنصرية المفروضة من قبل المشرع الفرنسي.

وقد لعبت أمهاتنا وأخواتنا النساء المسلمات دورا أساسيا في مقاومة تغلغل الحضارة الأوروبية، فكن يوقفن كل ما يأتي من الخارج، وأصبحن الحارسات اليقظات على نمط مجتمعنا. فبفضل عنايتهن ارتبطت طفولتنا بالماضي، بالأمجاد القديمة للإسلام وللمغرب القديم، وعن طريقهن استمرت أغانينا الشعبية، واستمر تعظيم الأولياء والأماكن المقدسة واستمرت القصص التي تمجد الأجداد وفضائل شعبنا وفضائل الإسلام.

غير أن ميزان القوى كان غير متساو، ففرنسا المصنعة والعسكرية كانت تفرض علينا خضوعا مدمرا، والتجمعات السكانية الأوروبية كانت تظهر عدوانية نحونا أكثر مما تظهر من الفظاظة. لقد حشرتنا في حظيرة وتحولت هي نفسها إلى طائفة منغلقة على نفسها، استأثرت بكل الثروات الأساسية والأعمال، باحتكار الوظيفة العمومية والسلطة السياسية، وكانت تظن نفسها أنها بنت لتبقى "ألف عام".

لقد كانوا يذكروننا كلما سنحت الفرصة أنه يعيش على أرض الجزائر غالبون ومغلوبون، و لم يكونوا يريدون أن يتعلموا شيئا، ومثال ذلك –من بين أمثلة كثيرة– أنه عندما وضعت بلدية قسنطينة نصبا للجنرال "لاموريسيير"، تخليدا لذكرى الاستيلاء على المدينة سنة 1837، وقد صور الجنرال وهو يصدر الأمر بالهجوم على المدينة، شاهرا سيفه، وهو ما دفع الأستاذ مولود بن الموهوب –أحد أساتذة المدرسة القديمة(*) الذي كان مدعوا من قبل شيخ البلدية "مورينو" للمشاركة في الحفل– إلى أن يعلق على ذلك ساخرا: ((لو أن الجنرال لاموريسيير مازال حيا على عهدنا هذا، أما كان الحس السليم سيدفعه –ربما– إلى إعادة سيفه إلى غمده؟)). لكن "مورينو" وأشباهه كانوا أكثر غنى بما يمتلكون من حقول العنب مما كانوا يمتلكون من الحس السليم، ومن سخاء القلب، وكانوا ينشرون غطرستهم كأثرياء جدد بين أوساط الأوروبيين الأكثر تواضعا والأقل ثراء.

وكانت تحدث في بعض الأحيان حوادث عارضة ومصادمات، ومن ذلك أن طالبا من أصل مالطي، قدم من نواحي سوق اهراس، قرعني ذات يوم أمام كليات جامعة الجزائر بهذه العبارات: ((لولا فرنسا لكنت راعي ماعز في دوارك))، فرددت عليه: ((قبل مجيء الفرنسيين كانت أسرتي لا تعرف الجوع، وكان لجدي حقله وقطيعه، ولكن أنت هل يمكنك أن تقول لي ماذا كان آباؤك يفعلون في مالطة؟ أليس البؤس هو الذي جعلهم يهاجرون إلى الجزائر؟)). و لم يكن التقريع الساخر في صالحه. وهذا يبين كيف أن شعبا مغلوبا ليس بالضرورة شعبا ضائعا. لقد كنا نحتفظ باعتدادنا بأنفسنا. وإذا كانت الأغلبية منا ممتهنة وتعامل في بعض الأحيان مثل البهيمة فإن ذلك لم يجعلها تستسلم.

بعد حرب 1914–18 اكتشف المجندون والعمال الجزائريون عالما آخر، فتحت سماء فرنسا، وعن طريق احتكاك هؤلاء الجزائريين بأناس آخرين ذوي

---

*) يقصد هنا ما كان يسمى بـ "المدرسة الفرنسية الإسلامية" التي كانت تخرج إطارات جزائرية من مزدوجي اللغة لشغل مهمات إدارية في مجال الترجمة والقضاء. (المترجم).

أخلاق مختلفة، بدؤوا يعون حالتهم المزرية، فحكموا على النظام الاستعماري بالجملة، وأدانوه، وراحوا منذ ذلك الحين يطالبون باستقلال المغرب العربي. ولم يكن هذا في الأساس سوى نفس، سوى تمتمة همست بها منظمة "نجم إفريقيا الشمالية" ولسان حالها جريدة "الأمة"، برئاسة مصالي الحاج، محاطا بحاج علي عبد القادر، وسي جلالي، وأحمد بلغول، الذين كانوا مع الأمير خالد الرواد الحقيقيين، وكان المناخ السياسي لباريس ملائما لذلك.

بعد ذلك، وفي سنة 1937 رأى "حزب الشعب الجزائري" النور في الجزائر نفسها، معطيا نفسا جديدا لمقاومة قرن من الزمن، وأصدر نشرة"البرلمان الجزائري" ثم "الأمة الجزائرية" و"الجزائر الحرة". ومع هذا فقد ظل هذا الرأي يمثل الأقلية، لأن هناك الكثير من أبناء جلدتنا كانوا يؤمنون بتعايش الأعراق، عن طريق إعادة بناء مؤسسات نشطة ذات نظام اجتماعي وسياسي جديد، وهو الأمل الذي لم يكن من ورائه طائل، فقد كانت أغلبية المستوطنين تعارض كل تغيير.

وجاءت الحرب العالمية الثانية ففجرت كل التناقضات القديمة، وتسببت في يقظة آسيا وإفريقيا، وزعزعت في الوقت نفسه أركان الأمبراطوريات الاستعمارية الواسعة، وعدلت في الوقت ذاته موازين القوى، وأرهصت بتوازن جديد في العالم، فراحت كل الشعوب المستعمرة تطالب بحريتها، الكل كان يريد رفع نير الاستعمار، وإلغاء وضع اعتباطي لم يعد السكوت عليه ممكنا. الكل كان يرفع رأسه في نفس مشروع ومجمع عليه. وكانت الجزائر تطالب باحترام مبدأ القوميات في إفريقيا وآسيا، بالشروط ذاتها المطبقة في أوروبا.

في هذا الظرف حررت "البيان"[1]، وراحت الجماهير تنتظم، فولد أولا وقبل كل شيء تجمع "أحباب البيان والحرية"، ثم أنشئ بعد مجازر 8 مايو 1945 "الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري" و"حركة انتصار الحريات الديموقراطية" وريثة "حزب الشعب الجزائري". لكن الأوروبيين، والإدارة في الجزائر،

1) بـ "بيان الشعب الجزائري" تخلينا عن وهم سياسة إدماج الجزائر في فرنسا، وطالبنا بسياسة جديدة تحترم القومية الجزائرية، وتقوم على استقلال الجزائر استقلالا ذاتيا، في إطار "كومنولث" فرنسي موسع.

والسلطة المركزية في باريس، بقوا سجناء الماضي، فاقدي الإحساس بمثل هذا النفس، وفي آذانهم وقر نحو مطالبنا العادلة. كانوا يرفضون كل تغيير، وكل تطور، ويردون بتزوير الانتخابات، وبالابتزاز البوليسي، وبالاحتقار. كانوا يردون تسويات بالرغم من أنها كانت مشرفة ومقبولة، ويتمسكون بالوضع القائم بشدة. لقد أصبح المفهوم الاستعماري بالنسبة لولاة الأمور في الأمبراطورية السابقة طبيعة ثانية، خلافا لكل حس عاقل، وضد كل منطق. كانوا يجندون أنفسهم من أجل إبقاء هيمنتهم الشرسة علينا.

إننا نتذكـــر أن الجنرال ديغول قد حاول في سنة 1944 بقسنطيـــنة أن يحسن من وضع المسلمين بنشره أمرية تعدل بعض ترتيبات مشروع قانون "بلوم-فيوليت" لسنة 1936، وردا على هذا الإصلاح الذي لا أهمية له، يترجم "كابريال أبو" -شيخ بلدية إحدى القرى الاستيطانية، وأحد النواب السابقين في المجلس الجزائري- مشاعر أبناء جلدته بهذه الصراحة الوقحة: ((لقد سئمنا من حكايات انتخاب الأهالي السخيفة هذه، فإذا كنا قد نجحنا مرة بالقوة في توجيهها لإرادتنا، فإننا نستطيع دائما أن نعيد الكرة. لابد لنا أن ننهي هذه المسألة. إننا لم نعد نريد حكومات تتسم بطابع عاطفي ولى زمانه، ولكننا نريد رجالا أشداء يعرفون كيف يجعلون الآخرين يحترمون حقوقنا، وذلك باستعراض القوة، وباستعمالها عند اللزوم))..

..((لقد قمت في سنة 1936 بنسف مشروع بلوم/فيوليت، واستسلمت الحكومة لإرادتي. ما حاجة الجنرال ديغول إلى حشر نفسه من جديد في هذا الموضوع؟ إننا بقدر ما نعطي العرب بقدر ما يطلبون المزيد. صدقوني، إنني أعرف كيف يجب إسكاتهم))[1].

إن هذه اللغة التي يعبر فيها عن التحدي والحقد العاري من أي تحفظ هي اللغة المشتركة بين كبار سادة الاستعمار. إنهم يعبرون بوضوح عن مشاعرهم الحقيقية. إن هذه اللغة هي التي نقلت العدوى وأفسدت العدد الأكبر من أوروبيي الجزائر.

---

1) جريدة "باري - بريس" بتاريخ 7 مايو 1947.

إن الثورات الكبرى ليس لها في الغالب لا العقل ولا القلب. كم كان المؤرخ "كوتيي" -الذي علم مدة طويلة بالجزائر- على حق حينما صرخ ((لقد جعلنا هكذا حق الأقوى لا يرضينا كأساس لهيمنتنا الخاصة، غير أننا كنا على حق حين كنا نشعر أنه أساس مهتز)).

لماذا لم تفتح هذه الحقيقة البسيطة أعين أولئك الذين كان لديهم كل وسائل الفعل وكل وسائل التغيير؟ في الحقيقة، أعتقد أن هناك قدرا تاريخيا، فالرجال الذين عاشوا بيننا مئة عام، والذين يسيرون البلد دون اقتسام مع غيرهم منذ إنشاء المندوبيات المالية، لا يعرفوننا بشكل أفضل من الأيام الأولى للغزو. لقد كنا ندرس معهم في المدارس ذاتها، ونحصل على الشهادات نفسها، ولكن ما إن ندخل الحياة العملية حتى يتحولوا هم إلى "مستعمرين" ونحن إلى "رعايا"، فيا لها من سياسة قصيرة النظر.

إن هؤلاء الأثرياء الجدد كانوا يتخيلون أنهم سيظلون إلى ما لا نهاية سادة للوضع، وسيأتيهم الرد على هذا الضلال في الفاتح من نوفمبر 1954. فجبهة التحرير الوطني ستدعو حينئذ شعبنا إلى حمل السلاح، وإلى الشروع في الاختبار الحاسم للقوة، وفي هذه المرة سيخرج منه منتصرا.

وعلى هذا النحو فإن أولئك الذين أهانونا، والذين عملوا منذ 1830 إلى 1954 من أجل استعبادنا والقضاء على الجزائر المسلمة، ستقضي هي عليهم بصفة نهائية. غير أن حريتنا قد كلفتنـــا غاليا، وغاليا جدا، كلفتنا ثماني سنوات من الحرب تقريبا، ودموعا، وسيولا من الدم، وكثيرا من الموتى ومن الضحايا الأبرياء. مع الأسف، إنه كأي شيء يكون قد أخذ بالقوة لا يمكن استرداده إلا بالقوة.

* * *

لقد تحدثت عن قدر التاريخ، وربما يكون من الضروري استحضاره مرة أخرى لتفسير ما جرى في الجزائر ما بين الحربين العالميتين، ولماذا لم يفرض الحل التفاوضي والسلمي على الجميع، مع أن هذا الحل كان في متناول أيدينا، وكانت الجماهير الشعبية الجزائرية تتمناه، وكان في الإمكان -لو حدث- أن تقلب الصفحة الاستعمارية بطريقة سلمية، وفي صالح الجميع.

يروى[1] أن الرئيس "هوشي مينه" طلب قبل وفاته بأيام أن يسمعوه للمرة الأخيرة أغاني "موريس شوفالي"، تلك الأغاني التي كان معجبا بها في باريس في شبابه. هذه هي الحياة: إنه يمكن للشخص أن يكون العدو اللدود لفرنسا الاستعمارية، ويبقى الصديق المخلص لثقافتها.

لقد أتيت على ذكر ملخص موجز لسلسلة الأحداث التي أدت بنا يوما بعد يوم إلى العنف وإلى الطلاق، أما على أرض الواقع فإن الأمور لم تكن بمثل هذه البساطة. كانت عملية الاستعمار في الجزائر عملية مستمرة، تارة وحشية وبين الحين والآخر إنسانية. ألا يكون من غير المجدي تشويه الوقائع، ونفي بعض الحقائق من أجل تبرير جريان التاريخ وتفسير قيام حرب التحرير؟

إن إحدى أكبر وآخر الانتفاضات الجزائرية الهامة ضد الهيمنة الفرنسية تعود إلى سنة 1881 وهي انتفاضة أولاد سيدي الشيخ، التي هددت بشكل جدي التمركز الفرنسي في الناحية الوهرانية وفي جنوب البلاد، ونجد في قصائد الشاعر المحارب محمد بلخير، الذي عاش تلك الحرب، إشادة ببطولة ومقاومة أبناء قومه. إن قصيده سيبقى من أفضل الأشعار التي استلهمت الإسلام. يقول:

موت عزيز أولى من حياة ذليلة
لقد كان علم الأتراك يرفرف عاليا
ثم باعوا الإسلام للمسيحيين في القارتين

---

1) جان سينتني "مع هوشي مينه"، دار "سيكرس".

الأول يتألم والثاني يضحك: والله وحده الباقي[1]

إن من الأهمية بمكان أن نلاحظ أن الإسلام يبقى هو الغذاء الروحي للمقاومة الجزائرية ومحركها في كل أطوارنا التاريخية. إن هذا النوع من الوطنية هو الذي يبعث القوة في سواعد الرجال.

بعد انتفاضة أولاد سيدي الشيخ ستكون الأعوام التي أعقبتها أقل تململا، بحيث لم تعرف إلا اضطرابات قرية "مارغريت"[2] بمنطقة مليانة سنة 1901، واضطرابات عين التوتة بالأوراس سنة 1916، ولكن هذه الاضطرابات المحدودة لم تكن تشبه في شيء مواجهات الماضي. وقد عرفت الجزائر منذ ذلك الحين فترة هدوء كبير، انخرط فيها شعبنا على مدى سبعين عاما في العمل، تحدوه الإرادة في مقاومة الفناء.

وكان قد اتخذ في سنة 1890 قرار شكل منعرجا حاسما، تمثل في إنشاء التعليم الموجه لـــ "الأهالي". كان محركه هو الموجه الملهم "جانمير"، الذي تجاوز به عدوانية المستوطنين، وكان مقتنعا أن تطور السكان المسلمين هو ما سوف يكيف المستقبل، وعارفا أنه إذا لم يستند الفعل الحضاري لفرنسا في الجزائر على المساهمة المخلصة لأكبر عدد من السكان فإنه سيظل غير مستقر وغير دائم، ولذلك راح يكـــافح من أجل بناء المدارس، وتعليم الشباب المسلم وتلقينه مبادئ الحضارة الحديثة، وقاوم كل الضغوط إلى غاية اليوم الذي تمكن فيه المستوطنون من طرده عن طريق انتزاعهم من سلطات باريس أمر استدعائه إلى فرنسا[3].

---

1) محمد بلخير، أشعار من جمع وترجمة الأستاذ بوعلام بسايح، تقديم جاك بيرك، منشورات "سندباد.
الأبيات كما جاءت في الأصل هي:

أللي ايدير الخـــير ما يجمل	موت الحرمة ولا تمـــرميد الحين
علام التـــرك كان صـــايل	باعو الاسلام للنصارى في البرين
هـــذا هـــاني وذا مـــهول	يبقى في الملك غير رب العـــالمين (المترجم).

2) هي قرية عريوة ، وسكانها من قبيلة ريغة ، دوار عدلية . راجع د. يحي بوعزيز "ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين" ج2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1996، ص17. (المترجم).

3) بفضل جهود المدير "جانمير" كان هناك 33397 من الأطفال المسلمين (أي نسبة 4,5%) يزاولون الدراسة في التعليم الابتدائي سنة 1908؛ وهي السنة التي تمكن فيها المستوطنون من الحصول على أمر استدعاء هذا الموظف السامي ، الذي ما يزال الجزائريون يذكرونه.

أما المسلمون فإنهم، من جهتهم، ما عادوا ينفرون من هذا التعليم الذي كانوا في الأول يخلطون بينه وبين التعليم المسيحي للمبشرين، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من هذا حينما وصلوا إلى قناعة أن مجتمعهم غير منسجم مع تطورات العصر الحديث. اكتشفوا العلوم الدقيقة والتقنيات التي تنتج عنها، وقدروا مدى تأخرهم فيها، وهو تأخر لا يبرره أي شيء، حيث أن نبينا كان قد أوْصانا "أن نطلب العلم ولو بالصين"، بل أكثر "اطلبوا العلم ولو في بلاد الكفر".

وهاهو ذا العلم يظهر عندنا، ويجعلنا نكتشف أسباب تخلفنا، هذا التخلف الذي يشكل نفي استقلال الشعوب ومقبرة حرياتها، فكان لزاما علينا، والحال هذه، الخروج من التخلف والتطلع إلى التقدم الحديث، إذ أصبح تعلم العلوم وتمثلها ضرورة وواجبا.

لقد مكننا التعليم من أن نعي في الحين حقوقنا، وأن ندافع بشكل أفضل عن الشعب ونحميه من متاهة قوانين ضلل فيها، ومن نظم وإجراءات منع إدارية أو بوليسية. لقد كانت المدرسة فرصتنا، وهي في حد ذاتها وسيلة تطوير. إنها مرتكز قوي. هل يلزم التذكير بأن شمال إفريقيا قد اعتنقت الإسلام في القرن السابع بواسطة التعليم، الذي يحمل في ذاته معنى المساواة والإحساس بالحرية. والمدرسة هي دواء أيضا، إذ يمكنها أن تخفف من حدة عنف الفرقاء وتشفي كثيرا من الجروح، ففي أبواب المدرسة يصنع تقارب الأعراق، وفيها تسقط الأحكام المسبقة، وتنطفئ الأحقاد، وتولد الصداقات.

اكتشفت الجماهير المسلمة فرنسا الثقافية، والتقت نخبتنا المتعلمة بباسكال، ولافوازيي، وهوكو، وباستور، وبعدها التقت بالدكتورين مايو، ولافران، اللذين حسنا من الوضعية الصحية لبلدنا. كانت الجزائر في حالة تغير، وكان الشعبان مقرونين إلى المحراث نفسه، وكان العمل يقربهما من بعضهما، وأحيانا يجعلهما شريكين، وكانت هناك علاقات صداقة أو مجاورة طيبة تعقد، وهو ما ساعد على تهدئة العواطف التي كانت تتأجج في القلوب. وحينئذ، ومن خلال نظرة استذكارية إلى الوراء انبثق السؤال التالي: ما هو الحال الذي كانت

الجزائر ستصير إليه لو أن تعليم "الأهالي" الذي اعترف به بعضهم، قد عمم، عوض انتشاره بشكل شحيح مثل التقطير بالقطارة؟ ماذا كان سيحدث لو أن حالة الترقية المنصفة التي حصل عليها بوعكوير[1] تطورت مع الزمن وتضاعفت بمئة مرة، وماذا لو أن "العرب" كان في إمكانهم الاستفادة من الامتيازات الاقتصادية ومن الحقوق السياسية؟ وكيف كانت الجزائر ستتطور لو أنه كان في إمكاننا مثلا أن نكون شيوخ بلدية وقضاة ورؤساء ولايات، وموظفين سامين، وضباطا ذوي رتب عالية، دون أن نكون ملزمين بالتنكر لديننا؟ أقول ببساطة لو أن ذلك حدث ما كانت حرب الجزائر لتقع.

كان هناك احتمال أن تصير الجزائر في يوم أو في آخر بلدا مستقلا، ولكن دون إراقة دماء، ودون موت مئات الآلاف من الأبرياء، ودون حقد عرقي، وكانت ستنفصل عن فرنسا مثلما تنفصل ثمرة ناضجة عن الشجرة، بكيفية طبيعية، وكان في إمكان المجتمعين أن يعيشا في سلام، وأن يستمد كل واحد منهما مقومه من الآخر، ويكون عامل ثراء له، وكان في إمكانهما لو أنهما أعدا على هذا النحو، وتعودا على مد يد المساعدة لبعضهما، أن يبنيا معا بلدا جديدا.

وبالطبع فإن هذا الظرف لم يحدث، والمصالحة لم تتم ، فمن المخطئ؟ لقد حافظت السياسة الاستعمارية حتى النهاية على طابعها التمييزي والجشع، و لم يكن الجانب الإنساني ليهمها، أو حتى ليعكر صفوها. لقد حكمت –وبصفة نهائية– على العربي بأنه كائن منحط، وغير قابل للتطوير، و لم تشأ أبدا أن تتراجع عن هذه الفرضية المتفردة، بل لقد تمادت في موقفها هذا بحيث انتزعت الأقلية المستوطنة في سنة 1900 من البرلمان حقها في الاستقلالية في تسيير

1) صالح بوعكوير هو أحد مواطنينا، كان قد التحق بمدرسة باريس المتعددة التقنيات بتوصية من أستاذه، الوزير "بانلوفي"، وقبل تخرجه من هذه المدرسة، اشترطت عليه الإدارة الجزائرية العليا أن يتخلى عن دينه حتى تسند إليه وظيفة. كان آخر مرة قابلته فيها يشغل منصب نائب مدير الشؤون الاقتصادية بالولاية العامة، وكان ذلك في نيو دلهي سنة 1960 وهو عائد من مهمة باليابان. وفي 24 سبتمبر 1961 شارك في نزهة في البحر مع زملائه في الولاية العامة، فعثر عليه "غريقا" على شاطئ "سيركوف". رحمة الله عليه.

شؤونها بإنشاء المندوبيات المالية. وحيث أنها كانت هي سيدة الميزانية والاقتصاد فإن هذه المندوبيات كان يسيطر عليها المستوطنون، الذين كانوا يستمدون قوقم السياسية من ثرائهم العريض.

ومنذ هذا الإصلاح الجذري أصبح مصير "الأهلي" مرتبطا مباشرة بأولئك الذين كانوا يستغلونه، وكانوا يعتقدون أن تعلمه وتطويره سيأذنان بانتهاء مصالحهم وسلطتهم السياسية، وقد كانت هذه الكيفية في النظر إلى الأشياء، وفي استشراف المستقبل باطلة تماما، وانتحارية بشكل محتوم. وشيئا فشيئا نشأت حول هذه المندوبيات سلطة جديدة سوف تتمادى إلى حد منازعة السلطة المركزية في باريس. وبالنسبة للنخبة المسلمة في هذه الحقبة فإن الاختيار بدا لها واضحا، ويتمثل في الطعن في السلطة الاستعمارية، والتوجه بالنداء إلى فرنسا الليبرالية، وإلى مبادئها، وإلى إعلان حقوق الإنسان.

ظلت هذه النخب من 1890 إلى 1939، وطيلة أجيال عديدة، تطعن، وباستمرار، في النظام الاستعماري، بالرغم من ضعف الوسائل، وتطالب بالمساواة في الحقــوق مع الأوروبيين، ولم تقبل أن يعد انتماؤها للدين الإسلامي الذي هو الدين القــديم للبلد، ودين إفريقيا الشمــالية بأكملها، سمة نقص، ليجلــب لها وللشعب الجزائري وصمة مستــديمة أشبه ما تكون بـــ "النجمة الصفراء"(*).

ستصارع هذه النخب بأيادي عزلاء، وليس لها من سلاح سوى القانون الفرنسي. ولقد كنت شاهدا على كفاحهم لأنني عرفت جيدا الأمير خالد، الذي توفي منفيا في دمشق، والأمين العمودي، ودندن، وحاج عمار، ومحمد بن رحال، وعلاوة بن لونيسي، وحسن بن خلاف، وفكتور سبيلمان، والدكتور موسى، والدكتور بن تامي، وحي طالب، وعلي ساب، وسافر، وقايد حمود، وشكيكن، والمحامي حدو، وطاهرات، والدكتور عبد الوهاب

*) يشير الكاتب هنا -فيما يبدو- إلى نجمة داوود التي كان اليهود في بعض المجتمعات الأوروبية يرغمون على وضعها على ثيابهم حتى تميزهم عن غيرهم. (المترجم).

بشير، وزناتي، وبن حوره، وكذا العلماء مثل ابن باديس، وطالب بشير الابراهيمي، والعربي التبسي، ومبارك الميلي، وأمثالهم كثير.. حقا، لقد كنا نفتقر إلى الوسائل، أمام اللوبيات التي كانوا قد كونوها في باريس. لقد كان المسلمون معوزين ويتحـــدثون باسم شعب معوز، وبالرغم من هذه الإعاقة فقد كانت صحـــفهم تقرأ، وعمل منتخبيهم يتابع ويقدر، لقد كانت الجماهير المسلمة، التي كانت متعطشة للأخبار، وللمعرفة والعدل، تتابع جهودهم باهتمام، ومن بين الصحف التي كانت تصدر آنذاك، نستطيع أن نذكر: Le musulman (المسلم)، وLa voix des humbles (صوت المستضعفين)، وLa Panthère du sud (فهد الجنوب)، وLa voix Indigène (صوت الأهالي)، وL'Entente (الوفاق) التي كانت تصدر في قسنطينة، وL'Etandard Algérien (البيرق الجزائري)، و"الإسلام" في عنـــابة، و"الراشدي" في جيجل، و"الإقدام" وLa Justice (العدالة)، وLe Trait d'union (همزة الوصل)، وLa Tribune (المنبر)، و"التقدم" في الجزائر العاصمة، و"المصباح" و"الحق" في وهران، وغيرها(*).

ولم يكن مناضلو تلك الحقبة الناطقين باسمهم وحدهم، فقد كان في فرنسا رجال ذوو نظر بعيد، يدقون في قلق ناقوس الخطر، يمثلهم بالخصوص النواب: ألبان روزبي، وجورج ليك، وأبيل فيري، وجان جوريس، وروبير أينار، والجنرال ميسيمي، وبول بورد، وشارل جيد، ودوازي، وجونار، وكليمانسو، وفيوليت، وبلوم، وغيرهم.. وبكلمة موجزة: كل من كانوا يهتمون بمصالح فرنسا -بالتأكيد- فيما وراء البحار ولكن أيضا من كانت كلمة "عدل" بالنسبة إليهم لا وطن لها.

كان من بين هؤلاء الاقتصادي الشهير "شارل جيد"، عم "أندري جيد"، الذي أصدر سنة 1913 هذا التحذير: ((إذا لم تتحقق المصالحة والتعاون بين المستوطنين والأهالي فإن المستوطنين الفرنسيين سيلقى بهم عاجلا أو آجلا في

*) ترجمنا العناوين الفرنسية بين قوسين وأبقينا على تلك التي تحمل دلالة عربية كما وردت في النص الأصلي (المترجم).

البحر)). و"آبيل فيري" من جهته، وهو حفيد "جول فيري"، أعلن عن مستقبل حالك فيما إذا لم تكن هناك إصلاحات هيكلية في أقرب الآجال: ((خلال خمس وعشرين سنة سوف تكون لكم في الجزائر بروليتاريا عمالية، وقد بين التاريخ أنه عندما تستقي المشاكل الاجتماعية قوتها من المضاعفات الدينية، والمشاعر الوطنية، فإنها تكتسب حينئذ قوة انفجارية))..

وفي سنة 1931، أي قبل الحرب العالمية الثانية بسنوات معدودة، اتهم وحذر "موريس فيوليت" -الذي كان حاكما عاما في الجزائر- قائلا: ((إنكم عندما يحتج هؤلاء المسلمون تغتاظون، وعندما يؤيدون تشتبهون في أمرهم، وعندما يصمتون تشكون. أيها السادة، إن هؤلاء الرجال ليس لهم وطن سياسي... وهم يطلبون منكم أن تقبلوهم في وطنكم، فإن رفضتم، أفلا تخشون أن ينشئوا لهم واحدا؟؟..)).

لقد أحدثت حرب 1914-18 -زيادة على التغيير الذي أحدثته على مستوى الفعل- تغييرا في معطيات المشكلة. لقد أصدرت فرنسا في سنة 1912 مرسوم الخدمة العسكرية الإجباري بالنسبة للمسلمين، الذين كانوا رعايا فرنسيين، وعند إعلان الحرب العالمية الأولى عبر جيش بأكمله من المسلمين البحر المتوسط، وقاتل الجندي المسلم طوال الحرب خير قتال. وموازاة مع هذا، نزل كثير من العمال بالأرض الفرنسية، واكتشفوا فرنسا أخرى، ووسائل عمل وحياة أخرى، فأخذ يتحرك في ضمائرهم ما يشبه الثورة الاجتماعية. وبمجرد أن وضعت الحرب أوزارها أراد "جورج كليمانسو" أن يسجل ويكرس مساهمة الجزائريين في انتصار فرنسا، فوضع بمعية "جورج ليك" و"جونار" مشروع قانون يتضمن إصلاح الهياكل في الجزائر، وفي الحين ثارت ثائرة المستوطنين، الذين فرضوا "حقهم في النقض"، و لم يحمل القانون الذي صودق عليه سنة 1919 في النهاية إلا تحويرات خفيفة في النظام.

إن جعـــل "جورج كليمـــانسو" (النمر) يتراجع يلزمنا التسليـــم بأنه كان للمستوطنين قوة خارقة للعادة، وهذا صحيح[1]. إن تجمعهم داخل وحول المندوبيات المالية، التي تطورت إلى "برلمان جزائري" حقيقي، وإدارتهم لثلاثمائة بلدية موزعة عبر البلد، وتشكيلهم للأغلبية في المجالس العامة الثلاثة، وتمثيلهم وحدهم في غرفة النواب وفي مجلس الشيوخ، جعل لهم الجزائر تحت تصرفهم. لقد تحول كبار المعمرين إلى "دولة داخل الدولة"، يسيرون البلد حسب مشيئتهم، ويمنعون السلطة المركزية من لمس شؤون المستعمرة حتى ولو كان لمسا خفيفا. لقد كانوا يتدخلون حتى بأموالهم في دوائر المتروبول الانتخابية ليقضوا على مناوئيهم.

وقد كان لهذه الأقلية علماؤها الاجتماعيون واقتصاديوها ومفكروها، وكان اسمهم: أوجين إتيان، وطومسون، وإليزي، وساباتيي، وبرتانيا، وغاستو، ورو-فريسينين، وماكس ريجيس، وبورجو، وغوستاف ميرسيي، ولويس بيرتران، وأندري سيرفيي، وروبير، وراوو، ود. مول، وموريل، وموريتو، وأبو، وديرو، ود. بوردير، والأستاذ ميو، وبوابي بانس، ولا كيار، ودو سيرني، وآخرون أقل أهمية وأقل شهرة، ولكنهم أقوياء هم أيضا بالقدر الذي يجعلهم يملون أوامرهم على الحكام العامين.

ضد هؤلاء الطغاة الذين ينتمون إلى عصر آخر كنا قد ناضلنا، وكنا قد تصارعنا، وبقدر ما كانت معركتنا جديرة بالتقدير بقدر ما كانت غير متكافئة ومتزهة عن أي غرض، فلم يكن أحد منا في ذلك الوقت يحلم بأن يكون وزيرا. إن القليل من "الأهالي" هم الذين كانوا يستطيعون أن يرفعوا صوتهم، وكانت وسائل الضغط الاقتصادي والسياسي والرشوة والقمع كثيرة، وكانت مخالب النظام طويلة ومشحوذة، ويا ويل من يسقط منا بترك نفسه تنساق وراء إغراء "التشريف" والحياة السهلة، أو من يستسلم للخوف.

* * *

1). إن برلمانيي الجزائر الأوروبيين، الذين لا ينسون شيئا، سيسهمون بقوة في فشل كليمانسو في الوصول إلى رئاسة الجمهورية.

في سنة 1919 لم يكن سني إلا عشرين عاما، وكان قانون "كليمانسو" قد حمل للتمثيل الإسلامي بعض الأوكسجين، وكان منتخبونا يكافحون، وكنا نساندهم، وكنت شخصيا، ومنذ تلك السن إلى جانبهم، وخضت المعركة التي كانوا يخوضونها. وقد ظهرت مقالاتي الأولى في جريدة "الإقدام" للأمير خالد، وفي "همزة الوصل" (Le Trait d'union) لصاحبها ذلك الرجل الذي لا ينسى: فيكتور سبيلمان، وفي جريدة"التقدم" للدكتور بن تامي، وبعدها في "الوفاق" (L'Entente) للدكتور بن جلول.

وأثناء الحرب العالمية الثانية، وبعد نزول الحلفاء في شمال إفريقيا، أسست في سنة 1944 بالجزائر أسبوعية "الجمهورية الجزائرية" (La République Algérienne) التي دافعت فيها عن الخط السياسي الذي تبنيته وهو"الفيدرالية في إطار احترام الجنسيات".

وغداة الفاتح من نوفمبر 1954 انضممت إلى جبهة التحرير الوطني، وكتبت في "المجاهد" شارحا هدف حرب تحرير الجزائر. وهكذا، وطوال حياتي السياسية كنت أشعر بواجب "الاقتراب" من الشعب، وبترجمة تطلعاته المشروعة في كل مرحلة من مراحل تطوره، والدفاع عن مطالبه، ولم أخن في أية لحظة مصالحه، ولا أخضعت مستقبله لاهتمامات شخصية. وقد فهم الشعب ذلك، حيث أنه شرفني بثقته، وجدد ثقته بي في كل مرة. فعندما انفجرت حرب التحرير في الفاتح نوفمبر 1954 كنت مستشارا بلديا لمدينة سطيف ومستشارا عاما، ومندوبا بالمجلس الجزائري، بعد ما كنت نائبا في البرلمان بباريس، ومستشارا في الاتحاد الفرنسي، وكان لا بد أن يتحول التزوير الانتخابي في الجزائر إلى ممارسة رسمية لكي يبعد الممثلون الحقيقيون لشعبنا عن المجالس المنتخبة.

* * *

منذ استقلال الجزائر، كان هناك شبان جزائريون -ممن لم يعرفوا وطأة ليل الاستعمار ولا الاستعباد- يسمحون لأنفسهم بالسخرية منا، وبتوبيخنا، ومراقبة كتاباتنا[1]، إنهم يجدون أن ما قمنــا به غير كاف، فهل كانوا سيفعلون أفضل مما فعلنا لو كانوا في مكاننا؟ لقد كان عددهم قليلا في زماننا أولئك الذين يستطيعون من أبناء جلدتنا أن يرفعوا أصواتهم. ومهما يكن الأمر، فقد خضنا معركة يطبعها الحماس، ويوجهها بحثنا عن حريتنا، وكرامتنا، والدفاع عن قيم الإسلام. وهذه المعركة هي التي حركت الجماهير وأعدتها إلى مهمة أثقل.

حقيقة أنني ذو طبيعة مسالمة، وأفضل التفاهم المشرف على العنف، إلا أنني، ولكوني أعرف الماضي الاستعماري فإنني كنت أتفهم بالخصوص قيام حركات التمرد، وموت العدد العديد من الأبرياء، لهذا بحثت زمنا طويلا عن حل توافقي، وتحقيق التقدم بفضل التثقيف العلمي للجماهير الشعبية. لقد أتيت على ذكر أسباب فشلنا، وأي أحد كان سيفشل مثلنا لو كان في مكاننا.

لقد قيل عني أنني كنت "شديد التعلق بفرنسا"، أو أنني بتعبــير أدق ذو ثقافة فرنسية وهو حال رجال جيلي تقريبا، وحال من سبقونا، وحال من لحقوا بنا. عندما تناول محمد بن رحال الكلمة أمام المندوبيات المالية، كان المنتخبون من المستوطنين مأخوذين بفصاحته وقوة عبارته الفرنسية، تماما مثل ما أخذ زملاؤه من "الأهالي" بفصاحته حين تحدث باللغة العربية، لقد كان بن رحال ذا ثقافة مزدوجة، ولم يكن ذلك حالي، وأنا أتأسف لذلك بكل صدق، إن ثقافتي فرنسية، ولا أتحدث إلا العربية الشعبية، إذ أنه لا يمكن أن نقضي شبابنا مع "باسكال" و"كورناي" و"راسين" و"دانتون" و"سان جوست" و"باستور" و"هيكو"، دون اكتساب الحس المدني في معناه الدال على الواجب واحترام الذات، ودون التعلق أيضا بهذا التعليم، ودون التأسف أن لا يتسع ليشمل كل أبناء جلدتك.

---

1) مازال كتاب: "تشريح حرب" و"الشروق" لا يباعان في الجزائر. (يقصد أنهما ممنوعان من التداول في الجزائر، وهذا في الفترة التي كتب فيها المؤلف ملاحظته هذه، أي سنة 1981. المترجم).

هل كان في إمكان هذا التعليم الفرنسي أن يفقدنا شخصيتنا ويفصلنا عن ماضينا؟ لم أعتقد هذا أبدا، فالإسلام "هو وطن روحي" بلا حدود، يوجهنا من المهد إلى اللحد، إنه يتمثل الثقافات الأجنبية دون أن يذوب فيها، ولا حتى أن يتشوه أو يضعف، وبناء عليه فقد بقيت مسلما وجزائريا بكل شعيرات روحي، ولكن الثقافة الفرنسية أعطتني حسا رفيعا في الحياة، وجعلتني أقدر قيم الديمقراطية والإنسانية الحقيقية، وقد بقيت وفيا لها، فبفضل هذه الثقافة حاربت إقطاعيات المال التي استحوذت على السلطة في الجزائر ووقفت موقف العداء من شعبنا ومن الإسلام.

لقد نددت مع رجال من جيلي، ومع رجال أصغر سنا، بالعنصرية والظلم، وحركت الجماهير، وأسعفت العاجزين، ودافعت عن أشد الناس حرمانا، وقد فعلت ذلك عن إيمان، وعن اقتناع وحب، و لم أفعله أبدا عن كره، و لم يحدث لي في أي وقت أن تكلمت كلاما مزدوجا، ولم يحدث لي في أي وقت أن زورت، وهذا الكتاب يشهد على ذلك، فهل كانت نيتي الخالصة وصراحتي وسيلتي نضال جيدة؟ إنني أعتقد ذلك، ولكن للقارئ أن يحكم بنفسه.

* * *

استهـــلال

كان هناك كثير من الإضبارات والكتب التي نشرت، والكثير من الخطابات التي قيلت بمناسبة احتفالات الذكرى المئوية لغزو الجزائر، فطلب مني بعض أصدقائي أن أضيف إلى هذه الجوقة من الأفكار "معزوفة" من شاب جزائري مسلم، و لم أر جدوى لمثل هذه المساهمة، فالمؤلفات التي تكتب حسب الطلب تكون دائما موسومة بانتهازية تقلل من قيمتها، وهي من جهة أخرى غير صالحة –حسب رأيي– لأن تقدم حصيلة، ولا أن توقد –والحال هذه– شموعا فينيسية(*) على القبور.

إن سنة 1830 هي ملك الأموات، هي ملك أولئك الذين لفتهم سنة 1830 والخمسون سنة من الغزو التي تلتها في مجد الانتصار وفي حداد الهزيمة، فلا داعي لأن نهينهم بتسويق تضحياتهم أو نقلق راحتهم برقصات ومعارك وهمية. هل من الضروري حقا أن نتذكر الماضي بـــ "النوبة"(**) وباستعراضات لا جدوى منها؟ إن القرن الذي مات كان قرن الدموع والدماء، ونحن الأهالي بالخصوص من بكى، ومن نزف، وعليه فإننا ندفنها بلا أسف ولا فرح، ونرجو من الله ومن الرجال أن لا تعود هذه الأيام السوداء، كما نرجو أيضا –يحدونا في ذلك أمل خجول– في أن نستفيد منها في إعداد أيام أفضل.

لقد دار حديث كثير في هذه الأيام عن الأخوة، وهي الكلمة الجديرة بأن نأخذ بها، أما احتفالات الذكرى المئوية فهي ليست إلا تذكيرا أرعن بماض مؤلم، وليست إلا استعراضا لثراء البعض أمام فقر الآخرين، وعلى العكس من ذلك الأخوة التي تشكل برنامجا سياسيا، إنها المستقبل. غير أن هذا البرنامج يجب أن يكون متبلورا، وهذا المستقبل أن يكون معدا. إن هذا هو ما يجب أن يعمل كل جزائري من أجله. ومهما كان جميلا بالقدر الذي يجعله مثلا أعلى،

---

*) نسبة إلى مدينة فينسيا (البندقية) الإيطالية. (المترجم).

**) وردت الكلمة بالعربية في الأصل (La nouba) والنوبة في التعبـــير الشعبي تعني أحد طبوع الغناء، ويكنى بها في مثل السياق الذي أورده المؤلف عن الضجيج الذي يثار حول مسألة لا تستحق كل ذلك الضجيج. (المترجم).

فإنه لا يكفي أن نتصوره فحسب، ولكن علينا أن نحققه. إن وفاق الأعراق سيظل كلمة بلا معنى إذا لم يضع القرن الجديد مختلف عناصر هذا البلد على مستوى اجتماعي واحد، وذلك بإعطاء الضعفاء وسائل النهوض.

إن الأوروبيين هنا سوف يرفضون أن يمدوا لنا يدهم طالما بقينا في وضعية غير مستقرة، وطالما لبسنا الأطمار وبقينا جهلة. إن هذا موجود في طبيعة الإنسان. إن الإنسان لا يتآخى مع جاره إلا إذا فرض عليه الاحترام. إن برنامجا واسعا للنهوض الاجتماعي، يوضع ويطبق بنزاهة، سيكون أول خطوة نحو الأخوة، وكل ما يقال، وكل ما ينجز خارج هذا العمل الشامل سيبقى حبرا على ورق، وبلا ثمار.

إن استعمار بلد ما، عندما ينظر إليه من الخارج، لا يشكل إلا مؤسسة عسكرية واقتصادية، يدافع عنها بعد ذلك بنظام إداري مناسب، في حين تبقى فيه روح الشعب المستعمر، التي يهيمن عليها بالأساس ضيق الأفق، غير مكترثة بالتقريب بمشهد مظاهر الغرور هذه. وبالنظر إليها من الداخل تبدو هذه المستعمرة على العكس من ذلك، كأنها انقلاب حقيقي لعالم قديم بأكمله من الأفكار والمعتقدات، أو لنوع من الحياة الضاربة في القدم، بحيث تضع شعبا في مواجهة تغير عنيف، وهكذا تكون جماهير شعب بأكمله، وبدون استعداد مسبق، مضطرة إلى التلاؤم مع الوضع الجديد أو الفناء. إن هذا الوضع يؤدي بالضرورة إلى فقدان التوازن المعنوي والمادي، الذي يكون العقم فيه غير بعيد عن السقوط الكامل، ولهذا فإن الحلول الوسطى في مثل هذا الوضع، كما هو الحال في كل الثورات الاجتماعية، هي أسلحة قاتلة، والفعل الذاتي، النشيط، والشامل، هو وحده المخلص.

ويبقى بعد ذلك إتمام بناء السلم بواسطة تربية النشء الذي هو ذو أهمية عظمى. لقد تعود المستوطنون على تنشئة أطفالهم على احتقار "الأهلي" والخوف منه، والجهل به، وعلى هذا النحو يكبرون وهم يحملون عنه أحكاما مسبقة، ومن هنا يأتي الصدام، وعدم الوفاق، والأحقاد، فهل هناك ما هو

محزن أكثر من ألفاظ حقد يتفوه بها طفل؟ وعلى العائلة المسلمة أن تقضي من جهتها على الحكم الديني المسبق لدى أطفالها، مكملة بذلك تعليم المعلم بتربية روحية حسنة. إن برعم المستقبل، يوجد منبته في قلب الطفل، إنه برعم السلام، فهنا يجب أن تزرع الحقيقة، ويحيد الخطأ ويقضى عليه. إنني من أجل هذا الطفل، ومن أجل جيلي قد جمعت هذه المقالات التي كانت قد نشرت منذ سنوات في الصحافة الجزائرية، ردا على كتابات أولئك الذين أسميهم "جنود الأمبريالية الشاملة". وبالطبع فإن الشوط بيني وبينهم غير متساو، فهناك براعة الخطاب وبريق الكذب المذهب في جانب، وهناك عدم القدرة على المجاراة والحقيقة العارية في الجانب الآخر.

لا يهمني.. إن هذا الكتاب ليس جدلا حول قضايا لا تزال على أية حال تحتل صدارة جدول العمل أكثر من أي وقت مضى، بقدر ما هو عنوان رمزي يترجم إيماننا بالأزمنة الجديدة التي جاءت تحمل معها لهذا البلد طلائع روح جديدة. وفي حالة ما إذا خاننا القلب في جهدنا هذا، وفي تطلع روحنا إلى الأخوة والسلم، وإلى سعادة بلدنا، جاعلا منه مجرد حلم جميل، فسيبقى لنا دائما عذر هذه السن التي يسمح لها بأن تحلم(*).

-فرحات عباس

الجزائر، يناير 1930.

* * *

*) نذكر هنا أن المؤلف حين بدأ كتابة المقالات الأولى لهذا الكتـــاب كان طالبا بالجامعة، ولم تتجاوز سنه 22 عاما. (المترجم).

"تخليدا لذكرى المسلمين الجزائريين، الذين ماتوا
من أجل فرنسا في حرب 1914-1918".

الخدمة العسكرية للأهالي

في سنة 1912 فرضت فرنسا الخدمة العسكرية الإجبارية على الأهالي المسلمين، وكانت بوادر الحرب تهدد أوروبا، وفرنسا كانت في حاجة إلى جنود.

في نهاية حرب 1914-1918 قلصت الخدمة العسكرية بالنسبة للفرنسيين إلى ثمانية عشر شهرا، ولكنها ظلت بالنسبة للمسلمين محتفظة بثلاث سنوات، فاحتج المنتخبون المسلمون على ذلك، وطالبوا بالمساواة بين الفرنسيين والمسلمين. هذا الاحتجاج لم يعجب المستوطنين الذين كانوا يجتمعون حول مجلة "لافريك لاتين" (إفريقيا اللاتينية)، فحاولت هذه النشرة في عدد نوفمبر 1922 أن تبرر عدم المساواة، مبرهنة في ذلك على عنصرية مفرطة، وكنت في هذه الحقبة أؤدي سنوات خدمتي العسكرية الثلاث، فاستثارني سوء نية محرر "لافريك لاتين" وهزؤه، فرددت عليه في التو بإرسال مقالي إلى جريدة "الترى دينيون" للصديق المأسوف عليه "فكتور سبيلمان"، وقد ظهر المقال في الشهر نفسه.

أما بخصوص التقدير الذي حظيت به تضحيات جنودنا، الذي حولته مجلة "لافريك لاتين" إلى موضوع للسخرية، فيكفيني أن أسوق جملة من رواية "صلبان الحطب" لـــ "رولان دورجولاس" لتبدو لنا قيمة ذلك التقدير، إذ يتعجب قائلا:

"التيوس[1] يتتابعون.. سوف يحمى الوطيس".

إن تفكيرا من هذا النوع غني عن كل تعليق.

-مايو 1981.

* * *

1) كان الفرنسيون يطلقون اسم "بيكو: تيس" على الجزائري كناية على سواد شعره، ولكن تعريضا أيضا بما يلصق بهذا الحيوان من صفة الغباء. (المترجم).

I

الخدمة العسكرية للأهالي الجزائريين

في الظل حيث تعلو صرختي، قد يكون هناك
سامع، متواضع ورهيف المشاعر. ومع استمرار
الصراخ الذي يتغلغل فينا نوجد من يسمعنا.

م. روسطان.

في سلسلة من المقالات عن المسألة الأهلية أيدت مجلة "لافريك لاتين"[1] عدم المساواة في الخدمة العسكرية بين الفرنسيين والأهالي. وبالطبع فإن مساعدي السيد "لويس برتران" هم ذوو كعب عال في الكتابة، ولذلك فإنه يبدو من غير السهل علي، إن لم يكن من المستحيل، أن أشكك من خلالهم في الثقافة الإغريقية اللاتينية العريقة، ومع ذلك سأفعل، فالحقيقة لا وطن لها، وليست في حاجة إلى أن يكون لها وطن. فعلا، إن لغة الإطناب، بالرغم من الأدب الكثير الذي فرض وجودها، فإنها لا تخدع إلا الحمقى والمغفلين.

يبدأ كاتب المقال بعرض بعض الأفكار عن منتخبي 1922 من الأهالي، عما أظهروه من مسائل ثلاث ملأت نفوس هؤلاء المعجبين بالطغيان الروماني سخطا. وبالفعل، فقد عبر منتخبونا عن ابتهاجهم لانتصار الشعب التركي -الذي لا جرم له (في نظر أصحاب المجلة) سوى كونه مسلما- وهو الانتصار الذي حصل عليه بفضل الكثير من التضحيات في مواجهة أطماع الرأسمالية الأوروبية التي تحتل رأسمالية فرنسا فيها، مع الأسف، مكانة مرموقة، كما أثنوا على الحكومة حينما أنشأت الحي الإسلامي بباريس، لأن إنشاءه يسبق في نظرهم برنامجا جديدا للسياسة الفرنسية، الذي خرج منه الوفاق الذي نعمل

1) "لافريك لاتين" العدد 25، نوفمبر 1922.

من أجله منذ سنوات طويلة، وطلبوا أخيرا، المساواة في الخدمة بين الأوروبيين والأهالي، وهذا باسم أبسط مبادئ الإنصاف.

وبخصوص مقال "ماريشال الإسلام"، الذي أعطي للماريشال "ليوتي" فإن الصحفي قد فتح قوسين ليقول: ((.. آخرون سوف يكتبون هنا بالذات ما ينبغي التفكير فيه بشأن الحي الإسلامي بباريس، وبشأن العار الذي يجعل جنديا، يحمل رتبة "توران" و"دافو"[1]، يسمح بأن يوصف بـــ "ماريشال الإسلام". عصا القيادة لـــ "فوبان" تستعمل لديكور السراي)).

ماذا يفيد إلقاء الخطب في هذا الموضوع؟ ولكن يكفي، فقط، أن نقول ما يلي: لقد مضى السراي، ولن يبقى في التاريخ سوى أسماء مثل عقبة، أو خالد بن الوليد، أو طارق، الذين يساوون توران أو دافو، أما الحاضر فسيحتفظ بأسماء مثل زغلول، أو مصطفى كمال، المكلل طيفهما بالمجد، واللذين سيفرضان نفسيهما على الأجيال اللاحقة. إن هذين الاسمين سوف ينطق بهما بإجلال، ليس من قبل المسلمين وحدهم في العالم، ولكن أيضا من قبل أولئك الذين كانوا يبكون من قبل بنبل على مصير بولونيا المسكينة ولالزاس لورين.

* * *

كتبت "لافريك لاتين": ((إن المنتخبين الأهليين يطالبون بمساواة الزمن الماضي في خدمة العلم لأبناء دينهم وللفرنسيين، متحججين بثلاث حجج رئيسية: أولا: إن تضحياتنا في الحرب -كما يصرحون- كانت متساوية مع تضحيات الفرنسيين. وكنا قد بينا بأن هذا الادعاء هو محض افتراء، وبناء على ذلك فلا داعي للإلحاح عليه، إلا أننا سنسمح لأنفسنا بذكر بعض الأرقام، ولنأخذ فقط إحصائيات عمالة الجزائر، إذ كانت هذه العمالة في سنة 1914 تعد 288772 أوروبيا و1392770 من الأهالي، في حين أنه مات من أجل فرنسا

1) توران ودافو، كلاهما يحمل رتبة ماريشال، وكذا الماريشال المهندس دافو، وقد صنعوا كلهم مجد فرنسا العسكري في القرنين 18 و19، أما المقصود بمن لقب بماريشال الإسلام فهو الماريشال ليوتي (1854-1934) الذي فرض الحماية على المغرب سنة 1912. (المترجم).

أو فقد 7247 أوروبيا و9160 أهليا ، أي بخسارة 2,509% من الأوروبيين و0,657% من الأهالي، أي -بتعبير آخر- أن خسارة الفرنسيين كانت عالية بأربعة أضعاف عن خسارة الأهالي)).

إن هذا المنطق الذي يبدو للوهلة الأولى صحيحا، ليس أقل تضليلا من تلك المعلومات، لأن الأرقام في حد ذاتها لا تعبر عن الحقيقة، لكن المسألة لا توجد هنا ولكن توجد في التاريخ، ففي سنة 1830 كانت فرنسا قد شرعت في غزو الجزائر، و لم تحطم آخر المقاومات الجزائرية إلا في سنة 1912 بالصحراء، فإلى حد هذا التاريخ ظللنا العنصر المنهزم، أو الذي يعمل على هزمه، وهو العنصر الذي أضعف واستوحش بصفة آلية. هؤلاء الذين كان من المحتم الحذر منهم، وكان على المستعمرة أن تجعل منهم ضعافا وبؤساء، وكان كليمانسو العظيم يفكر عشية الحرب الكبرى في إرسال جيش يتولى مراقبتهم، وفي هذه الأثناء أحدثت فرنسا قانونا يجند الأهالي، مدخلة إياهم، على هذا النحو، في الدفاع عن أرضها، قانون التجنيد هذا أعطى فرنسا جيشا قوامه حوالي 250 ألف رجل، مات منه في الحرب الكبرى 80 ألفا، وهو ما يجعل نسبة الخسارة 32%.

وبالطبع فإن أعداء الأمس لا يعدون في هذه النسبة، وما ينبغي أن يعدوا، فالجيوش الوحيدة التي كانوا ينضوون تحت لوائها كانت موجهة ضد فرنسا للدفاع عن حريتهم وعن أكواخهم، والخدمة العسكرية لم تعد تهمهم، إنها لم تعد تهم إلا أولئك الذين تجندهم فرنسا من بيننا وتقبلهم، وقد أنشأت من أجلهم واجب الدفاع المقدس عن التراب الوطني، وقد قام المجندون بالأمس بواجبهم الوطني، وما نحن، مجندي اليوم، إلا ورثتهم الشرعيون من حيث أن تضحياتهم مستمرة عبرنا. لقد كانت تلك التضحيات متساوية مع تضحيات الأوروبيين إن لم تفقها، وبناء على ذلك فإنه لا يوجد هناك سبب معقول من هذه الناحية لجعل عدم المساواة شرعية، هذا هو التعليل الصائب، أما"البرهنة" الأخرى فليست إلا حشوا للأدمغة بغرض مباغتة النية الحسنة للجمهور. وحشو الأدمغة هذا لا يتوقف عند هذا الحد، حيث يضيف الكاتب المجهول

قائلا: ((ولنحدد، بالمناسبة نفسها، أنه من بين 9160 من الأهالي الذين ماتوا أوْ فقدوا، هناك 7423 فلاحا، و644 عاملا يدويا، و708 عسكريا محترفا، و21 مثقفا، وهو ما يعطي فكرة مهمة عن نوعية إخلاص هؤلاء لفرنسا)).

لنحتفظ بهذه الخلاصة، فهي تسمح لنا في المستقبل أن نحكم على حجة الأرقام بقيمتها الحقيقية. إنها تمكننا اليوم من فهم النية الخبيثة لنوع من الصحافة في الجزائر. فعلا كيف نتحدث عن الإخلاص في حين أن الأمر يتعلق بالخدمة الإجبارية، إننا لا نرى علة استثناء المثقفين من القيام بواجبهم العسكري. انه لا بد من الافتراض في هذه الحالة أن الضباط الفرنسيين المكلفين بتسجيل الأهالي يمكن أن يكونوا متورطين في عمل مخجل، ولكن مجلة "لافريك لاتين" لا تفترض هذا الافتراض. أمن أجل أن تحقرنا؟

والحقيقة أنه لا يمكن أن يستخلص من هذه الأرقام إلا نتيجة واحدة، هي أن 9160 الذين ماتوا من الأهالي و هم يؤدون واجبهم، لا يوجد من بينهم إلا 21 ممن يحسنون القراءة والكتابة فحسب، 21 فقط ممن كانوا قد تلقوا بعض حقوقهم، لأن التعليم حق من الحقوق، 21 فقط كانوا يعرفون لماذا كانوا يقاتلون، و لماذا كانوا يقبلون على الموت في "لامارن"، أما الآخرون فقد انتزعوا من أكواخهم ليسلحوا ببندقية و يذهبوا إلى القتال، دون أن يسمعوا من قبل حديثا عن فرنسا أو ألمانيا، و قد ماتوا.. فلترقدوا يا إخوتي ماجدين في قبوركم المهملة، التي لن تأتي ولو أم واحدة لتبكي عليها وتعد أيام حدادها، إن قلوبكم لم تكن تخفق إلا للأفراح العائلية، و لم تكونوا تدرون لماذا كان عليكم أن تذهبوا للموت.

وعليه، فلنتجاوز كل هذه الوشايات، و لنأت إلى النقطة الثانية، أي إلى الامتيازات التي يجنيها المجند الأهلي: تقول مجلة "لافريك لاتين": ((أنه يقبض منحة لا يقبضها المجند الفرنسي. إنه علينا أن نلاحظ هنا أن الثكنة بالنسبة للأهلي الجزائري هي بمثابة قصر، حيث يرقد في سرير، و يأكل حتى يشبع،

ويلبس لباسا نظيفا. ومن جهة أخرى فإن الخدمة العسكرية لا تؤثر على مستقبله المهني، في حين أن الفرنسي يكون مضطرا لإيقاف دراسته..)).

بخصوص منحة 250 فرنكا التي نقبضها، لابد لي أن ألاحظ بأن الذين طلبوا تقليص الخدمة للمسلمين الجزائريين إلى ثمانية عشر شهرا قد التمسوا أيضا تنحية هذه المنحة أيضا. وبناء عليه تصبح هذه المسألة غير مطروحة، لأن إلغاء هذه المنحة هي شرط من شروط طلب تقليص المدة. أما في الحالة الحاضرة، ولنقل من جهة أخرى، أن هذه المنحة التي لم نطلبها، والتي تمنح لنا لكي يوجه لنا اللوم بشأنها مثل ما فعل مراسل "لافريك لاتين"، هذه المنحة إنما هي شتيمة بالنسبة للفرنسيين، شتيمة مقززة. أما بالنسبة إلينا فهي أجر بخس لثلاث سنوات من الخدمة، وقد كانت "قرطاج" تدفع لمرتزقتها أكثر.

أما بخصوص الانقطاع عن الدراسة، فإن ذوي النية الحسنة من الناس يقولون معي بأن القلة من الأهالي المتعلمين قد وجدوا أنفسهم في الوضعية نفسها، مثل زملائهم الأوروبيين، بل أسوأ، لأن الطالب الأوروبي له الحق في مهلة خمس سنوات، في حين أن الطالب الأهلي ليس له الحق إلا في مهلة ثلاث سنوات، فإذا تأخر بسبب صعوبات الساعة الأولى، فلا يكون أمامه إلا بالكاد الوقت الذي يجتاز فيه امتحان البكالوريا، أو على الأكثر دراسة سنة جامعية قبل أن يجند لمدة ثلاث سنوات.

لكن مساعد السيد لوي برتران على حق في مسألة واحدة، فمن المؤكد أن المجند الأهلي بصفة عامة، لا يؤثر التجنيد على مستقبله. وهل لحمال الأرصفة، أو للعامل اليـــدوي لدى المستوطنين الأثرياء، أو لفلاح الأرض المحجرة مستقبل مهني يمكن أن يتوقف؟ أما بشأن الامتيازات التي يلقاها الأهالي في الثكنة (والتي قال عنها إنها بمثابة قصر بالنسبة إليهم)، فإن هؤلاء الأهالي يقدرونها بالقدر الذي يجعل الثكنة تلقي بهم إلى الشـــارع يوم تسريحهم. فلو أن محرر "لافريك لاتين" ذهب في اليوم التالي لتسريح الأهالي إلى البلد، عوض أن يمارس سياسة الصالونات ومقاهي الموضة، لاقتنع حينئذ أن المجند المسلم،

مثله مثل الأوروبي، ينتظر انتهاء الخدمة بفارغ الصبر، وأنه يحتقر قصر البق وأطباق العدس، ويفضل أن يتقاسم الوجبة اليومية، الهزيلة بالمعنى الحقيقي للكلمة، مع إخوته.

من جهة أخرى يعد الدخول في مثل هذه التفاصيل غير مريح، وإلا فما جدوى أن يعامل ابن الثري الباريسي، لو أن لحال هي هذه، الذي كان يستقل بغرفته الخاصة، على قدم المساواة مع ابن فلاح "السافوا" أو مع ابن صياد السمك الجزائري. غير أنني سأحتفظ باعتراف "لافريك لاتين"، التي آمل أن لا يحقـد علي المحرر إذا أنا كررته وهو: ((أنه في الثكـنة فقط يأكل الأهلي حتى يشبع، ويلبس لبـاسا نظيفا)). ويضيف مساعد لوي برتران قائلا: ((حينما يذهب الجند الفرنسي في إجازة فإن جعالته تتوقف، فأسرته ثرية، أليس كذلك؟ لكن الأهلي المجاز يستمر في قبضها، بل إن هناك ما يدهش أكثر من هذا ويصدم، وهو أن الأهلي الجزائري يعد في وضع المحارب وهو في الجزائر)).

غير صحيح أن الأهلي يستمر في قبض أجره وهو في الإجازة، وغير صحيح أنه يعد في وضع المحارب. نعم هناك من يعد في وضع المحارب في الجزائر وهو الجزائري المواطن (المستوطن) وليس الأهلي. أما بشأن البزة التي يحملها معه حين يسرح، ولنقل في الحين بأنها تتمثل في سترة وسروال استنفذا صلاحيتهما، فإن الأوروبي يلقي بها في المجاري. إن "لافريك لاتين" التي تعرف أن الأهلي يأكل في الثكنة لأول مرة حتى يشبع، ربما تعرف أيضا أنه ترك يوم تجنيده "قندورة" يبليها أبوه أو أخوه من بعده، في حين أن أفقر أوروبي لديه دائما رزمة تبديل صغيرة. إنه ليس لديهم عن بؤس الفلاح فكرة واضحة بما فيه الكفاية، فإذا كانوا يجندونه دون أن يقدموا له شيئا، لا تعليم، ولا قواعد صحية، ولا أي شيء مما يتلقاه أفقر فلاح من فلاحي فرنسا من بلده، فالأجدر بهم أن لا يساوموا بشأن الأطمار التي يحملها معه إلى بيته عند خروجه من المفرزة. ثم إن هذا، من جهة أخرى، ليس إلا نوعا من الصدقة

سوف يزول عندما يكون في إمكان الأهالي أن يتجاوزوه، بفضل التقدم المادي للجزائر. ولو فكرنا في المعاملة الخاصة التي تستهدف الأهلي في الجيش، وفي التمايز الذي يحدث يوميا بينه وبين رفيقه الأوروبي، ولو فكرنا، أخيرا، في امتيازات المجند الأوروبي -وهذه حقيقة- (مهلة خمس سنوات، وتقلص مدة الخدمة في حالة تأجيل التجنيد مرتين متتاليتين، وتقليص الخدمة لبكاري الخمسة أطفال، الحق في التكوين العسكري الأعلى، إلخ.. إلخ..) لو فكرنا في كل هذا فإننا نستطيع أن نؤكد دون أن نخشى قولا مناقضا، أن هذا المطلب الثاني للمنتخبين الأهليين هو مطلب أكثر تأسيسا من سابقه.

ولقد جرت العادة أن تذكر أحيانا مدة الخدمة في الاحتياط، باعتبارها امتيازا للمجند الأهلـــي (وهي خمسة عشر عاما، عوض خمسة وعشرين) وكذا نسبة التجنيد. وقد ضرب المحرر الماقت للعرب صفحـــا عن ذلك، وإنه لم يخطئ فيه. فإذا كانت فرنسا تقوم بالتعبئة، وينبغي التمني أن لن تقوم بالتعبئة قبل مدة طويلة، فإنه لا شيء يمنع من إصدار مرسوم جديد يعدل مرسوما سابقا، وقد رأينا ذلك أثناء الحرب، بالنسبة للعسكريين القدامى، الذين نودوا من جديد بمرســـوم، أما بخصوص النسبة فإنهـــا تظل خاضعة لحاجة الجيش، فإذا كانت اليوم تشكل 30%، فينبغي أن لا ننسى بأنها كانت سنة 1916 تشكل 80%، وإن أي تهديد بنشوب حرب يمكن أن يعيد بسرعة رفع النسبة إلى هذا الحد.

* * *

ولنتطرق الآن إلى النقطة الثالثة، فقد قيل "إن الجنود الأهالي أنداد للأوروبيين"، فتعلق "لافريك لاتين" على ذلك بقولها: ((هنا واحدة من أعاجيب الكذب الذي حشيت به أدمغة الأجيال، وإنهم يعطوننا فرصة لدحضه بشيء من الترف)).

بعدها يأتي نوع من الهذر الذي لا يمكن لنا أن نعيده، ولكننا نلخصه بكل سرور فيما يلي للقارئ: لقد أتت حرب 1914-1918 بتغيير جذري في

الأسلحة وفي طرق القتال، وسوف لن يكون بعيدا ذلك الوقت الذي يخفض فيه جيش الأمم المتحضرة إلى بضعة آلاف من المختصين، ولكن، وفي انتظار ذلك فإن على الجندي أن يكون أهلا لاستعمال الآلات الحديثة. أما الأهالي، فإن 999 من 1000 منهم جهلة، أميون، غير قادرين على استعمال سلاح معقد. ثم بعد هذا يأتي إطراء الجنود "الصبايحية" (الخيالة) على حساب "القناصة" (الجزائريين)، ثم يأتي بقصة مسلية عن موت "مرشح" أهلي أمام العدو. وأخيرا تأتي هذه الخلاصة: ((.. في حين أن المنطق السليم ليس في إبقاء الأهلي ثلاث سنوات في خدمة العلم، ولكن سبع سنوات على الأقل، إذا أردنا تخليصه من وسخه وترويضه)).

وإذن، فإن شجاعتك فيما يبدو، أيها القناص المسكين، لا تجدي في شيء، وأن ما قمت به في "شارل روا"، مثل ما قمت به في "فيردان" كان معدوم القيمة. لكن هون عليك، فما هذا إلا كلام ما بعد الحرب، وأقوال مجانية، وخذ بحكم أولئك الذين اقتادوك إلى ميدان الموت والنصر، وحكم أولئك الذين تألموا لألمك، وقاسموك مجدك. إن هؤلاء -الضباط الفرنسيين- لفخورون بك، فماذا يهمك من الباقي؟ إن شهادتهم مكتوبة هنا بدمك، فلتحفظها لنفسك بكل خشوع في قلبك، عساها أن تكون بالنسبة إليك، مثل ما هي بالنسبة إلي، حرزا حريزا ضد نذالة ونسيان أولئك الذين يشتمون الموتى.

بلى، نحن جهلة وأميون، ولكن هناك حالات استثنائية لهذه القاعدة، وهذه الحالات الاستثنائية تعود في جزئها الأكبر إلى التعليم. وبناء عليه، فإن "المنطق السليم" ليس هو أن نروض الأهلي بسبع سنوات من الخدمة، ولكن بسبع سنوات في المدرسة. إن هذا سيكون الأصوب والأكثر فاعلية وواقعية، لأن الجيش ليس هو نهاية النشاط الإنساني، فهناك إلى جانبه جيش المدنيين، الذي يعد عمله أهم للأمة. ونعلم أن الأهلي الذي سيضيق بالحرب بعد سبع سنوات من الخدمة، لن يكون جنديا للسلم أرفع شأنا، في حين أن سبع سنوات دراسة ستصنع منه مجندا جيدا، ومواطنا جيدا. ومهما قيل، فإن المدرسة تجعل من

الأهلي ندا للأوروبي، فهناك الكثير من المسلمين يخدمون اليوم في هيئات عسكرية كانت في زمن مضى خاصة بالأوروبيين، والعديد من هؤلاء المسلمين عينوا ضباط صف بعد عام أو ثمانية عشر شهرا من الخدمة. إن هذا التقدم في هيئة خاصة بالأوروبيين الذين لا يتمكن عدد منهم من الوصول إليها، لهو شهادة كافية على ما قدمته.

وهناك نقطة أخرى ينبـــغي أن توضح، إن الوفاق والصــــداقة التي تجمع بين الأوربي والأهلي ممن يتكلمون لغة واحدة، ويفهم بعضهم بعضا، لهو الدليل القاطع على أن المتعلمين المسلمين يعتبرون في نظر رفاقهم مساوين لهم أو أعلى درجة منهم، على حسب درجة التعليم لهؤلاء وأولئك. إن الجمهور سيقول معي إن هذه الملاحظة التي أخذت من الواقع الحي هي "أصدق" من ذلك النثر ذي القيمة الأدبية التي لا جدال حولها، وأنا أقر بهذا، ولكن "ما أسيسه" -كما يقول الفلاح بحق- هذا الكلام الذي يطبع تحت الرعاية السامية للسيد لوي برتران.

ولكي أنهي كلامي، سأعيد السؤال الذي طرحته "لافريك لاتين" لأعطيها إجابة عنه، محتقرا ما تضمنه السؤال من شتم: ((إن المسلم الجزائري وسخ وكسول ونوعيته سيئة ، فلماذا نجنده؟))، وهو السؤال الذي يجيب عنه المحرر المجهول بقوله: ((إنه حين أنقصت خدمة الفرنسيين إلى ثمانية عشر شهرا، كان الغرض هو تعويض الـــ 200000 رجل الناقصة بسبب هذا)).

إن هذه الإجابة غير دقيقة، لأن تقليص مدة الخدمة للأوروبيين كان سنة 1922، والجزائري المسلم كان قد جند منذ 1913، وبين هذين التاريخين كانت هناك الحرب وسنواتها محسوبة على أية حال. إن هذا يسمح لنا بالقول إن الأهلي قد استدعي لتأدية خدمته العسكرية لأنه اعتبر فرنسيا، وبصفته هذه وجب عليه دفع ضريبة الدم. لماذا أنا في خدمة العلم؟ هل تطوعت في الجيش؟ هل أنا مرتزق؟ لا، لقد استدعيت إلى الخدمة بصفتي فرنسيا وليس لشيء آخر.

إن الأهلي في "روهر"[1] فرنسي، وهو في العالم فرنسي، وسواء شاء أناس"لافريك لاتين" أو أبوا، فنحن مسلمون ونحن فرنسيون، نحن أهالي ونحن فرنسيون. في الجزائر هناك أوروبيون وأهالي، ولكن لا يوجد إلا الفرنسيون، من حيث أن الجزائر هي تراب فرنسي. هل ستكون خدمتنا ثلاث سنوات خلافا لتصريح وزير الحرب؟ ليكن، سوف ننتهي منها لنكون بعد ذلك جنود سلام.

لقد خرج الشعب الفرنسي من الحرب منهكا، وهناك مشكلات خطيرة تواجهه من مشكلات ما بعد الحرب، وأعلم أيضا أن بعض الأخطاء يمكن أن ترتكب، وما كان لي أيضا أن أقول أي شيء لو أن "لافريك لاتين" لم تضع شرف الجندي الأهلي، أي شرفي، موضع شك، ولو لم يكن هناك كتبة مأجورون يمجدون الأخطاء، بغرض أن يذكرونا بأننا لسنا من عرق واحد، وأن يعمقوا الخندق الذي تحاول فرنسا يوميا -فرنسا الخيرة، فرنسا التاريخ- أن تردمه. والأكيد أن سلوكهم يبعث على الثورة وقد كانت لنا محاولة للتعبير عن هذه الثورة، إلا أنه كانت لي في الوقت نفسه شجاعة التفكير في موتانا، وفي الأوروبيين الكثيرين الذين يقدروننا، والقول بصوت خفيض، في شبه مناجاة، ولكن في صرامة: ((أيها الألم، ما أنت بشر..)).

-قسنطينة، نوفمبر 1922.

* * *

1) روهر، نهر ألماني، من روافد الراين. (المترجم).

هجرة العمال الجزائريين إلى فرنسا

لقد سبق لي أن كتبت أن إحدى نتائج حرب 1914-1918 هي أنها عرفت الجزائريين المسلمين على أرض فرنسا. فعندما عاد السلم، وسرح الجنود الجزائريون، عادوا إلى فرنسا ليعملوا فيها في ظروف أحسن من تلك التي كانت تعرض عليهم في بلدهم، فخشي كبار المستوطنين أن يؤدي ذلك إلى ندرة اليد العاملة، وإلى ارتفاع الأجور، فتجندوا لمنع هذه الهجرة، بمحاصرة الحاكم العام "ستيك"، ومقر السلطة المركزية في باريس. وقد تكلل مسعاهم كالعادة بالنجاح، حيث خضع "كامي شانطون" الذي كان وزيرا للداخلية آنذاك لضغطهم، ووجه إلى السلطات المعنية منشورا حمل اسمه، يجعل هجرة عمالنا شبه مستحيلة. وكان المحرض والمشرف على تلك الإجراءات الظالمة هو النائب وشيخ البلدية "أبو"، وقد عرضت علنا "جريدة البلديات" -وهي لسان فدرالية رؤساء البلديات القوية- في عددها الصادر في فاتح ديسمبر 1923، بعث لي به أحد الأصدقاء، الإجراءات التي ينبغي اتخاذها، والطريق الذي يجب اتباعه. كان كل هذا جديرا بأن يوضح، فحررت حينئذ المقال التالي، وأرسلت به إلى جريدة "التري دينيون".

وبعد شهور من ذلك، امتطى خفية عمال مسلمون باخرة "سيدي فرج"، وعندما وصلوا إلى مرسيليا مات منهم 14 اختناقا في مستودع الفحم. وفي الحين أعلن مجلس الدولة عدم قانونية المنشور وألغاه، كأنه لا بد من موتى على الدوام لكي يصحو ضمير الرجال.

-مايو 1981.

II

هجرة العمال الجزائريين إلى فرنسا

إجراء اعتباطي

من النتائج التي أسفر عنها استعمار بلادنا ظهور نمط اجتماعي كان غير معروف في العالم الإسلامي، ألا وهو النمط البروليتاري. لقد كانت أريافنا من قبل عامرة بالفلاحين والرعاة، وكانوا كلهم ملاك أرض، والأسر الكثيرة العدد هي التي كانت توفر "الخماسين"[1]. لقد كانت المراعي والسهول الشاسعة، الخصبة، تسمح لهؤلاء الفلاحين بأن يعيشوا على القمح والحليب، ويلبسوا العديد من الألبسة الصوفية، وفي المدن، كان هناك، إلى جانب المثقف والتاجر، الحرفي الذي يعمل بدافع الرغبة لا بعقلية الربح.

لقد غير الغزو الفرنسي كل شيء، وأولها ربط الجزائر بأوروبا الذي رفع تكلفة المعيشة، فأصبحت الحرف الصغيرة غير كافية لإعالة الحرفي وأسرته، وأهمل شأنه، فقبل 1830 كان الخروف يساوي عشرين "سوردي"[2] في أسواقنا، أما القمح فقد كان يقايض به مقابل الفواكه، ويبقى منه الفائض ليباع لفرنسا الثورية أو لإنكلترا. وبعد ذلك وقع الاستيلاء على سهول الساحل، وطرد الموالون، أي مربو الماشية، إلى الهضاب العليا، وبهذا ضاعف الغزو من عدد الخماسين إلى أبعد حد.

فعمال اليوم ينحدرون إذن في معظمهم من قبائل محاربة كانت غنية وقوية، وبالطبع فإن هذه القبائل قد فقدت خيرة رجالها، مات رؤساؤها وأقوى رجالها، وأصبح من بقي منها يشكل بحق "تراب أفراد". وعندما كان على هؤلاء الذين ضلوا طريقهم، أن يعيدوا، بعد ما وضعوا السلاح، بناء بيوتهم، لم يعرفوا كيف يعملون، فبدوا أمام الغزاة بطرقهم الحديثة غير ماهرين، وغير

---

1) الخماس هو الفلاح الأجير عند غيره الذي يأخذ مقابل عمله من الغلة (الخمس) بعد الحصاد.

2) السوردي أو Le sou هو أصغر القطع النقدية ويساوي جزء واحدا من مائة من الفرنك، وقد آثرنا أن نحافظ على اسمه كما كان ينطقه الجزائريون. (المترجم).

دقيقين في عملهم، ويصدق معهم التعبير القائل "خدمة عرب" (عمل عربي) (Travail arabe) لوصف العمل الذي ينجز بشكل سيئ.

وبعد هذا، وشيئا فشيئا، جاء العامل الأوروبي النشيط، وصاحب الخبرة، والمؤهل تأهيلا يدويا عاليا -الذي قدم من كل حدب وصوب- بغرض الاغتناء، ليغزو المدن والساحل، على أمل أن يصبح مالكا، وقد أصبح مالكا بالفعل، بمؤازرة من الاستعمار الذي كان يشجع على الاستيطان الأوروبي. وفي هذا النوع الجديد من الكفاح الاقتصادي ظهر الأهلي مرة أخرى دون مستوى الأوروبي، وقد كلفه وجود هؤلاء الأوروبيين مصاريف باهظة، دون أن يمكنه ذلك -لعدم امتلاكه إعدادا اجتماعيا جديدا- من زيادة دخله.

في بداية القرن ظل يحصل على فرنك واحد أو فرنك ونصف في اليوم، و لم تكن أيام عمله لتكسوه أو لتعيله، وحينئذ استولى عليه الكسل، وتعود عدد كبير من هؤلاء الفلاحين على أن لا يفعلوا شيئا، وعلى الجلوس في الشمس على امتداد جدران البنايات العمومية. كان البؤس المتعاظم في أريافنا مقابل الملكية المتنامية لذوي الحيلة والشطارة من الأوروبيين، وللقليل النادر من الأهالي.

آه.. يا لبؤس الفلاح المسكين هذا، الذي لم يخطر على بال أحد، إنه بؤس كبير وبلا حدود، إلى درجة انعدام الفرق أحيانا بين الفلاح والبهيمة. ها أنت يا أخي شارد الذهن، محموما ومريضا. إنها تمطر، إنها تثلج، وأنت بردان وجوعان، تغطي "قندورتك" (عباءتك) الوحيدة جسمك الذي نهشته الجروح المقيحة، و لم تعد قادرا حتى على التألم. إنني أتألم من أجلك يا صديقي، لأنك أنت هو أنا، وأنا هو أنت. تصفر الريح عبر فروع القش التي تغطي كوخك، والمطر يقطر على الأرض الرطبة حيث تنام.. يا إلهي، من سيشفق على البؤس العريض لفقراء بلدي، من ذا يود أن يعالجه؟

إن للأحداث التاريخية الكبرى نتائج غير متوقعة على الرجال، وكانت نتيجة الحرب الكبرى أن تعرف على أرض فرنسا المسلمون الجزائريون الذين جندوا للدفاع عنها، فأخذ "المتروبول" في أذهانهم شكل الأرض الموعودة، فعادوا

متحمسين، قائلين ((إنهم في فرنسا يحبوننا، إنهم في فرنسا يعاملوننا بالحسنى، إنهم في فرنسا يعلموننا العمــــل، إنهم في فرنسا يدفعون لنا..)). لم يكن في ذهن الخماس حينئذ إلا فكرة واحدة وهي الهروب من "الدوار"(الريف)، ومغادرة هذا البلد الذي أصبح غير مضياف، و لم يعد له فيه منذ زمن بعيد إلا النكد والبؤس، فيغادر. 150000 عامل عبروا المتوسط، وكونوا الرابط الذي جعل عمالا آخرين يغادرون، هذا هو أصل نزوح الجزائريين إلى فرنسا، وهذه هي أسبابه العميقة.

إن هذه الهجرة هي موضوع جدول العمل اليوم، فقد وجه مستوطن ثري هو السيد "أبو"، رئيس فدرالية رؤساء بلديات الجزائر، والنائب السابق، إلى كل بلديات الجزائر نص أمنية، وقد ظهر هذا النص في "جريدة البلديات" بتاريخ أول ديسمبر 1923 تحت عنوان"لابد من تنظيم هجرة العمال الأهالي"، وجاء فيه: ((إن المجلس البلدي لــــ... يعتقد أنه من واجبه أن يلفت نظر الإدارة الجزائرية العليا، ونظر برلمانيي المستعمرة، ونظر فدرالية رؤساء البلديات، ونظر الحاكم العام، إلى وضعية ما فتئت تستفحل أكثر فأكثر من جراء نزوح الجماهير العمالية الأهلية عن المستعمرة. ولا يدخل في وجهة نظر المزارعين الجزائريين أن يطلبوا منع ذهاب العمال الأهالي إلى فرنسا، وحرمان المتروبول من يد عاملة هو في حاجة إليها، وخاصة في ظرف يليق فيه بالأمة أن تبذل جهدا معتبرا في الإنتاج وإعادة البناء)).

وبعدها يمر السيد "أبو" إلى تفصيل القول عن الوضع غير المستقر للأهالي الذين يغامرون نحو المجهول، وعن الخطر الذي يهدد فرنسا باستقبالها لهذه العناصر المشاغبة، وعن الأمراض التي ينقلونها، وخاصة السل الذي يسكنهم، وعن السمعة الطيبة للمستعمرة التي لا بد من الحفاظ عليها في المتروبول.

وأخيرا تأتي الأمنية وتنظيم الهجرة والنتائج الاجتماعية والاقتصادية التي تترتب عليها: ((... إن المجلس يعتمد على إخلاص منتخبي المستعمرة، والسيد الحاكم العام، من أجل المساعدة على تحقيق الأمنية التي يبعث بها، وهو ما

سوف ينتج عنه إرضاء لحاجات فرنسا الفعلية من اليد العاملة القادمة من المستعمرة، وحماية الأهالي بشكل فعال من الإغراءات الخطيرة، والحفاظ على السمعة الطيبة للمستعمرة وقاطنيها، أو إعادة بنائها، وتأمين الأرض الفرنسية من قدوم أشرار خطرين إليها، والاحتفاظ في الوقت نفسه للزراعة الجزائرية -التي يعد إنتاجها ضروريا لتموين فرنسا- بيد عاملة، هي بالتأكيد هزيلة ولكنها، وبالرغم من كل شيء، قابلة للاستعمال في الجزائر، وفي الجزائر فحسب)).

ولنحتفظ ببرودة دمنا أمام هذه الصفحة البليغة، ولنشكر السيد "أبو" على العناية الشديدة التي راح يبديها اليوم إزاء الأهالي الجزائريين، ولننوه ببراعته أيضا حين بدأ بالتصريح أنه لا يدخل في وجهة نظره أن يحرم المتروبول من يد عاملة ضرورية له.

بخصوص أن يكون للأهلي الحق في أن يذهب لكسب عيشه في كل العمالات الفرنسية فإن المسألة غير مطروحة، فهذا الأهلي لا يمتلك أي تنظيم اجتماعي، وعليه فهو لا يستطيع أن يضمن الدفاع عن نفسه، والسيد "أبو" يحتقره، وأن يقبل رجل الصناعة في المتروبول أوامر نخاس فهذه أيضا مسألة غير مطروحة، وعلى رئيس فدرالية رؤساء بلديات الجزائر أن يحذر جيدا من إعطاء تلك الأوامر، فذلك سيكون أكثر كياسة في تجنب أي نوع من سوء الفهم، إن هذا ما يسمى -فيما أعتقد- بالسياسة الواقعية.

ولنفحص، مع هذا، مختلف النقاط التي تشكل قاعدة تنظيم الهجرة المطروح، وأولها المخاطر التي تتهدد فرنسا. إنه ليس المرة الأولى التي يعبر فيها الجزائريون المتوسط، فذهابهم بصفة عمال يعود إلى الأيام الأولى للحرب، فهل هناك من سمع حديثا عن وباء كان حضورهم سببا فيه؟

ويقول السيد "أبو" بأنهم عناصر شغب وأنهم مجرمون، وليس هناك ما هو أكثر تهافتا من هذا القول. وبالتأكيد نحن نعرف عن طريق نوع معين من

الصحافة "مآثر" أصحاب "سيدي"[1]، ونأسف لها، ولكن، هل هناك، في نهاية الأمر، شيء آخر غير الجنح التي عودتنا عليها كل المجتمعات المتحضرة؟ هل نظم هؤلاء الجزائريون عصابات أشرار؟ هل قطعوا نساء قطعا؟ هل هددوا الأمن العــام؟ لقد ارتكبوا في بعض الأحيان جرائم، وخــاصة الجرائم العاطفية، فهل تجاوز هذا الإجرام مثلا إجرام الفرنسي والعنصر الأوروبي بصفة عامة؟ إننا لا نظن ذلك، وفي جميع الحالات فإنه سيكون من الظلم منع هجرة أناس طيبين لأن هناك بعض الأهالي قد سلكوا سلوكا سيئا. وفوق هذا، لفرنسا المركز أن تشتكي من الجزائريين، وأن تطلب طردهم من التراب الفرنسي، ولكنها لم تفعل، وفي الوقت الذي يضطرب فيه كل شيء في الجزائر يستمر الصناعي الفرنسي في فتح مصانعه للبؤساء من إخواننا، فأين الخطر؟ أليس هذا الصناعي أفضل موقعا من أي كان في الحكم عليهم وإبعادهم إذا دعت الضرورة؟ وفي الوقت نفسه، هل هو في حاجة إلى أن يكون السيد "أبو" ترجمانا عنه؟ إننا نطرح هذه الأسئلة على الناس الشرفاء، وهم الذين سيجيبون عليها.

وبعد هذا يتحدث النائب السابق عن السمعة الطيبة للمستعمرة وسكانها، وهي السمعة التي لابد من إعادة بنائها أو المحافظة عليها إزاء المركز، وهو يقصد بالطبع سكانها من العرب والبربر، في حين أننا ما زلنا نحتفظ في ذاكرتنا جميعا بالشتائم التي نشرت في حقنا على لسان السيد "أبو" منذ سنوات قليلة فقط، عندما وافقت فرنسا على إصلاحات 4 فبراير 1919[2]، ففي الفترة المذكورة كنا كلنا متوحشين ومتعصبين وبرابرة، فهل يمكن أن يكون هناك اليوم -بالمصادفة- عمال شرفاء من بيننا، ممن يعزب أمرهم عن فرنسي فرنسا؟ إننا نشكر السيد "أبو" على هذه العدالة المتأخرة، بشرط أن يتخلى في الوقت نفسه عن سياسة الواجهة الخارجية التي مارستها المستعمرة دائما.

---

1) يقصد الجزائريين. (المترجم).
2) هي الإصلاحات التي ألغت بها الحكومة الفرنسية القسم الأكبر من القانون الاستثنائي الجائر الذي كان يطبق على الجزائريين وحدهم، ويعرف باسم "قانون الأندجينا". (المترجم).

إننا لا نصنع سمعة طيبة لبلد بإجبار الأهلي على دفن نفسه في بؤسه، بل بالعكس، لابد من السماح له بـــ "الخروج" من محيطه، و"رؤية" ما هو خليق بالآخرين أن يصنعوه، وتحسين قدراتهم بالاحتكاك بهم، واتخاذهم مثلا. ولجعل هذا التحسين فعالا فإنه من المهم تسليح العامل بتعليم متين، يدوي واجتماعي، للوصول به منذ الساعة الأولى إلى مستوى هذه الحياة الجديدة. فإذا كان العامل الجزائري لا يحتمل مقارنته بالعامل الإيطالي أو الإسباني، على سبيل المثال، فإنه على العكس منهما لم يتلق أي شيء من بلده، لا التعليم الابتدائي، ولا التعليم المهني، ولا القوانين الاجتماعية، وعليه، تبدو الوسيلة المنصفة لبناء سمعة الجزائر في تربية وتعليم جماهير العمال والفلاحين. إن تربية وتعليم العامل الجزائري سيضاعف مردوده، ويكون في إمكانه تمثيلنا بشكل مشرف، ليس في فرنسا فقط، ولكن في البلاد الأجنبية أيضا، لأن مثله الأعلى بسيط ويتمثل في العمل بشرف، وإعالة نفسه وأسرته من ثمرة عمله، فإذا حدث له على يومنا أن ابتعد في بعض الأحيان عن هذا الطريق، فلأنه، بلا شك، لا أحد قد نبهه، فالخطأ إذن خطأ الرعاة، بمعنى أنه خطؤك يا سيد "أبو".

وبقي لنا أن نفحص ما أسماه بحماية الأهلي. ولا بد أن نتفق أن الأهلي الجزائري لم يكن قد أعد للهجرة، فقد رأيناه يهاجر مع شيء من الخشية، لقد قلنا إن البرد في فرنسا، ومنافسة عمال من جنسيات مختلفة أفضل إعدادا، ستجعل حياته مستحيلة، إلا أن الأمور لحسن الحظ قد مرت بشكل آخر، فقد فرض العامل الجزائري نفسه. وإذا كان بعضهم قد دفع حياته ثمنا لهذا الازدراع[1] فإن حقيقة أن الأغلبية قد استطاعت أن تتأقلم، وأن تعمل، ليست أقل صحة من ذلك. إنه لا ينبغي التصديق أن الفرنسي يلقي بنقوده من النافذة، وإنما يدفعها مقابل عمل، وهذا هو الاستحقاق الكبير لهذا الفلاح الذي حول على عجل إلى عامل مصنع، بسبب أنه استطاع أن يعيل أسرته في هذه الظروف، وبهذه الكيفية بعث بملايين الفرنكات إلى الجزائر.

1) الازدراع هو غرس نبتة في غير تربتها الأصلية. (المترجم).

وعن طريق الخداع يريد السيد "أبو" اليوم أن ينتزع منه هذه الفرصة، فرصة أن يحمل إلى بيته، لا أقول الثراء ولكن راتبا أدنى. لا بد من حمايته من السل، يقول لنا، ولكن هذا السل لا يعود إلى الأمس فقط، فقد لوحظ وجوده هنا منذ حوالي خمسين عاما، وقد عم بالخصوص سنتي 1915 و1916، مع مغادرة "الممونين" (Les convoyeurs) الذين كانوا يعملون في هذه الفترة كثيرا في الخلف، ويأكلون أكلا قليلا ورديئا. كان لا بد من إنتاج الذخيرة نهارا وليلا، والقليل من الفلاحين استطاعوا أن يحتملوا هذا الجهد، والكثير منهم عادوا "غير صالحين للخدمة"، لينطفئوا بهدوء بين أذرع الأمومة، وقد كانوا هم السبب الرئيسي في انتشار هذا الوباء الرهيب، في حين أن السيد "أبو" كان في سنة 1919 نائبا، فماذا قدم لأسرهم، وما هي الإجراءات التي اتخذت، أو حتى مجرد الوصفات التي أعطيت لمكافحة هذا السل؟ ولكن، لا ينبغي لنا أن نكون كثيري المطالب، ولنطلب منه فقط ما أمكنه أن يقول بخصوص هذا الموضوع؟ لا شيء. لماذا؟ لماذا نجده بالأمس لا يأبه بمصير الفلاح ونراه يهتم به اليوم؟ ليس السل هو الداء الوحيد الذي ندين به للاستعمار، فنحن ندين له أيضا بالدعارة، وتعاطي الكحول، وأشياء أخرى. ولندع الدعارة، حيث أن هذه المشكلة تتجاوز اختصاص النائب السابق لمدينة الجزائر، ولكن ماذا بخصوص تعاطي الكحول؟

يعترف السيد "أبو" أنه قد لوحظ رسميا في أعالي القبائل أن هناك أسرا بأكملها، يصل عددها إلى ستة عشر وسبعة عشر فردا، قد أبيدت بالسل، في حين أنه قد لوحظ رسميا أن تعاطي الكحول قد فتك بنا، وبالخصوص في أوساط التجمعات السكانية التي تقطن المدن. تعال إلى الجزائر لترى أن الأعياد الدينية (العيد الكبير والعيد الصغير والمولد) تعلن من خلال عدد من المخمورين الذين يتسكعون في الشوارع تحت الأنظار المتسلية بالمنظر لأعوان السلطة العمومية. إن هذا يحدث منذ أن وقع الغزو، فماذا فعلوا من أجل حماية العامل من هذه الآفة الاجتماعية؟ علما أنه لو اتخذ أي إجراء في هذا الصدد لكان قد استقبل بكل سرور وامتنان من كافة المسلمين.

إننا لن نلح، فعندما يقول السيد "أبو" ((من أجل الاحتفاظ للزراعة الجزائرية -التي يعد إنتاجها ضروريا لتموين المتروبول- بيد عاملة، هي بالتأكيد هزيلة، ولكنها، وبالرغم من كل شيء، قابلة للاستعمال في الجزائر، ولكن في الجزائر فحسب)) فإنه يضع الدفاع عن الأهلي ومصلحته في المقدمة، من أجل أن يخفي استغلالا دنيئا لهذا الأهلي بالذات، وإذن، فليس هذا صائبا، وليس نزيها، وليس سياسيا. ماذا علينا أن نستخلص عندما يستغل إقطاعي استعماري هذه الطريقة ذات الاستراتيجية المنحطة، من أجل أن يحتفظ بيد عاملة لا حماية لها، ماذا علينا أن نستخلص، ماعدا أن النزاهة والتقاليد الفرنسية قد بقيت في الجهة الأخرى من البحر؟.

* * *

إن الجزائري يحب أرضه التي ولد عليها، وهذا واقع جار ملاحظ، قديم قدم الجزائر نفسها، وإليكم ما كتبه في هذا الموضوع السيدان "هيسنار" و"بورو"، الأستاذان حاليا بجامعة الجزائر، في كتابهما "الطب النفسي للحرب": ((إن الأهالي، مهما كانت الأرض التي أنبتتهم كئيبة، وفي الغالب شحيحة، ومهما كانت ظروف معيشتهم المادية بائسة، فإنهم شديدو التشبث بأرضهم)).

وعليه، فإن هؤلاء العرب/البربر يهاجرون مرغمين، طريدي البؤس والفوضى الاقتصادية في بلدهم، بمعنى أن تنظيم العمل وحماية الفلاح يفرضان نفسيهما. إننا على يقين أن هذا الفلاح، إذا كان عمله منظما، وكان محميا، سيبقى في الجزائر. وبالطبع، فإن عملية التنظيم هذه هي مهمة التقنيين، وتتجاوز اختصاصنا واختصاص السيد "أبو"، ولكن، وحيث أن السيد "أبو" قد أثار المشكلة، فإن ذلك يسمح لنا أن نتناولها بدورنا على وجهها الصحيح.

ألا يحق للعامل الجزائري وقد أرهقته الضرائب، ونافسته في عقر أرضه يد عاملة قدمت من مختلف أصقاع أوروبا، وترك لحاله بلا تعليم، ولا قوانين اجتماعية، ألا يحق له أن يهاجر بدوره، لتفادي البؤس، ورواتب الجوع

والإفلاس؟ إن هذا هو السؤال الذي نطرحه على ضمير الشعب الفرنسي، وإننا في الوقت نفسه لا نعلق أي أمل وهمي على فعالية تدخلنا، ففرنسا شديدة البعد عنا، وقوة المال الاستعمارية شديدة البأس، وبؤس الفلاح لا يهم في نهاية الأمر أحدا.

إن الذين يعرفون الاستعمار من أبناء جلدتنا بكل بشاعته، يستغلونه أو يحيون غير مبالين، وقد أذهلتهم التشريفات العابرة، والخلافات القمينة بكبار الأطفال. ومن بين الذين يحكموننا يوجد من يجهلونه، ومنهم من يتظاهر بالجهل، وهم بهذا يسهمون جميعا في لعبة كبار المستوطنين، وكبار الصناعيين، الذين يشكلون وحدهم حكم السياسة الجزائرية. ولم يفلت الحاكم العام، السيد "ستيك" من هذه القاعدة العامة. لقد كان على بعض الأهالي الذين كانوا متوجهين إلى "فيشي" في شهر أوت 1923 أن يخضعوا لشروط تعسفية ومهينة، وهذا يعني أن السيد "ستيك" كان قد أعطى تعليمات سرية، طاعة منه لـــ "أبو" وعصبته. إن هؤلاء السادة الإقطاعيين يحاصرونه اليوم من جديد بصراخهم ((لا عمال أهالي في فرنسا)). وصحافتهم تتنافس في التنديد بمضار "سيدي". إن هذا الهجوم لن يوقفه شيء، إن لم يوقفه الانتصار الكامل لهؤلاء الذين يمتلكون الثروة ويأملون أن يمتلكوا القدرة اللامحدودة.

سيشهد غدا قوانين الاستثناء تزداد شدة، ثم يأتي بعد ذلك اليوم الذي يقنعنا فيه رجال ذوو نوايا طيبة بأن هذه الإجراءات قد اتخذت لمصلحتنا نحن بالذات، وستنسى أنها كانت من صنع نخاس ذائع الصيت، تحول بين عشية وضحاها إلى برلماني عن طريق الحقد على الإسلام وعلى المسلمين الجزائريين.

هل سيكون هناك من سيذكر فرنسيي فرنسا بأن أسطورة "حماية الأهلي" لم يروج لها إلا من أجل الكذب على الرجال والكذب على التاريخ؟

-قالمة. أبريل 1924.

* * *

"إلى المعلمين المحترمين في المدرسة والتكميلية والجامعة:
((إنكم تمثلون بالنسبة لتلاميذكم المسلمين أجود ما في روح فرنسا،
ففيكم، ومن خلالكم سوف تحبها الجزائر الجديدة))".

المثقف المسلم

في سنة 1926 كنت طالبا في الكلية المختلطة للطب والصيدلة بالجزائر، فانتخبني الطلبة المسلمون رئيسا لجمعيتهم. عندما نشرت جريدة "ليكو دالجي" بتاريخ 14 سبتمبر 1926 تحت عنوان "حادث مؤسف" تضع فيه الطلبة المسلمين موضع الشك، ملمحة إلى أنهم كلهم شيوعيون، بغرض الانتقاص من قدرهم في عيون السلطات العمومية، استفزني هذا الاتهام، وقمت قبل كل شيء بالاستعلام، فعلمت أن التقرير الذي نشرته جريدة الملياردير "ديرو" كان كله تلفيقا. وأثناء ذلك علمت بمقال لـــ "لوي برتران" نشرته جريدة "الفيكارو" يوم 19 أغسطس من السنة نفسها بعنوان "اعتذارات إلى الأفارقة" (والمقصود بالأفارقة -طبعا- هم مستوطنو الجزائر) وقد انبرى فيه الأكاديمي الجديد(*) بدوره إلى الطلبة المسلمين، ليصفهم فيه بـــ "أنهم ماجنون، وأطفال ماكرون".

وكانت "ليكو دالجي" و"لوفيكارو" تستحقان الرد فرددت عليهما. وكانت جريدة "التري دينيون" لصديقي "فكتور سبيلمان" قد توقفت عن الصدور، ولذلك حملت مقالتي إلى الدكتور بلقاسم بن تامي، مدير جريدة "التقدم"، وكانت هذه الجريدة قد حلت محل جريدة "الإقدام" للأمير خالد، الذي كان قد نفي إلى سوريا سنة 1922. وكان الدكتور بن تامي طبيب عيون ذائع الصيت، ومتزوجا بأوروبية ذات ثقافة عالية، ورسامة، وكان لهما ولدان، أكبرهما هو اليوم جراح كبير، وأصغرهما طبيب عيون مثل والده[1]، وقد

---

*) يقصد لوي برتران الذي كان قد حصل حديثا على عضوية الأكاديمية الفرنسية. (المترجم).
1) للدكتور بن تامي أخ أيضا أصغر منه وهو الدكتور حلابي بن تامي ، الذي كان يقيم في مستغانم، وقد أصبح أثناء حرب الجزائر مسؤول "الهلال الأحمر الجزائري" في جنيف.

أعجب الدكتور بمقالتي، وطلب مني أن أتعاون مع جريدته بصفة منتظمة، فأجبته بأن هناك أشياء كثيرة تثقل صدري، ولدي رغبة في الكتابة عنها، ولكنني طالب ممنوح، وإذا علمت الحكومة العامة بأنني أمارس السياسة فإنني أخشى أن تتعرض دراستي لخطر التوقف، فوعدني الدكتور بن تامي بالتكتم التام على اسمي، وعندئذ دخلت في الحوار والعراك مع الاستعمار ومع الذين يعملون على هدم الإسلام. وبعد الاحتفال بالذكرى المئوية لغزو الجزائر في مايو ويونيو ويوليو، وهي الاحتفالات التي أظهر الطلبة المسلمون استياءهم منها، كتبت مقال "مأساة الأمس وغموض الغد"، لأذكر الاستعمار بأنه إذا لم يغير من مفهومه، فعليه أن يستعد لأيام قاتمة.

وينتهي "الشاب الجزائري" بالإعراب عن أمله أن يرى المستعمرة تسير نحو أن تصبح مقاطعة، وهو الأمل الذي لم يتحقق. ومهما يكن الأمر، فإن ذلك كان أملا في تحرير الإنسان. ويبدو اليوم أنني كنت أهدهد نفسي بمجرد أوهام. لقد كانت رؤى المستقبل التي أملاها حماس الشباب لا تتطابق والواقع. لقد كانت طبيعة النظام الاستعماري هي الهيمنة والاستغلال، وكانت الطبقة التي تسير الأمور في باريس تتفق في الأساس مع ممثلتها في الجزائر، فكيف نأمل في إحداث تغيير عميق -مادام الحال على هذا النحو- تفرضه حكومة الجمهورية على الطغاة الذين يهيمنون على الجزائر؟

-مايو 1981.

* * *

III

المثقف المسلم في الجزائر

لقد روجت الصحافة في الشهور الأخيرة لاتهامات خطيرة وغير مبررة ضد الطالب المسلم، وأولها ما جاء في صحيفة "الفيكارو" بتاريخ 26 سبتمبر 1926، حيث جعل "لوي برتران" منا أنصاف مثقفين، وماجنين، وأطفالا ماكرين، مزايدين على مشاعر من يكنون الحب للعرب من الفرنسيين، ثم ما نقلته "الحوليات الإفريقية"، وكل الصحافة الناطقة بلسان المستعمرة، بعد وقوع أحداث "جامبير"، فقدمتـــنا باعتبارنا متعصبين، وشيوعيين، وثوريين، وناكرين للجميل. إننا نتساءل فيما إذا كانت هذه الصحافة تقدر مدى هذه الحملة، ألا تخشى أنها بهذا تخلق ما لا يمكن إصلاحه؟ إن الظلم ينتج في الحياة النفسية تحولات سريعة ونهائية. ألا يحول ضرب الأخيار الذين لا يستحقون ذلك إلى أشرار؟ لابد من الشرح إذن، وبكل صراحة. وإنني أتأسف من جهتي أن ليس لدي من الوقت ما يكفي لكي أدعم بأدلة دامغة شرحي الذي أعتبره تصريحا علنيا بما أعتقده.

فعلا، إن هناك وثائق كاملة عن الإسلام بصفة عامة، وعن السياسة الأهلية بصفة خاصة، كانت قد كتبت منذ خمسين عاما من قبل، من قبل المناوئين لنا، إلا أنه من غير الممكن لسوء الحظ، إيراد كل هذه النصوص هنا، وهذا يضيق إلى حد كبير إطار هذا العمل. إنني لست أكاديميا، ولا سياسيا محترفا، وأجهل فن المرافعة عن قضية من القضايا، غير أني بالتزامي الصدق سوف أقنع القارئ، لأنه حسب تعبير "ألفريد دو فيني"[1]: ((عندما نتحدث عن ذاتنا فإن ربة الوحي هي الصراحة)).

---

1) شاعر ومسرحي وروائي فرنسي، رومنتيكي المذهب، عاش ما بين 1797 و1863. (المترجم).

أحداث جامبير

إن أحداث جامبير تذكر بقوة بقصة "السن الذهبية" لـــ "فونتونيل"[1]، ومفادها أن طفلا طلعت له سن ذهبية، وهو ما حرك الأوساط العلمية وجعلها تضع آلاف الكتب لشرح الظاهرة التي لا تقبل الشرح، فكتب فونتونيل يقول: ((كأن لا شيء ينقص كل هذه الكتب الجميلة إلا أن تكون هذه السن ذهبية حقا، وعندما فحصها أحد الصائغين تبين له أنها ورقة ذهبية غلفت بها السن بمهارة كبيرة، غير أنهم كانوا قد ألفوا عنها كتبا قبل أن يستشيروا الصائغ في أمرها)). لقد سلكوا المسلك نفسه مع حادثة جامبير، مع فارق أنهم في نهاية القصة لم يستشيروا أي شخص. ويجدر بنا قبل كل شيء أن نروي وقائع الحادثة.

لقد نشرت "ليكو دالجي" يوم 14 سبتمبر 1926 تحت عنوان "حادثة مؤسفة"، ونقلت ما يلي: ((في يوم السبت الماضي، وعقب "ضيافة"[2] فخمة قدمها قايد "جامبير" بمناسبة "النجاح في كلية باريس"[3]، ذهبت مجموعة من الطلبة قدمت من سكيكدة لحضور حفل راقص نظم في ساحة الجمهورية مع بعض الطلبة المحليين الأهالي، وبعد أن شربوا أكثر من المعتاد، خلافا بلا شك لمبادئ القرآن، ظن أحدهم أنه من الذكاء بحيث تسلق وركب تمثال الجمهورية المنتصب أمام البلدية، ثم راح يقوم بحركات غير لائقة، وتفوه في الوقت نفسه بعبارات شتم لرئيس البلدية، في الوقت الذي راح فيه زملاؤه يصيحون: "لتسقط الجمهورية، وليحي السوفيات". وقد تركت هذه المظاهرة المؤسفة وغير المناسبة أثرا سيئا في أوساط الجماهير الأوربية والأهلية لمدينتنا، التي استنكرت هذا الفعل الذي يتجاوز الوصف، من قبل من يفترض فيهم أن يكون لديهم احترام لفرنسا أكثر من غيرهم)).

---

1) هو برنار لوبوفيي دو فونتونيل، كاتب فرنسي عاش ما بين 1657 و1757 واشتهر بكتبه التي تعمل على تبسيط العلوم ونشرها. (المترجم).

2) الكلمة بالعربية في الأصل، ولكنها مكتوبة بالحروف اللاتينية.

3) العبارة غامضة في الأصل، والظاهر أنها تتعلق بنجاح أحد أبناء القايد في دراسته بباريس.

وعقب نشر هذا الخبر راحت الصحف الجزائرية، وبعض الصحف الباريسية، تصدر تعليقات مكدرة إزاء الطالب المسلم. وبفعل تأثير هذه الحملة تكونت لنا الرغبة في معرفة حقيقة هذه الأحداث. وقد بعث إلينا أحد الرفقاء الفرنسيين، الذي كان واحدا من المدعوين، تصحيحا في غاية الدقة، إذ أنه غير صحيح أن الطلبة المسلمين كانوا قد تظاهروا، وكل ما هنالك أن اثنين من الطلبة الأهالي كانوا قد دعوا إلى مأدبة عائلية خمسة عشر من رفقائهم الطلبة الفرنسيين، فشربوا بعض الشيء أكثر من المعتاد، وكان هناك احتفال في البلدة فأرادوا أن يتسلوا فعلا، ولا شيء أكثر من هذا. وعلى العموم، إليكم الجزء المهم من التوضيح المذكور: ((إن النية واضحة، فقد حرفت الحقيقة. لقد أرادوا أن يظهروا مجموع متعلميكم عبارة عن جيل من الثوريين ومن الشيوعيين، وقد شكلت في الوقت نفسه مناسبة للقدح في التعليم اللائكي الإجباري.. إلا أن الصحفي قد أساء اختيار مثاله، إذ يفهم عند قراءة ما نقله أن الذين قاموا بالمظاهرة كانوا من الأهالي وحدهم. وهنا نتساءل كم كان من الأهالي بيننا؟ كانوا اثنين، وكم كنا نحن؟ كنا خمسة عشر، وأفضل من هذا أن صديقينا الأهليين، وأنت تعرفهما، قد قاما أثناء الحادثة بدور التهدئة، فقد كانا يخشيان -لكون أحدهما ابن قايد الناحية، والثاني ابن أخيه- على أوليائهما من الانتقام، فلو أن المسألة وقفت عليهما وحدهما لما حدث شيء، وإنني أتحدى أن يكذبني أي كان، حتى ولو كان أتقى أتقياء سكان جامبير، وإن هذا ما سوف تكتبه الصحف ويكتبه التاريخ لاحقا))[1].

هذه هي الحادثة في حجمها الحقيقي. وبالطبع، فإن دعابة رفقائنا لم تكن لائقة، ولكن يا للشيطان، لماذا تنسب للأهالي المسلمين؟ إنه من المعتاد في هذا البلد تغذية الأساطير التي تولدت عبر التاريخ، وإطلاق ضربات المباخر التقليدية في الأنف السعيد لجمهور تنقصه الخبرة. إن الصحافة بصفة عامة، عوض أن تقود هذا الجمهور نحو الوفاق بين الأعراق، تقدم له في كل يوم فرية

1) هذه الرسالة من صديقي "زانيتاكس" زميلي في الدراسة التكميلية، الذي التقيت به مرة أخرى في حدود سنة 1936، وقد أصبح أستاذا للتاريخ بثانوية "أميان".

لتغــذية الآراء المغلوطة وتضخيمــها، بيد أنه في إمكانها أن تقوم بعمل رائع، لو شاءت. فهل سيظــهر في يوم ما جنس الصحفي الكشاف على هذه الأرض الجزائرية؟

* * *

وماذا نقول أيضا عن تلك المرافعة التي ظهرت في جريدة "الفيكارو" بتاريخ 19 أغسطس 1926 تحت عنوان "اعتذارات إلى الأفارقة"، التي كتبها "لوي برتران"؟ لقد وضع هذا الأكاديمي، والأستاذ السابق في ثانوية الجزائر، تلاميذه القدامى من الأهالي موضع الاتهام، مع ذلك الكرم في العبارات المهين، التي هي إحدى خصائص مروجي فكرة "إفريقيا اللاتينية"، فهو يرسم بواسطتها لوحة مجنحة بعض الشيء.

إن الأمر يتعلق، في الوقت نفسه، بتغريم المستعمرة الأوروبية تغريما مشرفا لها، التي كانت موضع حكم قاس عليها من قبل متعاون مع "الفيكارو"، فكانت مناسبة للسيد "برتران" لكي يسخر من تطور الشعوب، ومن الجزائر المسلمة، حيث يقول: ((يكون لدى القادم الجديد (إلى الجزائر) يقين أن هذا التطور الجميل قد بدأ، فيقابل في طريقه شبانا من الأهالي ذوي ألسنة طلقة وجريئة، هي نتاج مدارسنا الابتدائية، بل نتاج ثانوياتنا وكلياتنا، ويحدث أن يأخذ هؤلاء الماجنون والأطفال الماكرون -الذين كانوا من جهة أخرى قد نشؤوا، ومنذ زمن طويل على نقاء "الرومي"- بعقل هذا الرجل، عندما يسردون عليه مقاطع بأكملها من مأثورات فرنسية، هي ذكرى من دروس كانوا قد حفظوها على مقاعد الدراسة، وهكذا فبمقدورهم أن يأتوا بمقاطع بأكملها قد تكون طويلة أو قصيرة، من مصنف كلاسيكياتنا القديم)).

((وفي أماكن أخرى يكون الطلبة هم الذين يقرؤون المجلات الفرنسية ويعيدون بكل يسر أحكام أحد نقادنا بشأن آخر رواية أو آخر مسرحية ذات طابع وجداني. ومن هنا يستنتج أن المقاهي الأهلية هي بؤر لثقافة عالية، وأن

للأهالي ثقافة مثلهم مثل أي شعب أوروبي، ومثلنا نحن على وجه الخصوص، وأنه لا يفصلهم عنا إلا خطوة واحدة، وننسى أنهم لا يشكلون إلا استثناء، وأنه لا ينبغي لنا، وفي جميع الحالات، أن نطيل مساءلة هذه الظواهر لنلحظ أن هذا الطلاء من الثقافة الأوروبية هو في غاية السطحية)).

إنه لا أحد، حسب ما أتصور، ينسى أن الخمسين طالبا أهليا، الذين تضمهم جامعة الجزائر من بين ألفي طالب، ليسوا إلا استثناء هزيلا، بالقياس إلى الستة ملايين من الأهالي الأميين. ولعل هذه الحقيقة البسيطة هي التي تجعل الجزائر الفرنسية بهذا القدر الضئيل من الترحاب بـــ "القادمين الجدد". إن صدمات الاستعمار هنا وفي المستعمرات بصفة عامة، هي من التناقض وتخييب الآمال بحيث يحتاج المرء إلى روح خاصة حتى يتمكن من رؤية الأشياء بوضوح، ويحقق في الوقت نفسه رضا النفس، والقليلون فقط ممن يعنيهم الأمر أن لا تكون هذه الروح هي روح ((الفرنسي الذي لم تهيئه رحلة، ولا تربية سابقة، لمعرفة العالم الخارجي)).

من هنا تأتي كل أنواع سوء الفهم، فلو أن فرنسا كانت -بعد أن دفعت ثمن الغزو- قد اعتمدت بصفة نهائية على "الجزائري" -أي مستوطن الجزائر- باعتباره الأقدر على إدارة السياسة الاستعمارية، لكانت قد تعرضت بقدر أقل للنقد، ولكانت قد تجنبت كثيرا من الخصومات، ومن المعلوم أن كل ما يأتينا من المركز (فرنسا) ينظر إليه هنا على أنه ((أحكام مسبقة ساذجة وحماقات عاطفية))[1]. أما بخصوص رأي الأهالي، فقد عثروا له منذ زمن لا بأس به على عنوان يلصق به، ألا وهو التعصب والشيوعية..

لكن علينا أن لا نسبق الأحداث، ولنعد إلى الطلبة المسلمين. إنه لا يدور بخلدي القول بأننا مثقفون، ناهيك عن القول بأننا أعلام، فنحن في معظمنا أناس مساكين، جاءوا من "دواوير" ومن عائلات متواضعة، ليصبحوا، لا أدري كيف، من حملة البكالوريا. وفي التعليم الذي تلقيناه، هناك نقائص، هذا

---

1) من سياق الكلام يفهم هنا أن المؤلف يعرض وجهة نظر المستوطنين. (المترجم).

موجود بالتأكيد، وهي تعود إلى الساعة الأولى. لقد دعينا إلى تحصيل معارف في لغة ليست هي لغة طفولتنا -حيث أن اللغة الفرنسية لم تكن قد دخلت بيوت المسلمين بعد- ومن الطبيعي أن تقابلنا صعوبات لم يكن رفاقنا الفرنسيون يلقونها. لقد كانت المدرسة الأهلية تبحث بجد على دواء لهذه الوضعية، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى ذلك. كان التلميذ يتحدث لغته خارج فصله، ويتحدث بها في ساحة المدرسة، وفي الشارع، ومع عائلته، في حين أنه، وطالما أنه لم يمتلك العناصر الأولى للغة الفرنسية، فإن تعليمه أي مادة أخرى يبقى بالنسبة إليه عديم الجدوى، وهنا ضياع وقت معتبر. لنفكر لحظة واحدة في السن التي يبدأ فيها الطفل الأهلي دراسته؟ إن هذه السن تتراوح ما بين ثماني سنوات واثني عشرة سنة، وهو الوقت الذي يجتاز فيه الطفل الفرنسي شهادة الدروس الابتدائية. يضاف إلى هذه النقائص المتعددة جهل الأولياء، حيث أن المساعدة والتوجيه اللذين يلقاهما الصغار الفرنسيون من ذويهم لا وجود لهما بتاتا هنا، فليس للتلميذ إلا معلمه. وبالرغم من هذا فقد توصلنا إلى أن نكون تلاميذ متوسطين. لقد عثرت في كشوف فصلية على ملاحظات ذات مغزى، مثل هذه الملاحظة: ((نتيجة مرضية جدا.. له معارف أدبية.. نضج فكري. مؤكد أنه سينجح)).

وفي الكلية، كان من بين الخمسين طالبا مسلما ستة رفاق حصلوا على شهادة الدروس العليا في الرياضيات العامة، وفي الفيزياء العامة، وفي حساب التكامل والتفاضل والفلك. ويوجد هؤلاء الطلبة اليوم في باريس لإعداد شهادة التبريز. إن هذه النسبة هي أفضل رد يمكن لنا أن نرد به، غير أننا لم نكن إلا خمسين طالبا، فلو أن الاستعمار أراد لكنا خمسة آلاف، من بينهم ستمائة في العلوم الدقيقة، لكن عليك أنْ تذهب إلى من يعيبوننا لتسمعهم هذا الكلام.

إنه لن يكون عديم الجدوى أن نلاحظ بأن أي إحصاء جاد هو شيء مستحيل في الوقت الحالي. إن الدراسة الثانوية التي هي قاعدة التعليم العالي، لا يمكن الدخول إليها إلا لأبناء عدد قليل من الأغنياء أو لمن يحصلوا على منحة

من الحكومة العامة، في حين أنه لا يوجد لدى هؤلاء الممنوحين، الذين هم في أغلبهم أبناء "قياد"، أي مثل أسمى يسعون إليه إلا أن يصبحوا بدورهم "قيادا"، فهم بالأحرى لا يستغلون المزايا التي منحت لهم، أو يستغلونها بشكل سيئ.

من جهة أخرى، يلاحظ أن سن التلميذ لا تعطى له أهمية في مستوى أعلى -وهذا كثير الحدوث مع الأسف- فنموذج الشاب القوي البنية، ابن الثامنة عشر، تلميذ الفصل العاشر أو التاسع، ليس نموذجا نادرا في المتوسطات أو الثانويات. وبالرغم من يقيننا أن هذا التلميذ سوف يبقى ذات يوم في بيته، ولن يحصل أي شيء، فإننا لا نرى ما إذا كان التلميذ الأهلي غير قابل للتحسن إلا عند عملية الانتقاء لتوزيع المنح.

وتذكر مجلة "لافريك لاتين" حالة أحد المبرزين في الفيزياء، وهو م. بهلول، فكتبت تقول: ((هناك واحد إذن من الأهالي المبرزين في الفيزياء، وربما سيكون هناك مئة من أمثاله في عشر سنوات أو خلال شهر أو غدا..)).
((.. في الظرف الحالي لا يوجد هناك إلا واحد، ويستدل من أحادية هذه الحالة أن عملية تطوير جموع الأهالي الجزائريين إجمالية))[1].

إن "لافريك لاتين" لها طريقة خاصة في استخلاص النتائج، فما يبدو إجماليا في هذه الحالة ليس هو في الحقيقة دليل "التطوير" ولكنه بالأحرى هو دليل تعليم الأهلي. إن هناك رجالا في موقع أفضل من موقع خصومنا، قالوا إن الأهلي الجزائري قابل للتطور، وللتعلم، ولتمثل التعليم الذي يقدمه له معلموه، وهذا يكفي. ومن جهتنا، نستطيع أن نؤكد أن هذا العمل المنجز على ضوء التاريخ والفكر الفرنسي هو أفضل رابط، إن لم يكن الرابط الوحيد بيننا وبين فرنسا العظمى. إنه بالتأكيد الأقل هشاشة: إنه إذا كانت هناك رغبة حقيقية في النهوض بالجزائر المسلمة فإنها لا تكون إلا "بالفكر وبالمحراث". هذه هي الطريقة الناجعة في كل الأزمنة، وتلك هي الصيغة الجيدة.

* * *

---

1) مجلة "لا فريك لاتين" 15 مارس 1922.

الأعراق المتفوقة

الاستعمار ودخول الإسلام

مهما يكن مستقبل الأجيال الجديدة للجزائر، ومهما تكن الأحداث التي لا دخل فيها، في الغالب، لإرادة الإنسان، التي تتطور الشعوب في داخلها أو تفنى، فإن العالم، بالنسبة لشخص مثل "لوي برتران" يبقى مقسما إلى قسمين هما: المتفوقون، الذين ينتسب هو إليهم، والمنحطون الذين هم نحن.

إنه قد لا يكون من غير المجدي أن نلاحظ أن هذه النظرية ليست مقصورة على أصحاب "لافريك لاتين"، فنحن نجدهم عند مختلف الشعوب المستعمرة، وبالخصوص في إنكلترا. ألا تكون قد وضعت بغرض إضفاء الشرعية على الغزوات الدموية التي وقعت؟ إنها تلغي ضمنيا حيرة الضمير التي تحدث عنها الأستاذ العلامة "كوتييه" من جامعة الجزائر. يقول: ((إن لدينا جميعنا، عندما يتعلق الأمر بالجزائر، ومعنا أولئك الذين يحترزون من بيننا كثيرا من النزعة الإنسانية، ما يمكننا أن نسميه وسواس الضمير، وعلى هذا النحو يكون مبدأ "حق الأقوى" الذي اتخذناه قاعدة لهيمنتا لا يرضينا، والحقيقة أننا على صواب حين نشعر أنها قاعدة متأرجحة))[1].

وواضح أنه مع نظرية"الأعراق المنحطة" يفترض أن لا يكون هناك مجال لوساوس الضمير، من حيث أن هناك أعراقا وجدت لتأمر وأخرى لتطيع. ما هي المعطيات العلمية والتاريخية لهذه المسألة؟ إننا لن نستعرضها هنا، لأنها تتجاوز إطار هذا المؤلف، ولكن يبدو أن أحد السفراء اليابانيين كان قد رد على تصور السيد "لوي بيرتران" حين قال: ((طوال الوقت الذي بقينا فيه أدباء وشعراء وأرباب أسر طيبين كانت أوروبا تعتبرنا متوحشين وبرابرة، وعندما تحولنا إلى ثلاثمائة ألف حربة أخذنا مكاننا بين الأمم المتحضرة)).

---

1) إميل فيليكس كوتييه "القرون المظلمة لبلاد المغرب".

إنه إذا كانت الآلة الحربية هي المعيار الوحيد للتفـــوق العرقي، فإننا نكون في هذه الحال، وبلا نقاش، في حالة انحطاط ظاهر، أما إذا كان الحكم على عرق يقتضي الرجوع إلى التاريخ الإنساني، فإن تاريخنا يقدم حينئـــذ أدلة عديدة على حيويته.

((لقد تلقينا هذه الحضارة نفسها منذ قرون معدودة، وكانت قد ظهرت بعيدا جدا عنا، في الشرق، في مصر، في كاليدونيا، لدى رجل البحر المتوسط، ذي الأصل السامي أو السابق عن السامي، لدى الرجال الذين كان يجري فيهم بالتأكيد شيء من دم الزنوج، فتفتحت هناك بشكل رائع طوال آلاف من السنين، فأين كان التباهي في هذا الوقت بالتفوق العرقي؟))[1].

لقد تحولت هذه النظرية، بعد أن اختزلت في الإسلام وأوروبا، إلى واحدة من التعارضات التي كان لي فيها القول التالي: "قل لي من تكره أقول لك من أنت". فعندما يكون الغرب –الذي هو بهذا القدر من الاختلاف في الذهنية معنا– هو لوي بيرتران الذي لم يفهم شيئا في الإسلام، ويدعي بأنه يريد أن يعلم الشعوب تاريخها الخاص بها، وأن يملي على الإنسانية سننه وقوانينه، فإنه يصبح مضحكا بشكل عنيف. وعندما يأتي هذا التعليم ليؤكد في حذلقة "تفوق الإنسان الأوروبي"، وأنه لا يوجد خلاص خارج المسيحية، فإنه لا يسعنا إلا أن نستعيد بيت الحريري الذي يقول فيه:

أنـــت أكيـــد في واد   وأنـــا في واد آخـــــر

ولكن هل يعني هذا أن نتخندق خلف متاريس عازلة ونترك الغلط يستمر؟ لا، ليس. إنه يتعين على أوروبا –من حيث أن مسؤولية وجودها على رأس التقدم يوجب عليها ذلك– بأن تعيد النظر في حكمها، وأن يكون لها في شؤون الشرق قدر أقل من الأحكام المسبقة، وشيء من النزاهة، وتفهم أرحب للروح الآسيوية والإسلامية. ليس في هذا مستحيل، لقد رأينا مع العلامة "كوتييه" أنه أمر ممكن، شريطة أن نعمل على تجريد السياسة والأدب والتاريخ

1) إ. ف. كوتيه، المرجع نفسه.

من هذا العيب الذي يتمثل في المصلحة، لأنه، ومنذ زمن بعيد، كانت أدنى كتابات بعض المؤلفين الأوروبيين عن بقية العالم تحضن، مع الأسف ، عبادة عجل الذهب. ((إننا على صواب في قولنا إن الشعوب تحكم بالمبادئ، ولكن أصبحت الضرورات الاقتصادية في الأزمنة الحديثة من القوة بحيث تبقى المبادئ عاجزة أمامها))[1].

إن الأمور لم تكن هكذا دائما، لقد كانت المبادئ شديدة القوة في الزمن الذي كانت فيه الشهية أقل. ماذا كان يمكن أن يكون عليه شأن "لوي بيرتران" بدونها وبدون هذه الروح القديمة لفرنسا، التي ولدت من ألم الشعب وبؤسه؟ لقد قرأت مؤخرا كتابا ممتازا للسيد "هنري بيرو" بعنوان "غابة حارس المعبد المشنوق". هل في استطاعتنا أن نتصور مجموع الآلام التي كان يعانيها فلاحو فرنسا يوم أن كانوا محاصرين بشكل دوري بالحرب والأوبئة والجوع والبرد والغزو والجهل، وهي الآلام نفسها التي نعاني منها اليوم في الجزائر، ومع ذلك فإن البورجوازية الفرنسية قد خرجت من هناك.. لكن الإنسان ينسى، إنه ينسى شقاء الماضي في طمأنينة الساعة الحاضرة، إنه ينساها إلى درجة أنه حينما يلقاها في طريقه يتجنبها غير مكترث، ويتظاهر بمظهر الرجل المتفوق، وهكذا وجد المحرومون من أبناء فرنسا القديمة في أعماق أنفسهم الدوافع التي جعلتهم ينتقلون إلى الهجوم على النظام القديم، والقضاء في حركة غاضبة على الطبقة النبيلة الفرنسية التي روت طوال ألف عام بعرقها ودمها أرض الميلاد لتصنع الوطن. وهكذا تحول هؤلاء "الجائعون" بدورهم إلى بورجوازيين نبلاء على أرض الجزائر، مشغلين بالكيفية التي يفصلون بها من جلد الفلاح المسكين لوحات لأسماء فنادقهم. أما هؤلاء الذين يتذكرون من هذا الماضي الجهد الرهيب للأجيال المتعاقبة، هؤلاء الذين يعتقدون بنجاح العمل المنهجي، ويريدون أن يحملوا إلينا ثمرة تجربتهم، فهم سذج، ولا يؤتمن جانبهم، وهم جهلة. ترى أين يمكن أن تقودنا فطنة الآخرين؟

* * *

---

1) كوستاف لوبون في حوليات السياسة والأدب.

إن خاصية الاستعمار الأساسية هي أنه قوة بلا تفكير، وجسم بلا روح، لقد جاء والسيف في يده أو الحربة في الماسورة واستقر. أصبح البلد له. ((إننا نحن الفرنسيين في دارنا في الجزائر. لقد جعلنا أنفسنا أسياد البلد بالقوة، لأن الغزو لا يمكن أن يتم إلا بالقوة، ويتضمن بالضرورة أن يكون هناك غالبون ومغلوبون. وعندما قهرنا هؤلاء استطعنا أن ننظم البلد، وهذا التنظيم يؤكد مرة أخرى فكرة تفوق الغالب على المغلوب، والمتحضر على الإنسان المنحط(...) لقد اشترى الفرنسيون الجزائر بدم جنودهم، بموت مستصلحي الأرض بالتسمم، اشتروها بالذكاء، بالطاقة والمال المنفق بلا حساب.. إننا نحن أصحاب الأرض الشرعيون))[1].

هذا حسن، وماذا بعد؟

- غدا سنكون أقوياء أيضا.
- ليكن، وماذا بعد؟ فالكل يعلم أن القوة يمكن أن تغير معسكرها.

وبعد، ليس هناك شيء ((فإذا كانت فرنسا تعلم ما تريد وما تستطيع، فإنه لا أحد كانت له أفكار محددة عن ماذا سيكون عليه الأمر عندما توضع الأسلحة، وتهدأ المقاومة، ويكون لزاما على الجميع الشروع في العمل))[2].

وقريبا منا السيد "ستيك"، الحاكم العام الذي لن يقول شيئا آخر، إنه لم يخرج في خطابه الذي ألقـــاه في مأدبة "الكونفدرالية الزراعية" عن مجال التساؤل: ((أليس في الإمكان الآن التقارب والتعاون دون الامتزاج، والاتحاد دون التوحد؟)).

إننا بعد مائة عام من الاحتلال نوجد في مواجهة رأيين محددين وواضحين ليس إلا، وهما الرأي الشيوعي الذي يقول بتحرير المستعمرات بالتمرد، ورأي المروجين لفكرة "إفريقيا اللاتينية" الموروث عن سياسة الرومان، الذي يقول بالاستعباد الأبدي للأهالي ((من أجل أن ننجح معهم لا بد من فرض النجاح

1) مجلة "لافريك لاتين"، مايو 1922.
2) م. رووالي في صحيفة "دبيش دالجي".

عليهم، فلنقدم أنفسنا لهم بصفتنا خلفاء الإمبراطورية الرومانية، وباعتبارنا أمة قوية. إنها السياسة الإفريقية الوحيدة المعقولة))[1].

إن هذه السياسة، بالطبع، هي سياسة معادية للشبان العرب والبربر، التي تقدمهم على أنهم أشتات من الشيوعيين والثوريين، إنها معادية للملكية الأهلية المكتسبة، أو التي أعيد شراؤها على الأصح، مقابل عمل مضن وتقشف شديد (ولسنا في حاجة إلى إعادة ما كتب في هذا الموضوع). إنها معادية لخدمتنا العسكرية، لأن ضريبة الدم تعني ضمنيا المشاركة في الحياة الوطنية للبلد، وأخيرا: إنها تقاوم التمثيل البرلماني للأهالي، ولا تتمسك، انطلاقا من منطقها مع نفسها، بتحويل مركز السياسة الجزائرية إلى باريس، ونقله خارج المستعمرة حيث هي في أوج قوتها.

إن هذا منطقي تماما، ولا شيء يقال فيما يخص الطرق والمناهج، ولكن ما هي النتائج؟ إننا نحكم على الشجرة من ثمارها، في حين أنه لو رجعنا إلى الوراء، في القديم، وفي العصور الوسطى، أي إلى عهد الاستعمار الروماني وعهد انتشار الإسلام، فإن هناك حقيقتين ستجابهاننا وهما إفلاس الأول والنجاح الكامل للثاني. هنا نجد طريقتين ونتيجتين، فمهما كانت قوة روما ومهما كانت إمكانيات الفعل عندها عظيمة فإنها لم تترك في هذا البلد إلا الخرائب. لقد شيدت مدنا، وأوجدت ثروات، وكانت شمال إفريقيا تزود سركها بالأسود، وشعبها بالقمح والزيت، فهي من وجهة نظر روما تمثل إنجازا رائعا، إنها مصرف تتزود منه بكل أنواع الموارد لتغذي به إمبراطوريتها ليس أكثر. أما الأهالي الذين كانت قد "قهرتهم" فإنها لم تعد تعنى بشأنهم، إنهم لم يعودوا يهمونها. إنه عهد المستعمر الذي يحتقر كل ما ليس جزء منه، والإدماج لم يكن شيئا معهودا لديه، إنه لم يكن يدركه. ويذكرون لفائدته أسماء مثل القديس أغسطين، وتيرتوليان إلخ.. غير أنهم ليسوا إلا استثناءات أو إذا شئنا، ليسوا إلا أفرادا، والأفراد لا يعتد بهم، إن ما يعتد به هو المجموعة، ومن المؤكد أن هذه المجموعة قد ظلت غريبة عن الإرث الفكري لروما.

1) "الفيغارو" ليوم 16 نوفمبر 1926.

((لقد كانوا ينامون على الأرض، أما الأثرياء منهم فيتمددون على جلد خروف عندما يكون ذلك في مقدورهم. إنهم لم يكونوا يبدلون ثيابهم حسب الفصول، وإنما كانوا يلبسون في كل الأوقات قميصا خشنا، ورداء قديما من قماش أكثر خشونة. لم يكن لديهم خبز ولا خمر، ولا أي شيء آخر طيب))[1]. إن هذا الوصف لـــ "بروكوب"[2]، الذي يعود إلى القرن السادس الميلادي، يدل إذن على أن الجزائر الرومانية قد عرفت الرخاء الكبير، وهذا الرخاء يعني بلا أدنى شك ثراء كبيرا لهؤلاء (الرومان)، وبؤسا لا حدود له بالنسبة للآخرين (الأهالي).

ومهما يكن الأمر، فإن مروجي فكـــرة "الجزائر اللاتينية" قد أقاموا معلما لهذا الإنجاز، ورفعوه على قاعدة فخمة. كيف قام الجندي الروماني بغزو السهول الخصبة، وبأية مجازر احتفظ بها، مبعدا وطنيي "نارافاس" نحو الأراضي الجرداء والجبلية، هذا ما لا يقوله هؤلاء المؤرخون، لكنهم في مقابل هذا يتفننون في تشويه سمعة الإسلام، فيصورون محاربي الإسلام النبلاء ورجاله الأتقياء غزاة متلهفين على الغنائم، ومتعطشين للدماء، ويقارنهم السيد "سيرفيي" بقبائل "الهانس"، ويصفهم كتاب مدرسي اطلعت عليه مؤخرا بـــ "البرابرة المتعصبين".

تحدث أحد المستشرقين الكبار عن الإسلام فكتـــب: ((العرب كانوا يعرفون، من جهتهم، كيف يدعمون هيمنتهم، إنهم لم يكونوا متوحشين، متعطشين للدماء، ومتلهفين على الغنائم فحسب، إنهم كانوا على العكس من ذلك جنســـا له مواهب وراثية ممتازة، يحب أن يتعلم، ويحتـــرم إرث الحضارات الأقدم. وقد امتزج الغالب والمغلوب بسرعة، بواسطة التزاوج بينهم، وبالعقيدة المشتركة، ومن هذا التمازج خرجت حضارة جديدة هي

---

1) بروكوب ، نقلا عن ستيفان كزال.

2) بروكوب هو مؤرخ بيزنطي، ولد في فلسطين حوالي سنة 562، وكان أشهر مؤرخ على عهد الإمبراطور جوستينيان، وله "كتاب حروب جوستينيان"، واشتهر بحكاياته السرية، التي روى فيها أسرارا عن الحياة الشخصية لكبراء عصره، بما في ذلك الحياة الخاصة للأمبراطور وزوجته بالخصوص (المترجم).

حضارة "السارازانيين"[1] هذه الحضارة التي أحيت عبرها ثقافات الإغريق والرومان والفرس القديمة، وقد جددت الفتوة العربية شبابها، وألفت بينها عبقرية الإسلام وروحه))[2].

وهذا ما يقوله من جهته الأستاذ "فيليكس كوتيي"، الذي جدد -من منطلق حرصه على الحقيقة التاريخية- تاريخ إفريقيا الشمالية المسلمة: ((هناك حكومة نظامية هي حكومة الخلفاء، كانت قد أرسلت بجيوش نظامية، يقودها جنرالات وموظفون عسكريون، ويتبعهم جهاز إداري. لنفكر ماذا يعني هذا. إن هذا الغزو لم يكن مجرد إقامة حاميات عسكرية ومكاتب في المدن، كما أوضح ابن خلدون، ولكن عرب الغزو هؤلاء كانوا جميعا من الناحية العملية عزابا، فكانت الأسر التي لم يتوانوا في تأسيسها من دم مختلط. وكانت النتيجة هي التي رأيناها، فلم يكن الغزو ماديا فحسب، ولكنه كان معنويا، مكونا من كل ما كان يحمله دماغ، أي الانتصار الكامل للإسلام))[3].

وليس هذا فحسب، فالسيد "كوتيي" يلح على الإنجاز الرائع الذي تم في فترة زمنية محدودة من قبل من زعم أنهم برابرة، فمن حيث العمران بنوا من المدن أكثر مما بنته روما، وكانت تنعم بالرخاء أكثر مما كانت تنعم به مدن مستعمريها، فهنا القيروان، وتونس، والمهدية، وهناك الجزائر، وأشير، وبجاية، وتلمسان، وفاس، ومكناس، ومراكش إلخ.. ولكن هذه المدن كانت تختلف عن المدن الرومانية، حيث يستغل المواطن الروماني الرجل البربري ويحتقره، ويربط الدهماء إلى عربته الحربية. من ذا الذي لا يعرف أخلاق الأمبراطورية الرومانية وطبقيتها الاجتماعية؟

((إننا لو نظرنا إلى الجزائر عن قرب للاحظنا أن كل حالة الرخاء هذه ليست إلا في الظاهر، فالحضر المرموقون، والملاك الأثرياء لا يشكلون إلا أقلية ضعيفة

---

1) "السارازانيون" (Les sarrasins) اسم أطلقه أوروبيو القرون الوسطى على مسلمي الأندلس وشمال إفريقيا، ويحمل دلالة قدحية معناها بالتقريب "الكفرة". (المترجم).
2) لوثروب ستودار "عالم الإسلام الجديد".
3) إ. ف. كوتييه، مرجع سابق.

بين جموع الشعب. وكما هو الحال في باقي عالم الرومان فإن إفريقيا كان لها عبيد ودهماء زراعية. ولأن المستعمرة الرومانية لم تكن تتجاوز الشريط الساحلي كثيرا فإن البلدان الموريطانية لم تكن تعاني من الاستعباد الكامل، ولكن كان للقبائل رؤساء تحميهم الحكومة ويشكلون زبائن لها، وكانوا استغلاليين بلا رحمة، فكان رخاء إفريقيا من هذا الشقاء. بأي عين يمكن أن تنظر جموع الجائعين والجهلة إلى المدن الفخمة والأروقة ذات العماد، والحمامات الساخنة، لكل تلك الحياة الناعمة إن لم تنظر إليها بعين الضغينة الدائمة والحقد اللذين كانا يعششان وسط تلك الجموع الصامتة والمحقرة؟))[1].

وعلى العكس من هذا، كانت المدن الإسلامية تشكل المراكز الكبرى للمساواة الاجتماعية، والبؤر التي يختلط فيها الأجنبي بالأهلي، لتنصهر فيها طبقات المجتمع. وهنا يحتل العمل المكثف لمعلمي المدارس مكانته، فهو قاعدة في الإسلام، وتنظيم التعليم في البلاد "المفتوحة " —حتى نستعمل التعبير العربي- كان من الأولويات، فهو حجة الغزو الوحيدة. هذا التعليم كان عموميا، ولابد أن يفهم من هذا أنه في متناول الجميـــع، وأنه يتوجه إلى الشعب دون تمييز طبقي. يفتح المعلم "دكانه" فيتداول التلاميذ على حلقته، وعندما لا يبقى هناك ما يتعلمه هؤلاء التلاميذ في حلقته ينتقلون إلى مكان آخر، إنه طواف مستمر للطلبة بين جامعات الإمبراطورية، مثل جامـــعة قرطبة، وفاس، وتلمسان، وتونس، والقاهرة، ودمشق، والمدينة. إن هذه الشبيبة المتقدة حيوية، والمتوحدة باللغة العربية الجميلة، هي التي ستصنع وطن الثقافة، وخميرة الروح الإسلامية.

وقد أحس البربري لأول مرة، وبوضوح، أن له حياة وطنية، وأنه يشكل جزءا من الكل، وأن الإسلام ليس غريبا عنه، وأن له نصيبه في هذا التراث الفكري والروحي. لنتذكر خطبة الأمير طارق في الجيش الفاتح لإسبانيا حتى نقدر مدى سرعة هذا الغزو الروحي والتأثير الثقافي. إننا في سنة 711 ميلادي،

---

1) الأستاذ فال (Wahl) "الجزائر الرومانية".

ولم يكد يمضي ثلاثون عاما بعد على انتشار الإسلام في شمال إفريقيا، حتى تشرفت "برباريا" الكبرى بقيادة القوات الإسلامية، حيث كان القائد العام هو طارق، وهو بربري، الذي نزل في إسبانيا على رأس جيشه المكون من العرب والبربر، وخاطب جنوده بلغة عربية ممتازة، ومفهومة دون أدنى شك من الجيش كله، وقد افتتح خطبته بقوله: ((أيها الجنود(*)، أين المفر، والبحر من ورائكم، والعدو أمامكم..)).

وقد وجد الإسلام المنتصر "قوانين العرف" في أرض طارق، وكان من الممكن أن تتخذ تلك القوانين مبررا لإبعاد برباريا بقدر كثير أو قليل عن أسرة الإسلام الكبرى، لأن القبائل كان لهم قانون للأحوال الشخصية يتعارض فعلا مع القوانين القرآنية، وكانوا متمسكين به، ولكن الإسلام لم يقف عند هذا التفصيل، ورفعهم بتوجيه من روح التسامح هذه إلى مستواه في مساواة كاملة، والبربر يتذكرون ذلك، من حيث أنهم كانوا من كبار ناشري العقيدة.

إن رواد الدعوة الإسلامية والإمبراطورية الإسلامية كانوا بالتأكيد مختلفين عنا، بقدر اختلاف الرومان والهيلينيين القدامى عن إيطاليي القرن الأخير وإغريقييه. إن مؤرخا نزيها لا يمكن له أن ينكر الإنجاز الذي حققه المسلمون. إن استغلال الرومان للشريط الساحلي الجزائري، والهضاب العليا التي أطلق عليها اسم إفريقيا اللاتينية، تبدو نسبيا مهمة سهلة بالقياس إلى الحمل الأثقل الذي حمله الإسلام. إنه لم ينزع ملكية أحد، ولهذا السبب، بلا شك، بدا له رمل الصحراء أكثر خصوبة من سهل الحضنة، فأغناها بمدن رائعة، مثل تقرت، وورقلة، وبوسعادة، والأغواط. وهاهي ذي تشع بالأنوار، وتشكل مدن الذهب الحقيقية.

وبلا ملل واصل الإسلام طريقه. ولنفكر في وسائله الضعيفة التي كانت في حوزته حتى نقدر مدى جهده المبذول. لم ترعبه المنبسطات الجرداء أو "بلاد العطش"، فقام بخطوة عملاقة، جاء على أثرها دور "تومبوكتو"، و"غاو".

---

*) في الخطبة المتداولة في كتب التاريخ والأدب خاطب طارق جنوده بقوله "أيها الناس" (المترجم).

وكان دائما في مستوى تطلعاته، فرفع الجنس الأسود إلى مصاف الخلفاء. ويعد ملوك "الهاوسا" وسلاطين إفريقيا الوسطى من أنقى صنائع الإسلام وأمجاده. ولا شك أن البنيان قد انهار تحت ضربات الزمن الهدامة، ولكن الزمان لا يستطيع فعل أي شيء ضد الفكر الذي هو الشاهد الخالد على عظمة الماضي.

((اليوم ، وبعد اثني عشر قرنا، مازالت نتائج الغزو العربي تدهشنا، فقد تعرب المغرب بشكل واسع، واعتنق الإسلام بشكل كامل وعميق. إن هذه نتيجة تثير الإعجاب بالطبع، إذ لم تحصل إلا القليل من المستعمرات في تاريخ الكرة الأرضية على مثل هذا النجاح))[1].

إن هذا النجاح ليس هو ثمرة المصادفة ولا القوة، إن الفضل فيه يرجع إلى أيديولوجية المساواة في الإسلام، وإلى سمو أخلاقه، وإلى عمل حكامه الذين أنجزوا عملهم بنزاهة. لم يكن الأمير "سيدي عقبة" يفكر في زيت القبائل، ولا في عراجين التمر التي ستغزو أسواق المدينة[*]، لا، لم يكن يفكر في هذا، وإنما كان يفكر في الصومعة البيضاء التي ستزهر على الأرض الإفريقية، وفي اللغة العربية الجميلة التي توحد في صلاة واحدة روح الإنسانية. إن عملية الأسلمة (l'islamisation) هذه هي التي ينبغي أن تفرض نفسها بطرقها كنموذج على فرنسا، إذا كانت فرنسا ترغب حقا في القيام بعمل دائم ويكون له معنى.

((في الأوقات المضطربة التي أعقبت غزو المسلمين، رفض البربر دفع الضرائب للحكام العرب، وحاربوا من أجل استقلالهم، ومن أجل الإبقاء على عاداتهم الموروثة، وتمكنوا في الأخير من طرد ممثلي الخليفة، واستطاعوا أن يؤسسوا إمبراطوريات امتدت حتى مصر، وحتى أعماق إسبانيا، ولكنهم لم ينفصلوا عن عالم الإسلام ليدخلوا في عالم اللاتين.. وكتب فقهاؤهم ومشرعوهم ومؤرخوهم بلغة القرآن، وبنى أمراؤهم بناءات على الطراز

---

1) إ. ف. كوتيي ، مرجع سابق .

*) يقصد المدينة المنورة . (المترجم) .

الإسلامي، في حين أنه لم يبق من حضارتي الرومان والبيزنطيين إلا الخرائب (الآثار) وذكرى عن قوة "الرومي"))[1].

وهكذا، لم تترك روما في هذا البلد إلا الخرائب التي دفنتها الطبيعة نفسها، أما الإسلام فقد أعطى، على العكس من ذلك، روحا، تلك الروح التي وإن أحاطت بها النكبات فقد قاومت، ومازالت تقاوم عواصف القرون، فإذا كان مجد الشعوب القوية شيئا آخر غير هذا فإننا نتساءل أي شيء يمكن أن يكون؟

* * *

1) س. كزال و ج. يفير "تاريخ الجزائر".

الاستعمار والأحقاد الدينية على الإسلام

"النبي" (ﷺ)

إنه لابد أن يضاف إلى نظرية التفوق التي اخترعتها الإمبريالية الغربية التنكر للحضارة الإسلامية، والواقع أن الإنجاز الاجتماعي للإسلام هو إنجاز عظيم، فقد حقق معجزة أنه في الوقت الذي يربي فيه الذكاء الإنساني يربي فيه المشاعر، وقد خلق بين الشعوب المختلفة رابطا لا ينفصم، وأخوة لا مثيل لها، هذه هي قوته، لأن الحضارة ليست في تطوير أداة صناعية وحربية، إنها ((في قلب الإنسان أو ليس لها وجود في أي مكان)). إنه من المفيد أن نذكر بهذا ، في الوقت الذي تبحث فيه أوروبا المسيحية بلا جدوى -وهي تعاني من محنة أنانية الاقتصاديات الوطنية- عن توازنها، وعن صيغة تحقق بها السلم والوفاق.

إن الإسلام لم يعرف، في فترة تألقه هذه الصعاب، فقد محا نظامه الاجتماعي، بصفة تلقائية، الحدود بين الطبقات وصراعاتها، وهذا كثير. وبالطبع لم يكن هذا المجتمع كاملا، ولكن، هل تخلو الحضارة الأوروبية اليوم من العيوب؟ لقد أنكر العالم المسيحي حضارة الإسلام هذه، الشديدة التميز، بل لقد كتب بعضهم أنه لم يوجد أي شيء خارج الفكر الإغريقي اللاتيني، وإنها لحجة سهلة، فتاريخ العالم لم يبدأ، حسب تصوري، مع روما واليونان، فقد كانت هناك حضارات سابقة، وهو ما يقوله لنا الأستاذ "كوتييه" بوضوحه المعهود: ((لقد تلقينا هذه الحضارة نفسها منذ قرون معدودة، وكانت قد ظهرت بعيدا جدا عنا، في الشرق، في مصر، في كاليدونيا، لدى رجل البحر المتوسط، ذي الأصل السامي أو السابق عن السامي))[1].

ولم يقل "أناتول فرانس" شيئا آخر سوى هذا، ففي "حديقة أبيقور"[2] كان الفينيقي القديم "دادموس"، الذي بعث إلى الحياة من جديد، يتحدث إلى المعلم

---

1) إ. ف. كوتيي، مرجع سابق.

2) هو عنوان أحد أعمال الأديب أناتول فرانس المشهورة، وفيه إشارة إلى المدرسة التي أسسها فيلسوف اللذة اليوناني أبيقور (341 – 270 ق.م) وأطلق عليها اسم "الحديقة". (المترجم).

الكبير للأزمنة القديمة قائلا: ((لقد وجدت في بلاد الإغريق متوحشين مسلحين بقرون الإيل، وبالأحجار المتشظية، فأعطيتهم البرونز، وعن طريقي عرفوا كل الفنون)).

تلك هي أصول الحضارة الهيلينية التي ليست هي في الحقيقة إلا استمرارا لحضارات سابقة، والتي استمرت هي بدورها عبر الحضارة الرومانية. وعندما انحطت الحضارة الرومانية هذه وتركت المشعل الألفي يسقط من يدها، التقطه الإسلام الذي كان حديث النشأة آنذاك، متحملا المهمة الثقيلة من أجل رعاية الشعلة والإبقاء عليها حية. والحقيقة أن الشعلة ظلت تتقد ساطعة طوال قرون. إن هذه الحضارة الإسلامية التي استمرت متقدة حتى فجر الأزمنة الحديثة هي التي آذنت بيقظة القرون الوسطى الأوروبية، فبواسطتها عرفت سلسلة المعارف الإنسانية اللامتناهية التي صنعتها شعوب مختلفة، والتي تضيع حلقاتها الأولى في ليل الأزمنة.

وفي حالة ما لو أجرينا فحصا شاملا، ومهما كان إسهام هذا أو ذاك، فإن آسيا تبقى هي أم كل الأفكار المعطاءة، إنها الأرض المباركة للحضارة الهندية والصينية، وأرض موسى، وقدموس، والمسيحية، والإسلام، وغاندي. إنها -من بعض الوجوه- هي دماغ الإنسانية. لهذا السبب إذن، وحينما يقول لنا بعض المتبجحين الأوروبيين إن هذا روماني، وهذا لنا، ألا يحق لنا أن نرد عليهم بأنه كان لنا قبل أن يكون لكم، بل قبل أن يكون لروما؟ والحق أن هذه ليست إلا محض مماحكات كلامية سنتخلى عنها لمناوئينا، والباقي هو أن كل الحضارات قد أغنت هذا التراث الإنساني من ثمار فكرها وعملها، وأن حظ الحضارة العربية قد كان في وقته كبيرا ومفيدا. ((إنه لابد أن ينظر إلى العرب على أنهم هم المؤسسون الحقيقيون للعلوم الفيزيائية التجريبية، آخذين هذه التسمية بمعناها الذي تعودنا عليه اليوم. لقد ارتفعوا في مجال التجريب إلى درجة تكاد تكون غير معروفة للقدماء))[1].

1) هيمبولدت "الكون".

ويؤكد الدكتور "كوستاف لوبون" في كتابه "الحضارة العربية" الشيء نفسه، فيقول: ((إننا حين ندرس أعمالهم العلمية واكتشافاهم فإننا نلحظ أنه لا يوجد هناك أي شعب أنتج منها بالقدر الذي أنتجوه في زمن بهذا القصر. وعندما نفحص أعمالهم فإننا نعترف بأنهم يمتلكون ميزة ابتكارية لم نتجاوزها.. فالتجريب والملاحظة كانا منهج العرب)).

إنه لو يسمح لي فإنني سأختار هذا المثال، من أجل أن أوضح فكرتي أكثر: إن دراسة الأدب الفرنسي، بالنسبة لمن لا يفقه فيه شيئا، لن يجعله يكتشف فيه أي ابتكار، فهذا في أصله روماني، وهذا إغريقي، وذاك إيطالي، والآخر إسباني، والثالث إنكليزي، وحتى عربي، فهل علينا أن نستنتج من هذا أن الفرنسي لم يفعل شيئا سوى أنه نقل، وأن الأدب الفرنسي لا وجود له؟ والحقيقة أن عدم تمكننا من إظهار ما هو فرنسي بالأساس، والذي لا يمت إلا إلى فرنسا وحدها، إلى "موليير" أو "راسين" مثلا، لا ينبغي أن يقودنا إلى استنتاج أن الفكر الفرنسي عقيم، ولكن بالأحرى إلى الاستنتاج أن دراستنا كانت سطحية، أو أن نيتنا سيئة.

والحال أن أوروبا بالتحديد ليست جاهلة بأشياء الإسلام فحسب، ولكنها منحازة ضـــده، وفي أحكامها عليه غير عادلة ونيتها سيئة. لقد زيفت الأحقاد الدينية الحقيقة التاريخية، وأطلق الطاعنون المغرمون بالنميمة العنان لنفورهم، وهو ما أعطانا أشد الآراء جموحا وأكثرها تناقضا عن الإسلام، فنبينا المحبوب ليس إلا ((شخصا قذرا عربيا مخادعا))، والإسلام ليس إلا ((ركاما من الأفكار المقولبة البلهاء والهمجية))، فهل يمكن في مثل هذه الظروف الحديث عن التاريخ؟

واليوم، وبالرغم من تفوق أوروبا الذي لا يمارى فيه، وانحطاط العالم الإسلامي، فإن المسيحية لم تضع السلاح، إنها تتمادى في كفاحها المقورن(*)، ضد عدو سقط منذ أمد طويل، وقد أعطتنا مؤخرا فرصة الحكم على كتاب

---

*) أي أن عمره قرون. (المترجم).

يعد معلما -وهذا ينبغي الاتفاق عليه- في الحقد، ونقصد به كتاب "الإسلام وسيكولوجية المسلم" لـــ "أندري سيرفيي"، الذي كتب يقول: ((محمد بدوي مكي، ولكنه بدوي ساء معدنه، محروم من الخيال، مثل معظم البدو، لم يفكر محمد وهو في غار حراء في المستقبل، ولكنه فكر في الماضي وفي الحاضر، فبعث من جديد شبابه البائس، ومعاناته من الحرمان والمهانة بين الأثرياء المكيين.... فكر في الكبرياء الوقح لتجار القوافل، وفكر خاصة في تلك المعركة البائسة التي عرف فيها كل أنواع هذيان الخوف، حيث تعرض فيها لعار الهرب تحت أنظار مواطنيه.... إن محمدا لم يتحدث عن تعليم المرأة، و لم يكن له أي هم أخلاقي، لقد كان محمد يخضع في جميع الأحوال لانشغالات سياسية، كان رئيس حزب يكافح من أجل أن يفرض نفوذه، والنجاح في نظره ليس له ما يكرسه إلا التفوق المادي)).

ونستطيع أن نعدد الأمثلة، فقد كتبت صفحات الكتاب الخمسمائة على هذا النحو من الحكم المسبق دائما والسيئ، ومن الحقد الذي لا يخفيه صاحبه إلا بصعوبة. ويجهل السيد "سيرفيي" كل شيء عن الأدب العربي، ما عدا بعض حكايات "ألف ليلة وليلة"، التي تستغل لإعداد الموظف لـــ "علاوة العربية"(*) في الجزائر، ويعترف لنا بأن ((مزيته الوحيدة هي جمعه خلال خمس وعشرين سنة من البحث الأدلة التي تبين العقم الكئيب للإسلام، وحيوية الفكر الإغريقي اللاتيني الخالدة)).

وهذا الكلام يقوله بالطبع لأستاذه "لوي بيرتران" الذي يهنئه ويقره عليه. هذا حسن، غير أن خمسا وعشرين سنة من البحث لتبيين أن محمدا لم يتحدث عن تعليم المرأة، وأنه ليس له هم أخلاقي، وأنه لا يفكر في المستقبل، وأنه لا يهدف إلا إلى التفوق المادي، يبدو بالنسبة إلينا وقتا ضائعا. لكن الأكيد أن ليس هذا القماش من الأخطاء والتناقضات، ومن الإحالات التي يستقيها من أعدى أعداء الإسلام هو ما يثيرنا ويحزننا. ألا يمكن أن يكتب أيضا أن "فكتور

---

*) امتحان يجرى للموظفين في الجزائر يسمح لهم بالحصول على أجر إضافي على المرتب الشهري.

هيكو" لم يكن إلا شاعرا مقرزما، وأن "نابليون بونابارت" كان قزما كورسيكيا فاسدا؟ إن المسألة هنا هي مسألة تقدير. ولكن أين يبدو التحيز؟ إن السيد "سيرفيي"، وبعد أن يضع مبدأ الحياد المطلق إزاء الدين الإسلامي، يبارك في برنامجه السياسي الشمال إفريقي إدخال الجزائر المسلمة في المسيحية، والقضاء على الإسلام. وهذا القضاء لا يتم بشكل صريح وفي وضح النهار، ولكن بعمل صغير يشبه عمل الأرضة، بحيث لا يستطيع الأهالي أن يتنبهوا إليه، فإذا تهدم مسجد لا نقيمه، ولنشجع ولنمول الآباء البيض، ولنخف بعناية عن المسلمين ماضيهم، ولنقل إن الحضارة العربية لم توجد أبدا.

إن هذه السياسة تشهد على زيغ مجرم، وعلى جحود مطلق للدين الإسلامي، أي أنها تسير نحو إفلاس مؤكد. إنه لابد من تكرار القول أن الإسلام ليس هو المسجد ولا "المرابط"، ولا هذا الإطار الشرقي الذي أوجده أدب سطحي. إن الإسلام هو العقيدة البسيطة بلا أي زخرفة، إنه دين الأسرة التي هي خلية النظام الاجتماعي، إنه النظام الذي يقام على أخلاق المساواة. إن الإسلام هو الديمقراطية تابعة للثقافة، فرجل العلم، هو الإنسان النبيل، هو العبقرية العلمية، هو الإنسان الأعلى.

إن ساستنا "المحنكين" يعتقدون أن الإسلام ستقطع أوصاله بسبب تهدم مسجد، أو بسبب أن الخليفة وقع عليه انقلاب. لا فائدة، إنني أحمل قلبي مسجدا من "الغرانيت والحديد الصلب" ولن يتهدم أبدا، ألم يقاوم أسوأ انحطاط وأشده إثارة للشجن؟ فهل نخشى والحال هذه من سلام وأنوار الأزمنة الحاضرة؟ لقد هيؤوا لنا فرصة الشك في ذلك خشية منهم أن نفت في عضد الفعل الصليبي الجديد والغريب: ((إن لدينا تحت أيدينا عمالا يدويين رائعين، خليقين بأن يؤدوا هذا الفعل، إنهم الآباء البيض التابعون للكاردينال لافيجري))[1].

إن الحقد ملهم سيئ، فعندما ينزل بالدين الإسلامي إلى صف الوثنية فإنه يمكن أن يولد حلم استبدال الهلال بالصليب، وهذا خطأ فادح لم يعد يسمح

1) أندري سيرفيي، الكتاب المذكور آنفا.

بارتكابه. إن الإسلام لن يتراجع ولو بخطوة واحدة. إنه في الإمكان استرقاقه، من حيث أن القوة المعنوية من هذا الجانب ضعيفة النجدة، والخلافة يمكن أن تلغى ولكن الإسلام باق. إن هذا يتجاوز فهم أوروبا المتعودة على زهو رجال دينها وأبهة كنائسها. لقد قاومت عقيدتنا وانتصرت على كل مصائبها، فقوتها في معنوياتها وفي المبادئ التي تقوم عليها.

((إن الإسلام، باعتباره دينا، يشكل قوة معنوية عالية، وهو جدير بالاحترام الكبير))[1].

فإذا كان الآباء البيض في الجزائر قد تمكنوا من إدخال بعض الناس في المسيحية، فإنهم قد تمكنوا من ذلك على الخصوص بفضل هيبة المدفع. إن المسيحية على أيامنا هي دين "المدرعات" و"المدافع الرشاشة"، وفي هذا هالة من المجد لا نظير لها بالنسبة للنفوس المريضة، أما الباقي فإنهم كثيرا ما ينسون أن المسلم مسيحي أكثر من الكاثوليكي والبروتستاني، فالإسلام هو الإيمان بموسى، وبالتوراة، والإيمان بعيسى، كلمة الله التي نفخ بها في أمه القديسة، ولكن المسلم مسيحي مع شيء آخر إضافي وهو إيمانه بنبوة محمد، فكيف يؤمل، والحال هذه، في إدخاله إلى المسيحية ليرجع، بشكل من الأشكال، إلى الوراء؟

((إنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، تكوين فكرة دقيقة عما يمكن أن تكون عليه الحالة النفسية لمسلم أدخله مسيحي في المسيحية، إننا لن نحصل من ذلك إلا على صورة هي أقرب إلى مشاعر مسيحي متنور منها إلى صورة وثني يبحث عن التنصير ليتخلص من غيبياته الفظة))[2].

هذه انطباعات كاثوليكي عن حملات "الهداية" التي يقوم بها المبشرون، عسى أن تفيد البابا في التوجهات الحقيقية للكنيسة. إن في أوروبا كثيرا من البؤس الذي يمكن أن يخفف، وكثيرا من النفوس التي تحتاج إلى من ينقذها، وكثيرا من الحياة البشرية التي تستوجب الحفاظ عليها، ويمكن للذهب الذي

---

1) إدمون مونتي (E.Montet) "الإسلام".
2) الكونت هنري دو كاستري "الإسلام".

ينفق من أجل تنصير المسلمين أن يستغل بشكل أفضل في هذا المجال. أما فيما يخصنا نحن المسلمين، فإننا نأمل أن يكون قريبا ذلك الزمن الذي تكون فيه الكلمة الربانية، التي وضعت في متناول الجميع، هي موجهنا الوحيد في علاقاتنا مع المسيحيين واليهود. {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون}[1].

* * *

ولكي يضرب السيد "سيرفيي" الإسلام في جوهره بالذات، ويصيبه في أكثر ما فيه جدارة بالتقدير، فإنه يقدم نبينا –من ضمن أشياء أخرى كثيرة– في صورة شخص متقلب المزاج، طموح وفظ، حقود، أشبه ما يكون بمترشح للنيابة، أو هو نوع من المختالين المنافقين الذين لا إيمان لهم بشيء ولا أحلام لهم، أشبه ما يكون بنفاية إنسانية. إن هذه لهي الأكاذيب المجانية، افتريت من العدم لتدعيم نظرية غير قابلة للدعم. لقد عاش محمد في أضواء التاريخ الساطعة، وكل شيء يلتقي فيه ليظهره رجلا سليما، قويا ومقاوما. كان فقيرا ولكنه لم يعرف البؤس أبدا. ولد في مكة ونشأ في البادية، يتغذى بالحليب ويلبس الصوف. وإلى أن بلغ الأربعين اشتغل بالعديد من الأعمال وتفوق فيها، فكان على التوالي مصاحبا للقوافل، فمسير أملاك، ثم تاجرا. كانت حياته بسيطة، فاضلة، وآراؤه منصفة، وأحكامه سليمة، وقد سماه معاصروه الأمين، والحكم.

وعندما دقت ساعة الانقلاب في حياته لم يفكر مطلقا في الانتقام من بلدة كانت تشرفه وتقدره، وأقل من هذا أن يكون قد فكر في التفوق المادي. إن مهمته التي كان عليه أن يقوم بها هي التي هزت طمأنينته، إنها الحلم الذي سيستولي على هذا الرجل، فيشعر بضعفه، ويرتجف خوفا، ويشك حتى في نفسه، ويتمنى لو يكون في مقدوره أن يعود إلى الوراء، وأن لا يفتح عليه هذا

1) سورة العنكبوت، الآية 46.

المستقبل المتألق، المخيف، مرة أخرى، فراح يناضل ضد هذا النور المعشي للنظر، هل يكون في مقدوره أن يكون صانع هذا الفعل العظيم بشكل غريب؟ إلا أن إرادة الله كان لا بد لها أن تتم: {إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا}[1].

إنه يعلم، وهل سيرفضه؟ لقد تحمله. سيكون المصطفى الذي سيحمل للإنسانية الكلام اللدني الأخير: ((إن سلوك محمد الديني ليدهش الملاحظ النزيه بما فيه من إخلاص. لقد كان محمد مصلحا دينيا، ذا إيمان عميق، و لم يشرع في هذا العمل التبشيري ذي البعد الواسع، الذي سيجعل منه أحد أسطع أضواء الإنسانية الدينية، إلا بعد فترة تأمل طويل، وبعد أن بلغ سن النضج (...) وفي حربه ضد تعدد الآلهة وفساد أخلاق معاصريه، ظهر في الجزيرة العربية في الظروف نفسها التي عرفها أنبياء بني إسرائيل الذين يبدون لنا في تاريخ بلدهم عظماء بقدر مهول))[2].

هذا هو الرجل في كل بساطته وفي قوته، فإذا لم يكن هذا الرجل نبيا فكيف يمكن أن يكون إبراهيم ويعقوب وموسى والمسيح أنبياء؟ يقول: ((إنما بعثت متمما لمكارم الأخلاق)).

((المال مال الله والعباد عيال الله، وخيركم عند الله خيركم وأنفعكم لأهله)).

((إن نفسا واحدة أفضل من أعظم الغزوات غنما)).

{لا إكراه في الدين}[3].

{لست عليهم بمسيطر}[4].

سوف لن يكون معلما للأخلاق فحسب، ولكن نبوته سترقى إلى درجة تنظيم اجتماعي عادل، وستجمع كل القوى المتفرقة، وستتم ثورة كبرى إلى حد جعل أمير اليمن بعزته يقول للعبد "يا أخي" وستتجمع كل الطاقات، ولن يبقى هناك إلا إثارة يقظة العالم:

---

1) سورة المزمل، الآية 5.
2) إدمون مونتي "الإسلام".
3) سورة البقرة، الآية 256.
4) سورة الغاشية، الآية 22.

((اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)).
((العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)).
((من حقوق الابن على الأب أن يعلمه)).
((كلمة علم أفضل من مئة صلاة)).
((ليس منا من نام شبعان وجاره جائع)).
((عندما يجوع البشر لا أحد من حقه أن يقول هذا مالي)).
((أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه.. إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، في بلدكم هذا)).
((أيها الناس، كونوا رحماء بينكم.. ولتعلموا أن المسلم أخو المسلم وأن جميع المسلمين إخوة، وأنهم ليسوا إلا عيال الله.. أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه.. وإياكم والظلم.. فإنه مجلبة لهلاككم. {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}[1].

هذه هي أخلاق المساواة، وهذا هو الجهد الذي صنع عظمة الإسلام، وهذا هو تعليم الرسول، الذي نسي، مع الأسف، والذي مرغه السيد "سيرفيي" والمسيحية المتعصبة في التراب، دون احترام لإيماننا وعقيدتنا، ودون احترام للحقيقة التاريخية، فهل تعرفون كتابا واحدا اغتاب فيه الإسلام المسيح والمسيحية بمثل هذه الحدة؟

* * *

ليس لدينا الادعاء بأننا دحضنا تماما هذا الخطأ، لأن المهمة كبيرة، وتتطلب معارف لا نملكها، ولعله جدير بنا في مثل هذه الظروف أن نبكي مصائب الإسلام في صمت، مثل ما بكت "صالامبو"(*) مجد قرطاج التليد: ((آه قرطاج المسكينة، أيتها المدينة البائسة، لم يعد لك رجال يدافعون عنك مثل رجال أيام

1) سورة الرعد ، الآية 12.
*) صلامبو هي أميرة قرطاجية وابنة أميلكار حاكم قرطاج وقاضيها الأول ، وقد اتخذها الكاتب الفرنسي غوستاف فلوبير بطلة لروايته التي تحمل الاسم نفسه ، وتجري وقائعها في فترة الحرب البونيقية الثانية أي بين 241 و237 ق.م بين قرطاجة وروما ، التي انتهت بانتصار الثانية. (المترجم).

زمان الأشداء، الذين ذهبوا إلى ما وراء المحيطات، ليشيدوا معابد على الشواطئ)). وإنه لجدير بالمسلمين، مثل ما كان جديرا بابنة "أميلكار" أن يتوشحوا بحداد "الرعاة" الطيبين.

* * *

تعصب وشيوعية

لقد ألصقت صفة التعصب بالإسلام مثل ما ألصق الجمل والنخلة بالجزائر، فأصبح جزء من اللون المحلي، فعندما لا يكون لدى بعضهم ما يقولونه عن ديننا، لأنهم لا يعرفون عنه شيئا، تراهم يؤكدون أن الأهالي المسلمين متعصبون، وأنهم معادون للتقدم، دون أن يعلموا حقيقة ما إذا كان هذا التعصب الذي ألصق بكتلة جاهلة يعني شيئا ما.

بعد ما شرح لنا السيد "سيرفيي" في كتابه المشار إليه آنفا، بأشكال مختلفة، سيطرة الإسلام على عقل الإنسان، راح يكشف لنا عن شيء لم نكن نتوقعه، يقول: ((إنه لا جدال في أن حضارتنا، أعني الحضارة اللاتينية، هي حضارة مستلهمة من المسيحية، ولذلك فإن أشد المفكرين مغالاة في التحرر هو ذو تكوين مسيحي، سواء شاء ذلك أم أبى)). إن هذا ما يرى رأي العين يوميا، كما يؤكد السيد "سيرفيي". حسن جدا، إن هذا ما سوف يسمح لنا بإجراء عملية موازاة ضرورية.

ها نحن في أوروبا فعلا، وفي حضور مجتمع يبحث منذ قرنين عن تحرره من التأثير الديني، بواسطة تعليم وتربية لائكيين، يقومان على معارف علمية باهرة، يضم هذا المجتمع رجالا مشهورين جاؤوا لتدعيم معتقده في التقدم، وتعليمه عبادة العقل والتفكير الحر، فماذا نرى بعد قرنين من التقدم المستمر؟ لقد بقي الغرب بالرغم من هذا الجهد العظيم مسيحيا مع ذلك، بل كاثوليكيا، وبرجال دين كثيرين، أثرياء من سخاء المؤمنين، يتمتع رئيسهم بنفوذ لا يضاهيه نفوذ أمة قوية. إن "الفاتيكان" هو الذي ينظم حتى يومنا هذا الحملات الصليبية على العالم الإسلامي، متبوعا من أوروبا كلها: ((لا بد من قيادة الهجوم بحصافة ونضج، ولكن لا بد من دفعه بقوة. لابد للكنيسة من أن تعبئ كل قواها، من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، وتجندها تحت لواء رئيسها))[1].

---

1) س.ف.زويمير "الإسلام".

من جهة أخرى، وجد الغرب نفسه في شمال إفريقيا -وإلى حد ما في كل مكان من البلاد الإسلامية- بحضور جماهير شعبية ممزقة، مستضعفة، جاهلة، حيث الدين بالنسبة إليها ليس شيئا آخر سوى "أغنية قديمة تهدهد البؤس الإنساني" حسب تعبير "جان جوريس"(*)، وهي الجماهير التي لم يفعل أي شيء جاد من أجل انتزاعها من هذا الخدر، بل العكس هو الذي حدث. وعليه، فإلى جانب أي طرف يوجد التعصب؟ أإلى جانب الإسلام الذي سقط أتباعه بقوة الأشياء في الجهل، أم إلى جانب المسيحية المتفتحة التي بقيت تعيش، بالرغم من قرنين من الحضارة، في زمن الحروب الدينية؟

((لقد استسلم عبد الكريم بلا شروط(**)، وجاء ليضع نفسه تحت حماية فرنسا. لقد كان هذا ضمن أمانينا. إن الحدث لذو شأن، إنه كما سبق أن كتبنا مؤخرا، يتجاوز المغرب الأقصى، بل ويتجاوز إفريقيا الشمالية كلها، إنه يضرب الإسلام في الصميم، والأمر الآن يتعلق بنا، لكي لا ينهض من جديد))(1).

ملاحظة عابرة نلاحظها هنا وهي أنه في الوقت الذي تكتب فيه "لاديبيش" هذه الأسطر، كانت مستشفيات قسنطينة تضيق بالجنود المسلمين الذين أصيبوا في حرب الريف من أجل فرنسا، فحتى معاناة هؤلاء لم تحترم. إنه لا يخطر بخلدي أن ألوم الأوروبيين على معتقداتهم، فلكل دينه، ولكن، لماذا يلام المسلمون بسبب معتقدهم، في الوقت الذي يجذب فيه الحج إلى "لورد"(***) (Lourdes) مثلا، أكثر من أي وقت مضى، الملايين من المؤمنين الذين يزداد عددهم كل عام، فلماذا يلام المسلمون على معتقدهم.

ولا شك أن المسيحية وأخلاقياتها العالية لم تعد بالنسبة لبعض الطبقات الأوروبية المثال التوجيهي الرسمي، فقد تراجعت أمام المد المتزايد لشهوات جمع

---

*) جان جوريس (1859-1914) زعيم سياسي فرنسي ومفكر، يعد أبا للاشتراكية الفرنسية. (المترجم).
**) يتعلق الأمر هنا بعبد الكريم الخطابي بطل ثورة الريف في المغرب الأقصى. (المترجم).
1) جريدة "لاديبش دو كونستانتين"، بتاريخ 28 مايو 1926.
***) مكان في منطقة البيريني جنوب شرق فرنسا يحج إليه الناس منذ 1858 عندما أشاعت "بيرناديت سوبيرو" أنها شاهدت السيدة العذراء هناك. (المترجم).

المال، والرفاهية، و"المادية" المنتصرة. ولنسلم جدلا مرة أخرى أن هذا شيء حسن، وأن هذه الحمى التي تدفع الناس نحو التهالك على ملذات هذا العالم تحمل معها حيوية الإعمار وإرادة النجاح، وأن الإنسان مع هذا السباق نحو التفوق الذي يمنحه المال يخلق الثروة، وأن الثروة تتعهد وتساند أعمالا اجتماعية جيدة، ولنسلم -في كلمة مختصرة- أنه كان هناك تقدم معنوي ومادي، رغم نقائص المجتمع الحديث (مثل الإدمان على الكحول، والدعارة، والقمار، والبطالة، وما إلى ذلك) ولكن هل حصل هذا التقدم بين يوم وليلة؟ وهل قبل من ساعته الأولى؟ بالتأكيد لا، فقد كان من اللازم النضال أجيالا عديدة، وهذا النضال لم يكن موجها ضد بلاهة الشعوب فحسب، وضد الأحكام المسبقة، والاعتقاد بالغيبيات، وغريزة المحافظة التي تهيمن على كل الأعمار وعلى كل الناس، ولكن كان موجها أيضا ضد مسيحية مؤولة تأويلا خاطئا، لا تذكر من قريب ولا من بعيد بـــ "حب القريب"، ولا بالمسيح، وموجها ضد رجال دين متعصبين، طائفيين، قساة. ولا داعي أن نلح هنا على ممارسات القرون الأخيرة، وعلى الحروب الدينية، وعلى محاكم التفتيش، وعلى كل المصائب التي مزقت الشعوب الأوروبية، ولكن هناك أمر واقع، يكفي وحده ليكشف عن الانحطاط الذي انحدر إليه الدين الكاثوليكي والشعوب اللاتينية، وريثة ما يسمى بالفكر الإغريقي اللاتيني الخالد، وهذا الأمر الواقع يتمثل في الحروب الصليبية.

إن العلاقات بين المسيحية والإسلام كانت قائمة في كل الأوقات، وقد أوقع التعصب الذي كانت تذكيه الانتصارات أو الهزائم ما لا يعد من الضحايا طيلة التاريخ، وبالطبع كان للإسلام نصيبه في ذلك، ولكن، هل هناك شيء في كل ما روي بخصوص نشر الإسلام في القرن السابع والثامن -مع التضخيم فيه- ما يساوي في فظاعته الفعل التخريبي للصليبيين؟ وهو الفعل الأقرب إلينا زمنيا، أي في القرن الحادي عشر والثاني عشر. لقد كان تصرف الصليبيين يلقي بضوء كئيب على بربرية ذلك العصر: ((لقد كانت إحدى التسليات المفضلة لديهم هي أن يقتلوا ويشووا ويأكلوا كل الأطفال المسلمين

الذين يلقونهم (...) ففي أنطاكية قام "بيهيموند"[1] بذبح بعض الأسرى الأتراك ثم أمر أن يشووا أمام الجميع، ثم توجه إلى المتفرجين وصرخ فيهم بأنه لابد من إخضاع الشهية للضرورة))[2].

إنه ليجدر بنا، بعد هذه الفظاعات التي ارتكبها هؤلاء الذين ذهبوا ليخلصوا الأماكن المقدسة من يد الكفرة، أن نضرب صفحا عن قتل النساء والشيوخ، وقتل الأعداء العزل من السلاح، وحرق المدن، وهدم المساجد والمكتبات. فمتى نزل الإسلام إلى مثل هذا الدرك؟ ومتى عرف كره الآخر؟

وعشية القرن السادس عشر، أي مع فجر الأزمنة الحديثة، تبدأ الدول الأوروبية صعودها، وتقوم بهجمة شديدة على الجهالات، وعلى التعصب الديني، وهذا العمل هو الذي ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار قبل إدانة الإسلام الحالي والشعوب الفتية. لقد شرع الغرب مؤزرا بعقلية جديدة، وقدرات جديدة، في معركة له فيها كل حظوظ النجاح، إلا أن هذه المعركة ستدوم أربعة قرون، وكان لابد من انتظار القرن الثامن عشر والتاسع عشر حتى ترى الازدهار الباهر للعلوم والآداب. فالنصر إذن لم يكن سهلا، ولا كان التقدم سريعا. إنه يجب أن لا ننسى هذا.

لقد رأينا الحضارة الإسلامية تولد في عصر كانت فيه البشرية نائمة. وعلى العموم، فإن أحداث التاريخ الكبرى لها منابعها العميقة والبعيدة الغور، وهذه المنابع بالنسبة للإمبراطورية الإسلامية هي على العكس من ذلك محدودة ومحددة، فلا ينبغي أن نتيه في البحث، إنها تتركز كلها حول كتاب وحول شخص هما "القرآن" و"محمد" (ﷺ)، أو الله ورسوله، فمهندس الصرح هنا، وعامل البناء هنا.

عندما ظهر الرسول (ﷺ) كان هناك عصر باهر قد انتهى، عصر عنتر وعبلة، وامرئ القيس، وكانت بلاد العرب منذ قرون تثمل بالشعر والحب

---

1) هو حفيد فيليب الأول ملك فرنسا.
2) شارل ميلس "تاريخ الصليبيين".

والغزوات، حيث يختلط الغدر والبربرية فيها بالنبالة والكرم. وفجأة يعلو صوت يفوق مستوى صوت البشر، ويهيمن على البشر وعلى الأشياء، ويترل الستار ثم يفتح على إنسانية جديدة. بالأمس كانت الظلمات وقانون الأقوى، واليوم أصبح النظام والمساواة، والأخوة، وقانون العمل الأكبر، وتقديس العلم والحرية.

يصرح الخليفة الأول أبو بكر قائلا: ((لقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أخطأت فقوموني)). إن هذا المثل الأعلى للحرية والمساواة هو الذي بنى حضارة جديدة، ومن دون شك أن هذه الحضارة كانت قد لقيت في طريقها بقايا حضارات أخرى أقدم منها، ومن دون شك كان لتلك الحضارات تأثيرها عليها، ومن دون شك يكون الخليفة قد انحدر إلى صف الاستبداد الشرقي القديم، أليس في هذا قانون كوني؟ ولكن ألم تكن هناك في المقابل إسبانيا العربية، حيث بقي الإسلام كما هو، بعيدا عن كل تأثير خارجي؟ ((لقد استقبلت إسبانيا في الأول الرجال الذين قدموا من إفريقيا استقبالا حسنا، فكانت البلدات تستسلم لهم دون مقاومة، كانت مفرزة واحدة من الفرسان تكفي لكي تفتح المدينة أبوابها. لقد كانت عبارة عن بعثات تحضيرية أكثر منها غزوا)).

((وفي ظرف عامين استولى هؤلاء على ما تطلب منا سبعة قرون لاستعادته. لم يكن غزوا فرض بالسلاح، ولكنه كان مجتمعا جديدا يضرب بجذوره القوية في كل الجهات. لقد كان مبدأ الحرية -الذي هو حجر الزاوية التي تقوم عليه عظمة الأمم- مبدأ عزيزا عليهم، ففي المدن التي كانت لهم السيادة عليها كانوا يقبلون كنيسة المسيحي وبيعة اليهودي، فالمسجد لم يكن يخشى المعابد الأخرى التي وجدها في البلد، لقد قام بجانبها واحترمها، دون غيرة منها، ولا رغبة في الهيمنة عليها. فمن القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر تأسست وازدهرت أجمل وأغنى حضارة في أوروبا في فترة العصور الوسطى)).

((فبين العرب الإسبانيين ولدت روح الفروسية، وهي الروح التي أخذ بها محاربو الشمال، كما لو كانت إحدى ميزات الأمم المسيحية)).

((وفي الوقت الذي كان فيه الشعب في أوروبا الإفرنجية البربرية، وأوروبا الأنكلو النورماندية والجرمانية، يعيش في الزرائب، وملوكه وباروناته يعتلون قمم الصخور، ويقيمون في حصون سوداء، تأكلهم الطفيليات، ويلبسون الخيش، ويأكلون مثل إنسان ما قبل التاريخ، في هذا الوقت كان العرب الإسبانيون يبنون القصور الرائعة، ويجتمعون -مثل ما كانت تجتمع صفوة روما القديمة- في الحمامات، ليتحدثوا في المسائل العلمية أو الأدبية))[1].

ما هي الأسباب التي أدت إلى انحطاط الإمبراطورية الإسلامية؟ إننا لن نذكرها، فهي تدخل في مجال التاريخ والمعرفة العميقة، والمهم في ذلك هو أن أوروبا لم تجد أمامها في القرن الماضي في البلاد الإسلامية إلا صورة كاريكاتورية بائسة من وجه العصر الوسيط. انطوى المسلمون على أنفسهم بعد أن مزقتهم الحروب الداخلية، وانهزموا في الحروب الخارجية، في حركة دفاع قصوى، وتكيسوا، والتكيس هو شكل من أشكال الحياة الخاملة للكائنات الحية، غير أنه إذا كان صحيحا أن الفضل في هذا الشكل من الحياة البطيئة هو الذي جنبهم الموت، فإنه ليس أقل صحة من ذلك بأن هذا الوقت هو الذي تراكمت فيه المعتقدات الغيبية، والتعصب، والجهل. وبالطبع، فإنه في هذه الظروف كانوا عاجزين عن الإنتاج، فراحوا يتغنون في سعادة بمجدهم الغابر، فماذا ينتظرون اليوم لتحطيم هذا الإطار الذي حبستهم فيه خمسة قرون من البؤس والجهل؟

إن القرن العشرين بالذات قد شهد هذا التحول، وقد ظهرت الأعراض الأولى من كل جانب، ونكرانها يعني نكران وقائع ثابتة. لقد بدأ الإسلام الجامد يتحرك(*)، ويريد أن يبعث إلى الحياة من جديد، بالرغم من المسيحية المتحالفة ضده، إنه ينظر بعيون مندهشة إلى قوى لا يدرك دائما مصدرها. إن التقدم يرعبه، إنه يتردد.. وبدافع من كسل الفكر يروح يتذكر هناءه في الأيام

---

1) انظر بلاسكو إبانيز في "ظل الكاتدرائية".

*) يقصد هنا الإسلام كما يتجلى في سلوك المسلمين. (المترجم).

الخوالي، لكن رجالا من جيل جديد قد ولدوا، وبدأ النضال بين المحافظين والمجددين مثل ما كان الحال في أوروبا، فكم سيستمر، ومن سيكسب؟ ذلك هو إشكال اليوم.

وبالنسبة إلينا فإن هذه المسألة مفصول فيها، ونستطيع أن نؤكد، دون أن يكون لدينا غرور التنبؤ، أن هذا الإسلام "المتعصب"، و"الرجعي"، و"المعادي للتقدم"، سيكون في ظرف مئة عام قد فهم كل شيء، وقبل كل شيء، وتبنى كل شيء، وتمثل العلوم والمكتشفات الحديثة، دون أن يتخلى في الوقت نفسه عن تعاليم قرآنه، وعن أخلاقه السامية القوية. إننا سوف لن نرى -ويا للأسف- تلك الأيام الرائعة، حين تعطي فيه الحكومات الإسلامية من جديد الإنسانية -وقد اطمأنت على مصيرها- مساهمتها في مجال الفكر ومجال العمل، لكن، أليس في توقع تلك الأيام مشاركة في مجدها وفي الابتهاج بها؟

لقد وجد الاستعمار في التعصب الإسلامي تأويلا آخر، فعندما لا يمسك الأهلي القلم ليتغنى بالإنجاز الذي قام به الاستعمار في بلده، ولا يحول كل نقد إلى أغنية مديح جوفاء، فإنه سرعان ما يوصف بالمتعصب، والشيوعي، والثوري، ونكون مضطرين -والحال هذه- أن نلتزم صمتا حذرا، أو أن نعيش بقناع على الوجه. ليسمح لي من يناصبوننا العداء أن أقول لهم إن هذا لن يحدث.

إنها الطرائق التي تسببت في انفجار الحقد، وفي تكوين النفاق الاجتماعي، ولكي تعالج فإنه لابد للجزائر الأوروبية -التي لا تتفق دائما وسياسة هذا البلد- أن تستأنس بهذه الفكرة البسيطة التي يمكن للمستعمرة أن يكون لها رأي مختلف بشأنها، سواء من قبل أولئك الذين يصنعونها، أو أولئك الذين يتحملون نتائجها. إنهم ينظرون إلى الطلبة العرب/البربر باعتبارهم أصحاب تكوين وثقافة فرنسيين، وعندما يلاحظون خلافات في وجهات النظر بينهم وبين زملائهم الفرنسيين يطلعون بالتهمة التقليدية للتعصب الإسلامي.

إن معارفي باللغة العربية -وأقولها صراحة- هي مع الأسف، معارف ناقصة، وهذه حال معظم زملائي، إن جيلنا غير مدين إذن إلا قليلا جدا للأدب

العربي، وعلى العكس من ذلك يشكل الفكر الفرنسي قاعدة المبادئ التي تقوم عليها حياتنا الروحية. لقد جاءت روح الكتاب الفرنسيين لتقدم لنا تفسيرا علميا -إن جاز لي التعبير- عقلانيا لتجريبية الموروث الذي تركه لنا الآباء والتقاليد. ومع هذا فقد ظل الإسلام هو عقيدتنا الصافية، وإيماننا الذي يعطي معنى للحياة، وهو وطننا الروحي.

إنه لا بد أن يكون الأمر على هذا النحو، فالدماغ الإنساني ليس مجرد تجويف حيث تأتي العناصر المعرفية -مثل ما هو الشأن في التفاعل الكيميائي- لتتركب فيه، إنه مادة حية تأخذ قسطها من رد الفعل أكثر بكثير مما تكونه، وتستجيب بشكل مختلف حسب شروط التركيب وظروفه. إن هذا الفعل اللاواعي للمادة الحية هو الذي يصنع الطبع، والعقلية، والعرق، وإزاء هذا الواقع لا نستطيع فعل أي شيء، والمنافسون لنا هم أيضا عاجزون عن الفعل مثلنا، فلو كنا في وطن "الجنيات"، لجاء ستة ملايين من المسلمين لتقبيل الصليب، إرضاء للسيد "لوي برتران"، ولو كان في إمكاننا أن نرتب الرجال مثل ما ترتب الكتب في مكتبة، لعاشت جزائرنا في انسجام كامل، غير أن الإنسانية أكثر تعقيدا من هذا، وهي تتجاوز إطار تسوية مثالية، والستة ملايين من الأهالي -الفلاحين والمثقفين- بحكم اعتناقهم لمثالية أخرى لها من الشرعية بقدر ما لمثالية السيد "لويس برتران"، يصرون على البقاء هم أنفسهم، فهل يكون متعصبا من يريد أن يبقى هو نفسه؟

* * *

كتب لوي برتران يقول: ((.. إن هذا لا يمنعنا من أن نستقبل بصفة أبوية ذلك الأهلي الذي يأتي إلينا، مع علمنا في الوقت نفسه ببقائه على ماهيته الأصلية)). ولأن الأهلي بالتحديد يجب أن يبقى هو نفسه فإن هذا البلد سيعرف إن عاجلا أو آجلا ما يراه الأهلي، ففي الوسط المرفه نسبيا، الذي تجري فيه حياته الجديدة، لا يستطيع أن ينسى الجحيم الذي خرج منه، ذلك الجحيم الذي ما زال أهله يعيشونه.

هناك في أحد الدواوير البعيدة، في كوخ من الخشب، أو "الديس"(*)، تنام جدتي بالقرب من "كانون" (موقد) يتصاعد منه الدخان، وبيدها سبحتها. مئة عام من الذكريات ومن الكد والبؤس تثقل ذلك الجسد الفاني، الذاوي، الذابل، وأطفال معفرون بالتراب يرهقونها بتعلقهم بها، وبعيدا عن كوخنا، كانت هناك أكواخ أخرى يأوي إليها رجال حفاة الأقدام، بؤساء، يعشش القمل في ثيابهم. هذه المخلوقات البسيطة، التي تحبني وأنا أحبها، ويجمعني بها رابط لا يقبل الانفصام، إن دمها هو دمي. إن القانون الأكبر بالنسبة إليها هو العمل اليوم، والموت غدا. إن هذه الحياة الحيوانية هي ما يثيرني ويؤلمني، فإذا كان هذا هو ما يجعل المرء شيوعيا فأنا شيوعي.

إن كل ما يمس الفلاح الجزائري يمسنا، وهذا هو أسلوب حياتنا، وإن السياسة التي تضر بهذا التضامن، وتقر بتبعيتنا للعنصر الأوروبي –باسم فرنسا وباسم الحضارة– تطلب المحال، وترتكب أكبر ظلم، إذ ما هي في الواقع مصلحة فرنسا من هذا؟ أليست الرفاهية؟ وما هي الحضارة؟ أليست هي الفهم الصحيح للواجب الاجتماعي؟ بطبيعة الحال ليس العمل –وهو مصدر الرفاهية– ولا المدرسة التي تحرر تلك العقول المقيدة، من اختصاص دعاة "إفريقيا اللاتينية"، ولكنهما من اختصاص أولئك الذين يمسكون في أيديهم، في بلد ما، القوى التي تخدم تنظيما اجتماعيا مرضيا، هذه هي الحقيقة الصريحة، أما الباقي فليس إلا كلاما.

إلى أن بلغت الثانية عشرة من العمر كنت أركض في "الدوار"(**) حافي القدمين، دون أن تطرق سمعي كلمة فرنسية واحدة، تماما مثل رعاة دوارنا، واليوم، وبفضل المدرسة، أستطيع أن أدعي بأنني قادر على تأسيس بيت وتربية أطفال، وقادر على أن أحيا أو أموت من أجل بلدي وكفى، فهل تطلب فرنسا من أبنائها أن يكونوا جميعا أكاديميين؟

---

*) نبات تغطى به سقوف الأكواخ. (المترجم).
**) القرية الريفية.

في هذا الوقت شيد "معبد" في هذا البلد، بفضل جهود الجميع، أبوابه كانت مغلقة ثم فتحت لنا -أعني أبواب التجنيس (La naturalisation)- وقيل لنا: ((ادخلوا، إذا كنتم تريدون الحصول على حق الكلام والحياة والحرية))، ولأننا كنا ننتظر أن تفتح لنا الأبواب مثل ما هي مفتوحة حتى للأجانب، أعداء الأمس، فإنهم يصرخون في وجوهنا: ((يا ناكري الجميل، إنكم تتمردون على مؤسساتنا، وترفضون أن تأتوا إلينا)).

لكن كيف هو هذا التجنيس؟ إن الجزائر فرنسية، ونحن فرنسيون، مع احتفاظنا بقانون الأحوال الشخصية كمسلمين، قانون الأحوال الشخصية هذا، الذي يتلخص في الزواج وفي الميراث، أما الباقي فالقانون الفرنسي يطبق علينا كاملا، حيث حلت محل التشريع الإسلامي القوانين التجارية، والقوانين الاجتماعية، والقوانين المالية، والقوانين القضائية، والقوانين المدرسية، والقوانين العسكرية، وما إلى ذلك. لقد أخضعتنا فرنسا، من الناحية النظرية على الأقل، لقانون عسكري، ولكنه قانون خاص -والاستعمار مغرم كثيرا في الواقع بـ "المفهوم الخاص"- وزودتنا فرنسا بقانون مدرسي، ولكنه قانون خاص، وهكذا بالنسبة لبقية القوانين.

فالتجنيس الفردي في هذه الأحوال لا يوجد له مبرر، إذ لماذا يتجنس الجزائري؟ لكي يكون فرنسيا؟ إنه فرنسي، حيث أن بلده أرض فرنسية -كما يقال- أم من أجل أن يتمتع بحقوق المواطنة الفرنسية كاملة، ويفلت من القوانين الخاصة؟ هذه رغبة مشروعة بلا شك، ولكن هذا لا يغير شيئا في وضعه، ما عدا أنه يخلق بين الجزائريين المسلمين طبقة من "المتجنسين"، ويزيد بذلك من الفوضى الاجتماعية، ومن الانقسامات داخل بلدهم، فهل يراد لهذا البلد أن يرفع نحو وضع أرقى، أم يراد له الفرقة لتسهل السيطرة عليه؟

إننا نستطيع أن نفهم بسهولة أن أجنبيا يجد عن طريق التجنيس الفردي حياة أفضل، فيستقر نهائيا في الجزائر، لكن بالنسبة إلينا؟ نحن جزائريون، ونشكل فردا من عائلة، وفردا من المجتمع، وهذا موضوع في الحسبان حسب ما أتصور، فهل

هناك -بالمصادفة- من يدعي أنه يمكن تغيير أي شيء في هذا المجتمع عن طريق التجنيس الفردي؟ كلا، إن ما يلزم هو قانون يشمل الجميع، إذا كانت هناك حقا رغبة في توجيه الجزائر المسلمة نحو حضارة أرقى. إن الفرد، حتى ولو كان عبقريا، لا يعتد به، إنه لا يعتد به إلا في حدود أنه عندما يطبق عليه القانون العام فإنه يمهد للإصلاحات والتطور. إن هذا ليس بتعصب ولا شيوعية. إننا نرى في هذا أبسط حقوق المجتمع على الفرد، والخلية على التنظيم.

وإذا أضفنا إلى هذه الحيثيات ذات الطابع العام واقع أن الأهلي المتجنس لا يتمتع بالحقوق العامة، ويبقى خاضعا في أمور مختلفة للقوانين الخاصة، فإنه من السهل علينا أن نستنتج عدم جدوى هذا الفعل المدني. إن التجنيس في الجزائر، هو في الواقع في خدمة الجالية الأوروبية قبل كل شيء، فتجنس رجل "مايوركي"(*) يجعله فرنسيا، في حين أن هذه الصفة تكون محل نزاع بالنسبة للأهلي المتجنس.

* * *

إننا سنحدد في الفصل اللاحق موقفنا الذي وصف بـــ "الثوري"، ولن نقف هنا إلا مع أسطورة التعصب الإسلامي. كتب "بلاسكو إيبانيز" العظيم، متحدثا عن بلده فقال: ((عندما كانت إسبانيا لا تحسن القراءة كانت منهمكة في الصلاة))، وهذا ما حدث بالنسبة للمسلمين، إنهم لم يعودوا يحسنون القراءة، فراحوا يرددون الأوراد، وأية أوراد؟ فمنذ خمسمائة عام وهم يرددون النصوص نفسها، ويكررون الكلمات الخرقاء ذاتها، ويهدهدون أنفسهم بالأوهام والأحلام، فلم يعودوا يعرفون من الواقع إلا التناحر فيما بينهم، والإيقاع الممل لرتابة الزوايا الدينية والطرق الصوفية.

لقد قلنا إن هذه الأوراد لا تذكر من قريب أو بعيد بالإسلام ذي الرسالة العالمية، على النحو الذي أرسله به الله إلينا.. آه لو أن نبينا المحبوب يبعث من

---

*) أي رجل إسباني من بالما مايوركا (المترجم).

جديد على الأرض، فسوف يقول لنا: ((أهذا يا أمتي هو كل ما احتفظتم به من شريعة الله؟ ماذا فعلتم بمبدإ الجد والعمل، الذي هو أساس رفاهية الشعوب؟ إلى أي شيء صارت إليه المساواة والأخوة التي وعظتكم بها في عرفات؟ لقد أصبح ملوككم، ومن حولهم حاشيتهم، مومياوات قديمة في يد الأجانب، وأصبح سادة منكم -وقد كساهم الذهب- يستغلون بلا حياء بؤس إخوانهم المساكين. من يكونون هؤلاء الرعاة، الذين "يعطون لكي يجمعوا"، ويصنعون المعجزات؟ ومن هؤلاء الأتقياء الذين يدحرجون حبات السبح، في الوقت الذي يحتضر فيه الإسلام بسبب كسلكم وجهلكم واستسلامكم للراحة؟)). كان سيقول لنا هذا، وسيكون حزنه شديدا.

لقد شاء الله أن يحفظ رجالا جاؤوا لكي يبددوا هذا الحزن، وهاهو فكر الشيخ "عبده"(*) يسطع مثل نجم جديد، وهاهو الملك بن سعود، ومصطفى كمال، يضعان حجر الأساس لبناء مدينة المستقبل الإسلامية، وسوف يكبر البناء، وعلى هذا النحو سيعطي الإسلام مرة أخرى، وبعد نوم دام خمسة قرون، ما هو جدير به من الخصوبة.

وفي حالة ما إذا أعطت الشعوب موعدا من أجل تعاون عادل وأخوي، فإن ديننا وجنسنا لن يتقوقع على نفسه في التعصب والحقد، ونحن على يقين من ذلك، بالرغم من المحن القاسية التي تكبدها ديننا وجنسنا.

* * *

*) يقصد الشيخ محمد عبده . (المترجم)

IV

مأساة الأمس وغموض الغد

إننا نريد أن نكون موجودين

كثير من الناس يعتقدون أن فرنسا قد جاءت عندنا، واضعة على رأسها القلنسوة الفريجية(*)، وبيدها غصن زيتون، إنهم يخطئون كثيرا إذ يظنون ذلك. لقد حدثت مع الغزو ثورة اجتماعية حقيقية، وككل الثورات كانت هذه الثورة في حاجة إلى أن تلتهم شيئا ما فالتهمتنا.

استنادا إلى تعليمات الجنرال الرئيس "دو روفيكو" خرجت مفرزة عسكرية من مدينة الجزائر في ليلة 6 أبريل 1832، وفاجأت مع بزوغ الفجر قبيلة العوفية وهي نائمة تحت خيامها، دون أن يتمكن أي واحد منهم من الدفاع عن نفسه، فقضوا على كل من يحي فيها بالموت، دون أي تمييز في العمر أو الجنس[1].

لعل المجازر في أوروبا لم يعد لها وجود، أما هنا فتتكرر مذبحة "سان بارتليمي"(**)، ويزرع الرعب، وتقمع ثورة "لاكومين"(***). في الجزائر، وفي المستعمرات بصفة عامة، يفقد الجندي والرئيس كل مراقبة على نفسيهما، فيذهبون ليسلبوا ويمثلوا بالموتى. ((بيعت معظم الغنائم لعون قنصلية الدانمارك، والباقي عرض في سوق باب عزون، وكانت أساور النسوة ما تزال تطوق معاصمهن، وأقراط تتدلى فيها قطع من شحم آذانهن، والثمن المحصل يتقاسمه الذباحون))[2].

---

*) القلنسوة الفريجية كان يلبسها العبيد في روما القديمة بعد تحررهم، وقد أصبحت أثناء الثورة الفرنسية رمزا للحرية. (المترجم).

1) إفريقيا الفرنسية، برواية م. لوزون.

**) وقعت هذه المذبحة في باريس سنة 1572، ونفذت بأمر من الملك شارل التاسع ضد المسيحيين البروتستانيين، حيث قتل منهم حوالي ثلاثة آلاف شخص.(المترجم).

***) هي ثورة قام بها العمال سنة 1871 واحتلوا فيها بلدية باريس، لكن الجيش النظامي التابع لحكومة "تيار" قمعها بقسوة. (المترجم).

2) ديوزيد "تاريخ الجزائر".

وهذه الثورة امتدت على فترة خمسين سنة كانت بالنسبة إلينا "سنوات الرعب"، حيث كنا مطاردين بلا هوادة مثل الحيوانات المتوحشة. ((كان السلب يمارس من قبل الجنود، ثم امتد بعد ذلك ليشمل الضباط، فعندما أفرغت قسنطينة عادت الحصة الأكبر والأوفر —كالعادة— لرؤساء الجيش وضباط الأركان)).

((كنا في وسط الجبال بين مليانة وشرشال، فكنا نطلق عيارات قليلة، ونحرق كل الدواوير، وكل القرى، وكل الأكواخ، فكان العدو يفر سائقا معه قطيع مواشيه)).

((كان بلد بني مناصر رائعا، وواحدا من أغنى ما شاهدت في إفريقيا، القرى فيه والبيوت شديدة القرب من بعضها بعضا، فأحرقنا كل شيء، وخربنا كل شيء، آه الحرب، الحرب، كم من النساء والأطفال لجؤوا إلى ثلوج الأطلس فماتوا هناك من البرد والبؤس)).

((كنا نقتل ونحرق ونخرب البيوت ونتلف الأشجار، أما المعارك فكانت قليلة، أو لا وجود لها)).

((أشجار البرتقال الجميلة التي كانت بربريتي ماضية للقضاء عليها.. لقد تركتها بعد مروري عبارة عن حريق شاسع، كل القرى، وعددها حوالي 200 أحرقت، وكل الجنائن أتلفت، وكل أشجار الزيتون قطعت))[1].

إن جزائر العسكر لم تقاوم إلا عشرين يوما، ولكن جزائر الفلاحين قاومت نصف قرن. لقد دافع الفلاح بضراوة -في كل مرة كان ذلك ممكنا- عن وجوده، وعن ممتلكاته، وعن حريته، ولا يتخلى عن المقاومة إلا حين يطرح أرضا تماما ويسحق. إن آلامنا الجمة هذه يجهلها معظم من يقولون اليوم عن أنفسهم إنهم "جزائريون"، أما نحن فإننا نعرفها، حفظناها صغارا على ركب جداتنا.

((قطعت له رأسه (يقصد كبير قبيلة عربي) وقبضته اليسرى، وأتيت إلى المخيم برأسه مغروزا في حربة، وبقبضته معلقة على قضيب تنظيف البندقية،

---

1) من رسائل الماريشال "دو سانت آرنو"، ج 1 و2.

فأرسلنا إلى الجنرال "باراكوي دهيليي"، الذي كان يقيم في خيمة قريبة من هناك، فسر بذلك (...) إنه لا يتصور مدى التأثير الذي يحدثه قطع الرقاب بيد مسيحي على العربي، لقد فهمت هذا منذ وقت لا بأس به، وأؤكد لك أن لا أحد يقع بين المخالب ويفلت من العملية الناعمة هذه، فمن يرغب في غاية عليه أن يرغب في وسائل الوصول إليها، مهما قال مبغضونا. كل العسكريين الجيدين الذين كان لي شرف قيادتهم كنت أعلمهم مسبقا بأن من يأتيني بعربي حيا سيتلقى جزاء ذلك ضربات ببطن السيف... أما عملية قطع الرؤوس فإنها كانت أمرا مألوفا بين الجنود))[1].

إلا أن الثورات الشديدة الدموية لها نهاية، وقد توقف العرب/البرابر عن أية مقاومة، وقد ولد على أشلاء المجتمع المسلم نظام جديد أخذ صلابته من الدماء السخية لخيرة رجالنا. إن هذه الأيام السوداء تضيع في الماضي وتبدأ الحياة دورتها الدائمة من جديد. لكن، ماذا جرى منذ اليوم الذي كسرت فيه كل مقاومة وأمسكت فيه فرنسا بمصير هذا البلد؟ كان هناك نوعان من السياسة الممكنة، سياسة التطوير عن طريق المدرسة، وبواسطة النظام الإداري الفرنسي، في إطار الوطنية الفرنسية، وسياسة الاستعمار التي تعود طرقه إلى العصور الغابرة. فبالنوع الأول يتم الزواج بين الغرب والشرق، وتتم المصالحة بين فرنسا والإسلام، وتتشكل به فرنسا الشرقية عن طريق الثقافة الفرنسية الإسلامية، وتحدث به أجمل معجزة من معجزات الزمن الحديث، مكونة من خلاصة الحضارتين الاثنتين، أما بالنوع الثاني من السياسة فتبعث معها من جديد جزائر الرومان، وقد اختيرت سياسة الاستعمار.

والحقيقة أن النوع الأول من السياسة لم يوضع حتى في مجرد التصور، إذ كيف يحدث ذلك والجزائر بهذا البعد عن فرنسا، والجزائريون بهذا الاختلاف عن الأوروبيين؟ ويمكن لنا أن نحكم على مدى اتساع الهوة بين الطرفين من خلال دهشة الماريشال سانت آرنو فيما يلي: ((أعاد إلينا عبد القادر كل

---

1) مونتينياك "رسائل جندي".

أسرانا، دون شروط، ودون مبادلة، قال لهم ليس لدي ما أطعمكم به، ولا أريد أن أقتلكم، ولذلك أطلق سراحكم. إنها لفتة طيبة من رجل همجي))[1].

إن عدم تفهم من هذا النوع، لابد أن يؤدي حتما إلى وجود نظام معاد لسكان البلد من العرب/البرابر.

((في بداية "ملكية جويلية"(*) كان دعاة "الإعمار" يطالبون بالاحتفاظ بالجزائر، ويطالبون في الوقت نفسه باستيطان الأرض، غير أن وجهات نظرهم كانت في ذات الوقت متباينة. كانت فكرة تخصيص إفريقيا للفرنسيين وحدهم مستبعدة في الغالب، والرأي الذي كان غالبا هو أن يكون استيطان الأرض ذا طابع متعدد الأعراق، وأن يصنع من الجزائر، حسب التعبير الذي كان مفضلا آنذاك، مستعمرة أوروبية))[2].

وكان المستقبل لهذه "التركيبة"، فقد جلبت الجزائر إليها عددا كبيرا من الأجانب، الذين كان من بينهم ((قوم شرفاء اختلطوا بمغامرين، وبتجار لا ذمة لهم، وبمضـــاربين أثروا بسرعة وبطرق غامضة))[3]. وبالطبع، فإن أيا من رؤوس الأموال لم تدخل الجزائر، وإنما كانت مليارات الضرائب التي تجبى من الأهالي، وأراضي الأهالي، واليد العاملة من الأهالي، ومساعدات فرنسا، هي وحدها التي سمحت لهؤلاء القادمين الجدد بالاستقرار، وكانت النتائج هي ما نعرفه، وهي رفاهية المستعمرة. لكن، في مقابل هذه المستعمرة كان العرب/البربر يعيشون على الكفاف، كانوا كتلة من ستة ملايين من البشر، تعرضوا إلى محنة قاسية، وانتزعت منهم أراضيهم، وسحقوا بالضرائب والغرامات، كانوا مستسلمين في هيئة صامتة ، متأملة، خرساء، تنتظر العون من الله على كل تلك الآلام.

---

1) من رسائل المارشال سانت آرنو، ج1 ص385.

*) نسبة إلى الثورة التي حدثت ضد شارل العاشر ما بين 27 و29 جويلية 1830، وأتت بـ "دوق أورليان" ، الذي أصبح يعرف باسم الملك "لويس فيليب" (المترجم).

2) س. كزال و ج. إيفي "تاريخ الجزائر".

3) المرجع نفسه.

كانت هذه هي الوضعية عندما فتحت فرنسا سنة 1890 المدارس للشبان من الأهالي، طالبة من آبائهم تعاونا نزيها، في حين أن أحد البراهين على النزاهة هو أن يقول المرء بصراحة ما يريده، وما يفكر فيه. إن تربية عقول أولئك الذين يلتزمون الصمت بالادعاء أن الأمر العام ليس من شأنهم، ينتج التأثير نفسه للجيفة التي تلقى للكلاب لمنعهم من النباح. إنها قد تغذي الجسم، ولكنها لا تصل إلى العقل، علما أننا لا نبحث لدى معلمينا عن مهنة بقدر ما نبحث لديهم عن كيفية أفضل للإحساس والتفكير. إن هذا هو سبب مكافحتنا للمآسي التي تحيط بالمجتمع المسلم، وهذا الكفاح بالنسبة لفرنسا هو في الحقيقة ضمان وفائنا وصدق سريرتنا.

إننا لو كنا نريد التمرد فعلا، كما يدعي أعداؤنا، لقمنا بعملنا في الخفاء، وفي صمت، لكن أين هي اجتماعاتنا السرية، ومؤامراتنا، وتنظيمنا الثوري؟ لو كنا نريد أن نحطم هذا المعبد الذي شيده الفلاح بيديه لكنا قد تركنا الأخطاء والمظالم تتراكم، الأمر الذي سيجعلها تطلب، إن عاجلا أو آجلا، من التاريخ أن ينصفها. وينبغي أن لا يقال لنا بالخصوص: إن الجزائر الفرنسية هي قلعة شديدة البأس لا يمكن الدخول إليها، فلا شيء شديد البأس في هذا العالم إلا أولئك الذين لهم حق أمام الله وأمام الناس.

إننا إذا كنا نريد "المجزرة الكبرى" –حتى نستعمل تعبيرا عزيزا جدا على الصحافة الجزائرية– فإنه يجدر بنا أن نتذكر هذه الحقيقة الاجتماعية: ((إن الكم المهمل لشعب ما، ينطوي على قوة هائلة، فهنالك تكمن حكمته، وهنالك قوته))، وإننا نحتفظ بهذه القوة الكامنة في هذه الكتلة المكونة من ستة ملايين من البشر، لاستعمالها في يوم ما، عندما يحين الوقت، أما الجهل، فما أهون التغلب عليه.

ولو كنا مثيري فتنة، كما يحلو لبعضهم أن يشيع في كل الآفاق، لكنا قد غذينا حقولنا بمثل ذلك النثر الحقود الذي ظل يكتب منذ مئة عام ضد الإسلام، وضدنا نحن بالذات، ولكنا قد قرأناه على أطفالنا، لكي يظل حيا، قائلين لهم: ((اصمتوا ولكن تذكروا)).

إن سياسة "لافريك لاتين" التي كانت ستساعدنا، على أية حال، في عملنا الثأري، هي السياسة الوحيدة التي كان علينا تشجيعها لو كنا حقا ثوريين، لأن "مهد" السيد "لوي برتران" يشبه في الحقيقة، بالضبط، تلك القصور السحرية القائمة على ظهر حيوان نائم، فإذا تحرك الوحش انهار القصر وتلاشى كل شيء. لكن، بين هذا البرنامج الوطني الثوري، وبين مطالب المثقفين المسلمين، هناك مكان لحقيقة صارخة.

حقا، ماذا نفعل نحن؟ إننا ننادي بضرورة اختراق هذه الكتلة من الستة ملايين نفس، وبأخذ مبادرة التواصل معها، لتجنيبها مبادرات المغامرين، ومرارة الخيبة. إن هذا التواصل سيخفف حتى من الأذى الذي يرتكب يوميا باسم فرنسا. إننا غالبا ما ننسى أن الأهلي هو عرضة لنزوات الرتباء العسكريين، ورؤساء القوم العرب، دون أن يكون له، مثل ما كان أيام زمان، حرية أخذ حقه بنفسه عندما يطفح الكيل. إن طرائق العصور الوسطى هي التي ما تزال تحكـــم مصائرنا في الدواوير، ولا أبالغ إن أنا استعرت قولة السيدة "رولان"، لأعبر بها عن بؤس حياتنا حين تقول: ((آه فرنسا، كم من جرائم ترتكب باسمك)).

إن الفرنسي لا يعرف مثل هذه الجرائم، لأنه عاش دائما في القرى والمدن، ويعتقد مخلصا أنه قد أنجزت أشياء كثيرة، وأن الجزائر سعيدة، وأن الأهلي يعيش في سلام، ولذلك فإنه عندما يبلغ إلى علمه، في يوم من الأيام، أن هذه القبيلة أو تلك قد حملت السلاح، فإنه لا يفهم شيئا، مع أن الحقيقة بسيطة التصور، إن الاستعمار الذي كانت تشغله مشكلة توطين الأوروبيين والمصالح الخاصة، لم يفعل إلا القليل بالنسبة للمجتمع المسلم، وللوفاق والتعايش بين الأعراق. لقد ظن الاستعمار أنه حل المشكلة بتأطيره للأهلي بأعوان إداريين، هم بصفة عامة غير مؤهلين، وبتزيين صدور رؤساء القبائل العرب بالنياشين. وبوقوع الفلاح تحت جزمة هؤلاء وأولئك، أحنى رأسه مرعوبا، وهذا الهدوء هو الذي سمح للسيد "ستيك" بأن يضع كتابا جميلا يمجد فيه السلم الفرنسي

في شمال إفريقيا. إلا أنه، ولسوء الحظ، هناك خلف هذه الواجهة حقيقة المصباح البترولي الذي يملأ برائحته الكريهة الكوخ المسقوف بالأغصان والقش اليابس، وهناك الثقب المملوء بالطين والعفن الذي تشرب منه "مشتى"(*) بكاملها، وهناك رجال تقرض لحمهم الجروح العفنة، وهناك الأسرة التي تقتات على العشب، وهناك ضربة السوط القاتلة، وهناك النهر الذي لا جسر له، حيث يغرق فيه الناس، وهناك في النهاية، يا للعار، السياسة الجزائرية التي تنزع -مع معرفتها الكاملة بالأسباب- إلى أن تبقي هذه الوضعية التي لا تغتفر على حالها، وتفتخر بالنتائج المحصل عليها.

بالتأكيد إن هذه السياسة قد أوجدت مستعمرة أوروبية غنية ومرفهة، تستطيع أن تفخر بها، ولكن هل ينبغي أن ننسيها هذا وجود جزائر مسلمة، جاهلة، مصابة بفقر الدم، ولا حياة لها؟ لقد صنعت شيئا بالفعل لهذه الجزائر ولكن بخجل، ودون اقتناع، وبأسف. إن هم "إدارتنا الذكية" باق اليوم، مثل الأمس، هو توطين الأوروبيين على حساب الأهالي، واستصلاح البلد لفائدة المستوطن، ولفائدة الاستغلالات الصناعية والمنجمية الكبرى.

لقد حاولنا بكل إخلاص، أن نبين هشاشة البناء الذي وضع على النحو، بعيدا عن أية قاعدة للعدل، وضد حق الناس. إن هذا البناء اليوم -وقد سبق لنا أن قلنا ذلك- هو عبارة عن قصر فخم لفرنسيي الجزائر، ولكن، إذا كانت هذه السياسة الاستعمارية قد استمرت في الماضي، فهل ستستمر خلال مئة عام بالنسبة لفرنسا؟ إنني أشك في ذلك.

لا توجد هناك إلا سياسة واحدة يمكن لها أن تحفظ مصالح فرنسا والحضارة، وهي سياسة تطويرنا المشروع، ونهوضنا الاجتماعي. هل تريدون أن تجعلوا من الجزائر أرضا شقيقة للأرض الفرنسية؟ علموا الجزائري، واربطوه اقتصاديا وإداريا بفرنسا المركزية، ووجهوا اهتمامه بما أنجزته. هل تريدون أن

---

*) المشتى وهي كلمة مثبتة في الأصل بهذا الاسم تشكل جزء من الدوار الذي يتكون من مجموعة مشاتي (المترجم).

تحضروا هذا البلد؟ حضروا ساكنيه، ليس هناك من صيغة أخرى، أما أن تخلقوا -خلافا لذلك وبشكل مصطنع- شعبا أوروبيا يمسك أصحاب البلد الشرعيين بشكل قسري، فإنكم تعرضون أنفسكم إلى ما ستفعله الطبيعة في يوم ما، وهو أن تستعيد حقها، وتحطم في حركة غريزية، إنجازا لا يعنيها، إنجازا سيبقى غريبا عنها، إنجازا يحتمل أن يسبب لها الألم. ((إن هم سيطرتنا ليس هو ما يمكننا من السيطرة، ولكن الأمر يتعلق بأن نكون في مستوى مسؤولياتنا، وأن ننجز عملا له معنى ويمكن أن يصمد))[1].

مئة عام من الاحتلال لم تعط، لسوء الحظ، أي معنى لهذا العمل، ما عدا أنها أتت بستمائة ألف أوروبي هنا، في الوقت الذي كان على عاتق "الهيئة التاسعة عشر للجيش" أن تجعل الجماهير العربية البربرية تحترم وجودها. ومن هذا الواقع نظل في هذا البلد في صف الأيتام الذين تثير أملاكهم بشكل دائم طمع هؤلاء وأولئك.

((إن الحلم الفرنسي في شمال إفريقيا مقدر له أن ينهار، ليترك المكان مع الوقت لقيام دول مستقلة، وإيطاليا تعلم أن هذا اليوم مقدر له أن يحل محل فرنسا في استغلالها الزراعي والصناعي وفي إصلاحها الاقتصادي. إن على فرنسا أن تفهم هذا، وأن تنضم إلينا في رغبتنا في التعاون. فإذا لم يحدث هذا فإن الإيطاليين سيمدون أيديهم إلى الأهالي، وسيقولون لهم: سنصنع -نحن وأنتم- إفريقيا جديدة، حرة، مستقلة وغنية، وسيقولون لأنفسهم هم بالذات: إن هذا اليوم سيبدأ مجدنا الحقيقي في البحر المتوسط))[2].

أما في جهة أخرى، فلا تطرح مسألة الدول المستقلة، وإنما تطرح ببساطة حقوق إيطاليا في إفريقيا الشمالية: ((يريد "كاف" (Cave) أن يحرمنا مما هو حق لنا، بطلبه منا التخلي عن حقنا في كل إفريقيا الشمالية الفرنسية، مقابل وعد غامض بالتعويض.إنها اللعبة القديمة تتكرر برتابة مملة))[3].

---

1) إ. ف. كوتيي، مرجع سابق.
2) م. باسي، أوردته "لافريك فرانسيز" في عددها الصادر في مارس 1927.
3) الجريدة الإيطالية "إيديا كولونيالي" الصادرة بتاريخ 2 أكتوبر 1926.

إن إيطاليا الفاشية تطالب اليوم، كما نرى، وبدافع من داء الإمبريالية بإرث روما، كما لو أننا نحن بالذات لم نوجد، وبالأمس كانت ألمانيا ترى لو أن اتجاه القدر في الحرب الأخيرة (العالمية الأولى) كان على عكس ما انتهى إليه، فإلى أي مآل كان سيؤول إليه مصيرنا؟

هل كنا متعلمين بما فيه الكفاية لكي نسمع صوتنا ونعبر عن إرادتنا في بقائنا مرتبطين بالثقافة الفرنسية وبفرنسا؟ بالتأكيد لم يكن في إمكاننا، من أجل الحفاظ على حرياتنا، أن نعرض أنفسنا للمرة الثانية للقتل بما في الحرب الحديثة من وسائل متطورة. أمن أجل هذا سقينا بدمنا هذا البلد بكل سخاء أثناء الغزو الفرنسي؟ وهل هذه هي نتيجة خمسين سنة من العيش المشترك، والعمل المشترك؟ وهل لأجل هذا ذهب الجزائري المسلم إلى مدغشقر، و"الطونكان" (بالهند الصينية)، و"لامارن" (فرنسا)، ليموت من أجل فرنسا؟ لا جدوى من الإلحاح في هذا الصدد، والمصيبة أن الحالة الراهنة إنما هي نتيجة لإرادة أولئك الذين مارسوا سياسة قصيرة النظر، وأولئك الذين يهزؤون من إنجاز عمل وطني حقا. إن تصريح وزير الحرب أثناء أحداث "الريف" سنة 1925 هي تتويج لأخطاء كثيرة مماثلة. يقول: ((إننا لو تراجعنا خطوة واحدة في الريف، فإنه لن يغرق المغرب الأقصى وحده في النار والدم، ولكن ستغرق معه الجزائر وتونس)).

يقولون تعصب إسلامي؟ لنترك شرح هذا للبلداء، ولنذكر أن هذا التهديد كان يلقي قديما بثقله على روما، و لم يكن الإسلام قد بعث بعد، والحال أنه إذا لم تغير السياسة الجزائرية توجهاها، فإن التهديد نفسه سيلقي بثقله على الجزائر الفرنسية، سواء في قرن أو قرنين، وإنه لأفق بديع لمن يعملون، ولمن يؤسسون البيوت، ولمن يربون أطفالا.

إنه مازال هناك رجال ينعتوننا بالثوريين، وبالمناهضين للفرنسيين، ونود أن نطمئنهم هنا بأنهم لن يؤثروا على ما نعتقده في شيء، ولن يغيروا شيئا في حلمنا، وهو أن نرى الفلاح أقل بؤسا مما هو عليه، ونرى فرنسا تحظى باحترام أفضل، والجزائر مطمئنة على مصيرها.

* * *

جحود واعتراف بالجميل

منذ سنوات، أرادت فرنسا أن تشرك في انتصارها الجزائر المسلمة التي خاضت الحرب إلى جانبها، فوافقت لها على الإصلاح السياسي لـــ 4 فبراير 1919، وكان هذا حقها المطلق، إلا أن المستعمرة الأوروبية لم تفهم الأمر على هذا النحو، وصدر احتجاج غاضب على ذلك من كل الجهات، مثل الذي حدث في "هيليوبوليس" (قالمة) على سبيل المثال، حين رمى شيخ البلدية، وهو في قمة الغضب، بنص الإصلاح على الأرض، وراح يدوسه بقدميه ويصرخ: "هذا ما أفعله بقانونهم"، والضمير في "قانونهم" يعود هنا على فرنسا. ومعلوم أن مصالح هؤلاء كانت خلال تطور المستعمرة، قد تعارضت ومصالح حكومة المركز في مسائل أخرى، ولا أذكر منها إلا تحديد زراعة الكروم في الجزائر، على سبيل المثال، الذي طلبه مزارعو الجنوب الفرنسي.

والحال أن الجزائر الأوروبية لم تتوجه في أية لحظة إلى العاطفة أمام مشاكلها المختلفة، ناسية على هذا النحو أنها لم توجد، ولا يمكن أن تستمر في الوجود بدون فرنسا. إن هذه الجزائر لم تفرض فعلا إلا بفضل التضحيات، وبفضلها فرض على الأهالي كل هؤلاء الناس القادمون من كل مكان، الذين تمكنوا من أن يحيوا وأن ينعموا بخيرات البلد. أيذكر أنه وهو يدوس (القانون) بقدميه مثل خرقة من الورق، أنه كان يدوس على التعبير السيد للإرادة الفرنسية؟ سنرى بعد قليل السيد "روبير راندو" يعلن بلهجة حاسمة حرية تسوية أموره بنفسه: ((إننا نحمد لأنفسنا أننا لسنا انفصاليين، وهذه هي السبة التي يلقي بها الأغبياء في وجوهنا(*). على أهبة الاستعداد نحن واقفون، كلما كانت فرنسا في حاجة إلينا، أصحاب هجوم نحن، وضرب بإخلاص، لكننا نزعم تصفية حساب أمورنا الصغيرة بأنفسنا)).

---

*) يستعمل صاحب النص تعبير «malafatche» بمعنى وجه في لغة "السابير" التي حاول المستوطنون في الجزائر أن يخلقوها من العدم ليتميزوا بها عن فرنسيي فرنسا، وكان روبير راندو هذا (1873-1950) وإسمه الحقيقي "روبير آرنو" هو الأب الروحي لبعث هذه اللغة وبعث أدب خاص بها ، وتظهر نزعة البحث عن التميز في تعابير هذا النص الذي حاولنا أن نحافظ عليها قدر المستطاع (المترجم).

إن السيد "روبير راندو" لن يعبر بشكل أفضل من هذا لو شاء أن يلخص فكر الشعب الجزائري وآماله الحالية، فمن أين جاءت إذن فكرة أن هذا "الشعب" يرفض للآخرين ما يطالب به لنفسه؟ أعتقد أن الجزائر المسلمة، التي لم تستفد حتى من عشر التضحيات التي قدمتها فرنسا، من حقها أن يكون لها على الأقل حرية التعريف بمشاعرها، والدفاع عن مصالحها، لكن ليس هذا رأي المستعمرة، إذ الظاهر أن مجرد الأنين والصراخ هو من وجهة نظرها دليل على أسوإ أنواع الجحود، فكل شيء بالنسبة إلينا نحن الأهالي ممتاز، الجميع يعمل من أجل سعادتنا، وإنه ليس جاهلا من لا يأتي ليعلن لنا بتعالم أنه نزل على هذه الأرض ليحضرنا، وأنه ينبغي أن نعد أنفسنا سعداء بما صرنا إليه، وأنه في نهاية الأمر قد أحسن إلينا كثيرا من حيث أنه لا يؤذينا.

وحتى نبقى في هذا الاتجاه، نورد ما كتبه الصحفي الجزائري، السيد "موبرا"، في "الحوليات الإفريقية"، وبجدية كاملة، متحدثا عن الفقيد "جانمير": ((ألم يترك لنا كنزا من الحكمة حين قال: الرسميون يؤكدون أن تعليم الأهالي هو ما سيأتي بكل السعادة للجزائر وفرنسا، أما المستوطنون الصغار والكبار، وعدد من الجزائريين الآخرين من أصحاب الخبرة الكبيرة، فيحذروننا في أسى بأنه سيأتي بكل المصائب.. وإن حادثا ذا دلالة قوية وقع مؤخرا في "جاميب"، يجعلنا نميل إلى الاعتقاد أن هؤلاء الأخيرين هم الذين كانوا على حق، وأن الأهالي الذين علمناهم لا يعترفون إلا قليلا بهذه الهدية التي قدمناها لهم... ويبدو أن تسعة أعشار الطلبة الأهالي، والأسوأ من هذا، ثلاثة أرباع المعلمين من هذا الجنس يحملون عقلية التمرد هذه ضد مؤسساتنا)).

إن هذه هي النغمة المعتادة التي تعاد بمناسبة وبغير مناسبة. ويجدر أن نقول هنا، دفعة واحدة، ما يجب أن يقال، وأن نحدد وضعية كل طرف، ولنمسح كل هذه الخرافات التي حشوا بها رؤوسنا مما يسميه السيد "أندري فوكو"، متخذا من نفسه ترجمانا للمستوطنين، الكذب التاريخي، والكذب الاستعماري. يقول: ((الكذب التاريخي؟ إنهم ما فتئوا يرددونه بخصوص الذكرى

المئوية القادمة 1830-1930، إنهم يعلنون أن فرنسا قد جاءت إلى الجزائر لضمان"تحرير الدول البربرية، "البربرية"، إنها جيدة الوقع في خطب المنابر.. الكذب الاستعماري؟ وحسب هذا الكذب نكون نحن المستوطنين قد جئنا للقيام بأعمال البر(la philanthropic))، ونشر التربية داخل حقل مغلق لجنس عدو، حكمته قرطاجة سبعة قرون، وروما ستة، وحكمه الوندال والبيزنطيون قرنا، والعرب ثمانية، والأتراك ثلاثة، ومهمتنا الأولى هي أن نعيد تعليم هذه الأرض المعذبة كيف تتعبد، حسب لا أدري من الطقوس الإنسانية، هذه الأرض التي لا يعلم شقوقها وارتداداتها إلا ثناياها، فيا لها من حماريات))[1].

هل من الضروري أن نسخط؟ إن السيد "فوكو" يقدم هجوما شديدا في ساحة مفتوحة، وهو كما يبدو لي لن يقنع أحدا، فالاستعمار هنا مثل ما هو في مكان آخر. لقد منحت أوروبا نفسها حق قتل الشعوب الضعيفة من أجل مكانة مجدها وحاجة صناعتها وتجارتها، هذا هو الاستعمار أو التغلغل المسالم الذي تسومح بشأنه بسبب خلافات الدول المتحضرة. ولكي يبرر الغرب غزوه، وهو يجر من ورائه مدافعه، متبوعا برجال بنوك جشعين، وبعالم بأكمله متعطش للربح والكسب، راح يتحدث عن الحضارة، وعما يعود بالخير على الأهالي.

إن في هذا لكذبا مجانيا.. إنه لا يخطر على بال أحد، مثلا، أن إنكلترا التي حركها فجأة عطف غير محدود على الهنود الصغار، تستنفذ قواها في الشرق لأغراض إنسانية، مثل مسيح على الصليب. وهل يمكن لنا أن نذكر أيضا الأهمية التي يمكن أن يكون الوزير "دو بولنياك" قد أولاها لصغار القبائل، أو للصغيرات البدويات في شمال إفريقيا لتبرير غزو الجزائر؟ وعليه، فلا ينبغي أن نأخذ إلا الحقيقة التالية: إن أوروبا المسيحية والصناعية قد أعطت نفسها الامتياز باستيطان بقية العالم، وهذه الظاهرة تدخل ضمن دائرة الغزوات الإنسانية الكبرى في كل العصور، وقد كان هذا الاستعمار، من بعض الوجوه، رجوعا إلى الزمن الذي كان فيه للسيف قوة القانون.

---

1) أندري فوكو "كانديد" بتاريخ 26 مايو 1927.

ولا نبحث بعيدا عن الأسباب التي دفعت فرنسا إلى النزول بسيدي فرج، فقد صارت الجزائر، الأرض المسلمة، صيدا بالنسبة للدول الأوربية منذ اليوم الذي تنكر فيه ورثة خلفاء بغداد لواجباتهم ومسؤولياتهم. إنه لا يصح أن نتسلى بـــ "السباق" عندما تكون علينا مسؤولية ثقيلة لإدارة بلد، وتحسين وضعيته الاجتماعية. هوذا الإجرام الذي ضربنا به، حسب المبدإ الإنجيلي الذي يقول: ((سنعاقب في شخصنا أو في ذريتنا على ما اقترفناه من جرائم في هذا العالم)) فالأخطاء يجب دفع ثمنها. وبالتأكيد أن الدرس كان شديد الوطأة. أي انحطاط يمكن أن يقاس بانحطاطنا؟ لقد كان الحكم الإلهي صارما، فلنقبل به، ولا نتهم أحدا بمصائبنا إلا أنفسنا، ولنعمل على إصلاح أخطائنا والتكفير عنها. ((إن آلام الأبناء هو أن يعوضوا عما بدر من الآباء في هذا العالم وفي الآخرة. إن علينا أن نكفر الذنوب التي لم نرتكبها، من حيث أننا استفدنا من فضائل لم نكن نملكها))[1].

في الوقت نفســـه لابد من رفض الكتـــابات المغرضة التي تخص جزائر ما قبل 1830. لقد قيل عنها إنها بلد أفنته المجاعات والحروب الداخلية، وهذا غير صحيح بالمرة. لقد احتفظت لنا المرويات الشفوية بحكايات عما لا يعد من مطامير القمح، والجرار الكبيرة للزبدة، وأثواب الصوف، وقد روى لي جدي أن كل بيت كان يملك على الأقل حصانا، وقطيعا من البقر يتألف من عشرين إلى ثلاثين رأسا. وهذه الأرقام لا تبدو مبالغا فيها أبدا عندما نفكر في المراعي الشاسعة التي كانت متوفرة آنذاك، وقد أكد ضباط الحملة الفرنسية في العديد من المرات وجود هذه الثروات. لقد تنقل المارشال "دو سانت آرنو" على ظهر حصانه عبر البلاد الجزائرية طيلة خمس عشرة سنة، وتحدث عن ((مستودعات حقيقية من الخيرات، وعن بلاد غنية جدا، وأحراش جميلة، وجنائن من أشجار البرتقال، وأشجار المشمش، وعن آلاف من أشجار الزيتون))، ولا بد أن نصدقه، وإلا كيف نفسر هذه المقاومة العنيدة من قبل

1) بول بورجي "المهاجر".

القبائل والفرسان العرب، الجاهزين دوما، عند تلقي أدنى إشارة، لقتال جيش مهول، قادم من أوربا؟

أما بخصوص الحروب الداخلية، فقد كانت بالفعل، جرحا كبيرا. لقد كانت القبيلة في الهضاب العليا هي الوطن، ومعه القبائل الحليفة والقبائل العدوة، وكانت الحروب كثيرة الحدوث، غير أنه، مع هذا النظام، لم يكن هناك إلا الخصال الحميدة في هذا الوطن الصغير. لقد كانت السرقة والكذب والخيانة أشياء غير معروفة، بينما كان التضامن، والشجاعة، وروح الفروسية هي السائدة، وهي الفضائل التي لم يعد لها وجود تقريبا في يومنا هذا، وتستحق منا البكاء عليها.

وفيما يخص قبائل الشريط الساحلي الصغيرة، فإن الحروب بينها كانت بالخصوص -كما يشهد عليها من شاركوا فيها- مناسبة لإحداث الكثير من الضجيج من أجل لا شيء. ونستطيع أن نؤكد أن حوادث حافلات النقل اليوم تحدث من الضحايا أكثر مما كانت تحدثه تلك الحروب.

وعلى العموم، يمكن القول أن عددا كبيرا من فلاحي فرنسا، دون أن نتحدث عن فلاحي وسط أوروبا، كانوا سيغبطون الفلاح الجزائري على الظروف التي كان يعيشها، فقد كان يعيش عيشا بسيطا، ودون رفاهية، ولكنه كان يعيش عيشا رغدا، وما كان يفتقر إليه هذا المجتمع هو حكم مركزي، قائم على مبادئ الأمة. فمن هذه الناحية كان الإبريق مهشما، وإدارة البلاد لم تكن تفعل شيئا من أجل إصلاحه، ومن هنا سادت وضعية غير واضحة ومتوقفة.

وفي سنة 1830 جاءت فرنسا لتغير كل هذا، وحققت باريس ما أهملته الآستانة. ولقد كان النجاح كاملا، وهذا ينبغي أن يقال. إن للجزائر اليوم إدارة، ولها وحدتها الترابية، وسوف يسمح لها دستورها بالتقدم، حتى وإن كان فيه نقص، غير أن الاستعمار، سواء أكان رومانيا أو فرنسيا، فإنه في الأساس يشـــكل هيمنة، أما مع الإسلام فقد رأينا أن هذه الأرض لم تفقد

شيئا من مظهرها، ولا من شخصيتها، لقد أصبحت مسلمة ولا شيء أكثر، مثلها مثل اليمن أو مصر على سبيل المثال، وعلى هذا النحو ساهمت في ازدهار المثل الأعلى المشترك، وفي العمل المشترك، وكان لها قادتها العسكريون، وملوكها، وعلماؤها، وشهداؤها. إن تاريخها شبيه بتاريخ كورسيكا بالنسبة لفرنسا. أما الاحتلال الفرنسي فعلى العكس من هذا، لقد أفقدها شخصيتها، لم تعد إمـــارة ولا مقاطعة، ولكنها أصبحت مستعمرة، و لم نعد نحن أجانب ولا فرنسيين، ولكننا أصبحنا رعايا، بمعنى أفرادا أقل شأنا بالنسبة للأوروبيين الذين نزلوا في بلدنا.

إن فرنسا الثورة تعلم ذلك، ووفاء منها لمبدئها في الحرية أمام هذه الوضعية المتناقضة -التي مازالت شعوب أخرى تلجأ فيها إلى الضغينة- تنزع إلى تحويل هيمنتها إلى رسالة تمدينية، وتقول لنا: ((لقد نزلت في هذا البلد بالقوة، وقد صنعت القوة غالبين ومغلوبين، وإنني أستطيع أن أحتفظ بحقوقي، حقوق الغالب القديمة، وأن أطاردكم، وأن أجعلكم برابرة، وأن أمنع مدارسكم، وأن أغلق مدارسي في وجوهكم، وأن أنكل بكم. إن لدي قوة هذا البلد، وأستطيع طوعا أن استعبدكم أو أطوركم، وبدوركم تستطيعون أن تحافظوا على حقوقكم كمغلوبين، وأن تذكوا في بيوتكم الحقد على مضطهدكم. حاولوا أن تتحرروا بكل الوسائل، بالخداع ، والخيانة، والتحالف مع الأجنبي.. ولكن، لنكن بالأحرى أصدقاء، إنني أود أن أكون قدوة لكم، والدين لن يفصل بيننا. لنحكم على الرجال من خلال أعمالهم، ولنترك الله وحده يحكم على عقيدهم. سوف أحترم وطنكم الروحي. بالتأكيد أن الماضي يمثل نصف قرن من الحداد، ولكن سنمحوه بقوة الرفاهية والسعادة والعدل، إذ ماذا تمثل خمسون عاما في حياة بلد وحياة شعب؟ (...) سوف تستفيدون مني، وسوف أستفيد منكم، سوف أفتح لكم مدارسي وكلياتي، وسوف أنظم مجتمعكم، وفي هذا مستقبل أكيد للسلم والعمل والحرية بالنسبة إليكم، سوف أصنع منكم رجالا جديرين بالمسؤولية. انظروا إلى تاريخي: لقد أشرفت عبر

العصور على ألوان من الشقاء، ودائما كنت أخلص الشعوب من الجهل أو الاستعباد، فثقوا بي، وأعطوني أيديكم)).

هذا هو الصوت الذي سمعناه على مقاعد المدارس، وقلنا لأنفسنا: ((ما أهمية ورقة التصويت، وما أهمية الحريات السياسية للساعة الحاضرة، إن ما يعتد به إنما هو ألوان الحياة الإنسانية المتعددة التي تتوحد في محراب المعرفة والسلم والأخوة، إنما هو المستقبل)). وبكل إخلاص رحنا نعمل ونأمل ونحب. لكن -لأن هناك "لكن"- هناك من أتى واحتل المكان بين فرنسا وبيننا، إنه المستوطن الفرنسي، والإسباني، إنه المستوطن القادم من نابولي، إنه اليهودي، إنه المالطي، إنه كل هذا المجتمع الجزائري المكون من أناس قدموا من جهات الأرض الأربعة، ليعيشوا عيشا رغدا. إن هؤلاء الناس هم الذين كونوا ثروات عملاقة، ويتحدثون هنا حديث الأسياد. إنهم كل هؤلاء الفرنسيين الجدد الذين يشكلون المستعمرة، الذين لم يكونوا حاضرين في "سيدي فرج"، ولا في "المقطع"(*)، و لم يموتوا بالحمى في سهل المتيجة، كما لم يسيلوا دمهم في أي مكان، هؤلاء، وهم ينعمون بالثروات والامتيازات، هم الذين يرهقوننا باحتقارهم لنا وبحقدهم علينا.

إن أفضل عناصر هذا المجتمع الذي نراه يتألب ضدنا، كانوا طريدي البؤس من أوروبا. وإننا، إذا نحن تصدينا للحديث عن فضلنا عليهم، فإن ذلك يعني الحديث عن تاريخ الاستعمار في الجزائر، وسيكون علينا حينئذ أن نكتب كتابا بأكمله، ولذلك نكتفي هنا بالتذكير فقط أن فرنسا كانت قد حمت بقانون 1851 وبـــ "السيناتوس كونسول" لسنة 1863 ملكية الأهلي، ولكن المستعمرة، بالعكس من ذلك، انتزعت منا ملكيتنا، وكانت فرنسا قد أقرت مبدأ تعليم الأهالي، وهو ما شرع في إنجازه سنة 1890، على يد المأسوف عليه "جانمير"، ولكن المستعمرة كانت معادية لهذا التعليم. وكانت فرنسا قد

*) إحدى المعارك الشهيرة في المناطق الوهرانية بين الفرنسيين والأمير عبد القادر، وقد انتصر فيها الأمير انتصارا مدويا.

أسست قانون الخدمة العسكرية للأهالي، قاصدة بذلك إشراكهم في حياتها الوطنية، فكانت المستعمرة معادية لهذه الخدمة، وكانت فرنسا قد أعطتنا قوانين 4 فبراير 1919، فكانت المستعمرة معادية لهذه القوانين، وتفكر فرنسا في تمثيل الأهالي في البرلمان ولكن المستعمرة تعادي هذا التمثيل، وكانت فرنسا قد عملت على تنظيم المساعدة للنساء عند الولادة، فكانت المستعمرة معادية لهذه المساعدة، وكانت فرنسا قد فتحت بلدها للعامل الجزائري، فكانت المستعمرة معادية لنزوح هذا العامل إلى فرنسا. قد لا يكون من غير المفيد أن نكرر القول هنا ما هي مساعدة النساء عند الولادة، والرضع، التي لا يرى بعضهم فيها إلا حماية منصفة للطفولة، للفلاح الحق فيها من حيث أنه يدفع الضرائب، وهي شيء أكثر سموا من هذا.

يوجد هناك دواوير مثل الدوار الذي ولدت فيه، لا يعرف الأهلي فيه من فرنسا إلا حارس الغابة، والدركي، والخزناجي(*)، أي قابض الضرائب، حيث يقوم الأول بتحرير مخالفات له لرعيه بهائمه في غابات الدولة، ويضع له الثاني الحديد في يديه، والثالث ينزع منه دريهماته التي اقتصدها بصعوبة. بمعنى أن فرنسا ليس لها ممثل يحبه الناس. وبفضل الحاكم العام السيد"فيوليت"، أصبحت الممرضات والأطباء ينتقلون، لأول مرة، وباسم فرنسا، إلى هذه الدواوير، وبأيديهم، ودون وسيط، يقدمون الإسعافات، ويضمدون الجروح، ويغطون العراة. فهل قدروا مدى التأثير الواسع لهذه السياسة؟ لكن عما قريب ستكون يقظة وعي الفلاح الجزائري، وستكون نهاية سوء فهم طال أمده قرابة قرن، وهذا ما ظلت المستعمرة ترفضه بدعوى دراسته دراسة إضافية. آه.. فماذا لو طلب منها الموافقة على قروض لتوسيع مرسى مدينة الجزائر، إذن لرأت أن لا جدوى من إبداء اللجنة رأيها في الطلب.

وهل مازلنا نذكر أيضا تلك المكيدة التي حيكت ضد العامل الأهلي المسكين، تلك المكيدة التي توجت بالمنشور الوزاري الصادر في 10 سبتمبر 1924؟ فقد

---

*) هكذا بلفظها في الأصل. (المترجم).

قدمت فيها دعوى مصلحة العامل نفسه وحمايته من الأمراض ومن أخطار الحياة الجديدة، وطرح طبع الإجرام في بني "سيدي"، والخطر على فرنسا من استقبالها لهذه البؤر الموبوءة. واعترضت جريدتا "لاديبش ألجيريان" و"ليكو دالجي" على النداء المتأخر الذي أصدره المندوبون المسلمون بهذا الشأن في 15 فبراير 1925 بتقديم الحجج السالفة نفسها، ودللتا على شرعية المنشور (ولنسجل هنا كيف أن جريدتين ذات توجهين مختلفين تتفقان في الرأي عندما يتعلق الأمر بالأهالي).

والحال أن المجتمـــع المسلم كان عاجزا أمام كل هذه المشكلات الكبرى، بما يعانيه من ضعف في نفسه، وبافتقاره إلى التنظيم. أين الصحـــافة الحرة القوية التي ترافع من أجل قضيته؟ من يسمعه؟ وحينئذ... وحينئذ تستطيع "لاديبش ألجيريان" أن تبرهن بشكل جيد على شرعية المنشور، ونستطيع نحن أن نقتنع جيدا بذلك. والواقع أننا اقتنعنا به، ولكن مع بعض التدقيق في العبارة، فقلنا في أنفسنا بأن ذلك هو"شرعية اللاشرعي". إن هناك فعلا مورثا يحمله الإنسان -الإنسان الحر- في نفسه، أقوى من مناشير الوزارات، وهو مورث مصنوع من مفهوم العدل، ومن الضمير الواعي بالعدل والظلم. إننا نشعر بكل وضوح بأنه لا يحق لأي كان أن يمنع الأهلي المسلم من أن يذهب لكسب عيشه حيثما استطاع.

ولقد أثبتت لنا الأحداث، ويا أسفاه، أننا كنا على حق. لقد أصدروا المنشورات، وافتعلوا الخصومات بلهجات متباينة، وبرهنوا عما أرادوه، وذات يوم وقعت الواقعة الرهيبة التي لقي فيها أربعة عشر عاملا بائسا مصرعهم، بعد احتضار طويل(*)، وبعد أيام من ذلك أعلن مجلس الدولة عدم شرعية منشور"شوتون". ويعتقد أن في إصدار بعض الإدانات للمنشور عقاب لمرتكبي الجرم، غير أن المجرمين الحقيقيين لا يوجدون هناك، إنهم أولئك الذين خططوا للعملية الإجرامية، ودعموا بدافع من الحقد العنصري، ومن المصالح، ما لا

*) ما تزال الحادثة المأساوية التي راح ضحيتها أولئك العمال الأهالي عالقة بالأذهان، الذين تسللوا إلى باخرة "سيدي فرج"، وعثر عليهم مختنقين في مخزن الفحم.

يقبل الدعم. ترى، ألا يتحقق العدل الإلهي وتأتي ذات يوم حشرجات ضحاياهم لتعكر عليهم صفو نفوسهم؟

وماذا نقول عن المضايقات اليومية التي يلاقيها الأهلي على الأرض التي ولد فيها، وفي الشارع، وفي المقاهي، وفي أدنى مظهر من مظاهر الحياة العادية؟ الحلاق الذي يغلق الباب في وجهه، والفندق الذي يرفض أن يؤجر له غرفة. ففي مدينة الجزائر على سبيل المثال، لا يجد الطالب المسلم مسكنا يقيم فيه إلا بصعوبة، ولولا بعض الأسر -وهي الأسر نفسها دائما- لكنا مضطرين إلى الإيجار الباهظ في بعض الفنادق، فهم لا يؤجرون لـــ "البيكو"(*)، لأن هذا المجتمع -وهذا ينبغي أن يقال- قد وجد أن عبارات: عربي، وقبائلي، وميزابي، ومسلم، وأهلي، ليست متنوعة بما فيه الكفاية لكي تدل علينا، فأوجد ما هو أفضل، فنحن "بيكو" و"راطون"، ولا أدري أيضا؟ و"الراطون" هو تلك الدويبة المخاتلة التي"تزور" خم الدجاج حينما يغيب عنه الحارس الوفي، أو يكون مربوطا(**). ولكن، من يلعب هذا الدور في الجزائر؟ هل هو نحن، الضحية النبيلة المطاح بها في معركة مشروعة، مدعومة بقوى غير متكافئة، أم أولئك الذين تكالبوا على جثثنا حين بلغهم صدى هزيمتنا، عندما كبل الاستعمار أيدينا؟ أين كانوا هم حين كان أهلنا يسقطون بشجاعة في سيدي فرج وفي غيرها؟ وأي موت؟ وهذه صفحة من الحملة، ويتعلق الأمر بسقوط مدينة الأغواط في 2 ديسمبر 1852: ((كان القتل بشعا، فقد كانت البيوت وخيم الأجانب، المنصوبة في الساحات العامة والشوارع والأفنية مليئة بالجثث. وحسب إحصائيات غير دقيقة، وبالاستناد إلى معلومات جيدة، يقدر عدد القتلى بـــ 2300 رجل وامرأة وطفل، أما عدد الجرحى فقد كان شيئا هينا، وهذا مفهوم، لأن الجنود الذين كانوا في حالة هياج من أن يصطادوا من كوة، أو من باب موارب، أو من ثقب في السقف، كانوا يهجمون إلى الداخل، ويقتلون بلا رحمة كل من يجدون بها.. أتعلم؟ ففي تلك الفوضى،

*) أصل الكلمة إيطالي فيما يبدو، ومعناها: التيس، كناية على الشعر الأسود، وربما على الغباء، أو عليهما معا. (المترجم).

**) يقصد الكلب. (المترجم).

وغالبا في العتمة، لم يكونوا يهتمون كثيرا بتمييز السن أو الجنس، لقد كانوا يضربون في كل اتجاه، وبدون تحذير))[1].

وهاهي صفحة أيضا من حرب الريف، حيث اتبعت الطريقة نفسها، فقد كتب السيد "بول أودينو" المبعوث الخاص لصحيفة "لوبوتي جورنال" في عدد 5 يونيو 1925 ما يلي: ((.. ولكننا كنا بالخصوص خلف هؤلاء المدافعين الذين يريدون الموت. و لم يستطع بعض الأفراد منهم أن يقاوموا القصف الشديد فهربوا، ولكن بعد أن ذهب هؤلاء لم يبق إلا الأقحاح من هؤلاء الجبليين البؤساء، الذين كانوا يصرخون: لا إله إلا الله، والذين لو أتيح لهم طلب السلامة مقابل"الاستسلام" لما طلبوها، فبأيديهم المتشنجة كانوا يرفعون إصبعا متصلبة نحو السماء في لحظة الموت لينطقوا بالشهادة. كان الهجوم دمويا، صوت النفير، والقناصة، واللفيف الأجنبي، يسقطون على بعد عشرة أمتار من الخندق.. وفي الأخير أعطتنا نوعية جنودنا وقوة آلياتنا التفوق. كانوا "ينظفون" السواتر بالقنابل، حيث كان المدافعون يقاتلون إلى آخر نفس، وحينئذ كنا نحصي جثثهم، والأسلحة المحطمة التي تركت في ساحة المعركة. كان نصرا رائعا)).

هكذا متم يا أجدادي، وعظامكم التي لا توابيت لها تغذي اليوم العناقيد الصهباء في حقول العنب الإفريقية، فلترقدوا.. ارقدوا بسلام، على أمل أن سكة الفلاح وهو يقلب ترابكم لن توقظكم.

ويبدو أن القتل لم يكن كاملا، وأن النهب والتخريب قد مورس بقدر غير كاف: ((.. إننا لم ننته بعد مع هؤلاء.. هؤلاء المعربدين، اللصوص، السفلة. كان علينا أن نفنيهم مثل الهنود الحمر.. الكسالى، جميعا، جميعا))[2].

إنه لمن السهل أن نرغب في إفناء الناس عندما تكون الرشاشات في هذا الطرف، والبنادق الخشبية في الطرف الآخر، ولو كنا متساوين في السلاح

1) العقيد بان "رسائل أهلية عن الجزائر".
2) شارل كورتان "الغابة التي أكلت الإنسان".

لكنا أقل استعلاء، لأننا نحن أيضا نعرف كيف نموت، وقد برهنا على ذلك تحت أسوار "فردان"، وفي المغرب مؤخرا، عندما ذهبت فرنسا لنجدة أمة عظيمة لم تتمكن من السيطرة على حفنة من الريفيين، يكافحون من أجل استقلالهم، أما عن السرقة التي ذكرها أولئك الذين نهبونا وأفقرونا فإن الكلمة تبدو في أفواههم غير واعية، أو وقحة.

وعن العدالة.. لقد حملت فرنسا إلينا تشريعاتها وقوانينها، فهل تعرفون كيف يطبق من يكنون لكم العداء التشريعات والقوانين؟ راجعوا حوليات العدالة وسوف تعلمون. إن الأوروبي يستطيع أن يغتالنا وهو على يقين أنه لن يعاقب. كتبت جريدة "ليكو دالجي" تقول: ((من أجل خمسة وعشرين فرنكا كان مدينا له بها، قتل فحام إسباني عاملا أهليا، وخرج بريئا.. وثبت جرم المتهم باعترافه هو، مثل ما ثبت بتأكيدات صرح بها عدد من الشهود، وبكل معطيات المعلومات المنقولة.. وقد قدم المحامي عرضا للوقائع شديد البراعة، طالبا أن يوضع عامل التحدي الذي واجهه المتهم في الاعتبار، ورافع لصالح الدفاع الشرعي عن الذات، ووجه في النهاية نداء حارا، لا للرحمة فحسب، ولكن، وبالخصوص، لضمير المحلفين.. وبعد نصف ساعة من المداولات، عادت هيئة المحلفين بإجابة سلبية عن سؤال نية القتل، وبالنتيجة خرج "لورونزو" مبرأ الساحة))[1].

غير أن الموقف الأكثر استعلاء إنما هو موقف الإسرائيليين، الذين لم يفكر أحد أن يلومهم، أو يحسدهم على وضعيتهم التي هم أهل لها، سواء اكتسبوها بمرسوم، أو نتيجة لما يتميزون به من قوة العمل، ولكن أن يستعملوا هذه الوضعية لكي يمنعوا، أو يعرقلوا تطورنا، فهذا الذي يصبح التسامح معه غير مقبول. لقد صرح السيد الدكتور "أبولكير" مؤخرا في المجلس الاستشاري العام لمدينة الجزائر، بخصوص تمثيلنا في البرلمان، أنه ((إذا أراد الأهالي أن يكون لهم حقوق، فليس أمامهم إلا أن يتجنسوا)).

---

1) ليكو دالجي، 8 مارس 1928.

هذا هو الفرنسي الجديد، الذي ما توقف أجداده في الجزائر إلا لأنهم وجدوا أنفسهم فيها أقل اضطهادا من أي مكان آخر، وهو الذي حضر خمسين سنة من الكفاح والحداد و لم يكترث بها، وها هو اليوم يرفع لواء "جان دارك" ليمنعنا من دخول البرلمان الفرنسي، ويشير علينا بالدخول من الباب الضيق، أي التجنس(*). وإننا نتذكر نحن أن هذا التجنس كان قد طرح على الإسرائيليين ما بين 1863 و1871، فماذا أعطى؟ لا شيء. ولعله لهذا السبب ينصحنا الدكتور بولكير به.

لعله قد حان الوقت لوضع حد لهذه المهزلة، وأن نسمي الأشياء بأسمائها. إن العربي/البربري يعرف أين أصدقاؤه وأعداؤه. إن مجتمع الامتيازات هذا يكرهنا، ويكرر على كل من يريد الاستماع إليه أن الأهالي لا يحبونه، وأننا لا نعترف بالجميل، وأن تعليمنا ليس إلا "نغمة قديمة". إن أمنيته الأغلى أن نظل محتفظين بصف البهائم، في الوقت الذي يتحدث فيه براحة نفسية عن الاعتراف بالجميل، وعن نكران الجميل، وعن هديته التي كان يريد أن يهديها لنا. وأمام هذه الحفلة التنكرية، نفضل أن نرد عليهم بأشياء جدية، ونقول لهم: ((اغتنوا، من حيث أن الاستعمار هو صفقة مربحة، وأحيطوا أنفسكم بالنعيم والرفاهية. احكموا من حيث أن رغباتكم هي قوانين، واحتقرونا من حيث أننا صرنا فعلا قابلين للاحتقار، ولكن احترموا ذكرى الرجل الصالح "جانمير"، لا تشتمونا، وارحمونا بامتناعكم عن تقديم الدروس الأخلاقية للناس الشرفاء، لأن هذا لم يعد ينطلي على أحد، ولأننا نرى أن في هذا كفاية.

* * *

---

*) من الضروري أن نوضح هنا الفرق بين "التجنس" (La naturalisation) و"الاندماج" (L'assimilation)، وهما الصيغتان اللتان كانتا مطروحتين على من تتوفر فيه بعض الشروط من الجزائريين لاكتساب صفة "المواطن الفرنسي"، فالصيغة الأخيرة أي "الاندماج" معناها أن يحصل الفرد على الجنسية الفرنسية، ويصبح مواطنا فرنسيا يتمتع بجميع الحقوق المدنية، مع بقائه على دينه، وتمتعه بقانون الأحوال الشخصية الخاص به كمسلم، وهذا ما كان يطالب به معظم دعاة الاندماج من الجزائريين، ومنهم فرحات عباس، في حين أن الصيغة الأولى "التجنس" تعني تغيير الشخص ودينه ليصبح مواطنا فرنسيا مسيحيا، وهي الدعوة التي لم تجد لها صدى إلا لدى فئة قليلة جدا من الجزائريين. (المترجم).

لقد عرف عن الفرنسي أنه تحكمه بالأساس عقلية الألفة مع المكان، فهو ذلك المزارع الذي يحب أرضه الصغيرة، وهو ذلك العامل الذي يحب مدينته، وقد قابل المغامرات الاستعمارية على الدوام بعدم الاكتراث، غير أن الاستعمار أصبح منذ قرنين، لسوء الحظ ، عاملا قويا من عوامل التوازن الأوروبي، وقد أقدمت فرنسا على الاستعمار من أجل أن تضمن وجودها، وتكافح بالمزايا ذاتها أعداءها الخارجيين، وكان عليها أن تضع برنامج سياسة استعمارية مستلهما من تقاليدها ومن روحها، وهاهو ذلك البرنامج: ((تفرض فرنسا نفسها أولا وقبل كل شيء بحماية الأهالي وتقديم المساعدة لهم، وفي محاولات التنظيم الاجتماعي بمكافحة سوء التغذية والأوبئة ووفيات الأطفال، وبتربيتهم وتعليمهم حب العمل، واكتساب مفهوم التوفير والملكية، وبتطويرهم أخلاقيا واجتماعيا، وجعلهم رجالا أقوياء السواعد، متيقظي الأذهان، نبلاء المشاعر.

وبخصوص التطور الاقتصادي: ما هو الهدف الذي ينبغي أن نسعى إليه في هذا الاتجاه؟ إننا نود لمستعمراتنا أن تطور نفسها، وأن تسد حاجياتها بنفسها. إننا نود أن تصبح عنصرا في التوازن الاقتصادي، وفي الحياة الوطنية لفرنسا. وإذا كان مهما أن تكون كل العقول في فرنسا واعية بهذه التوجيهات، فإنه من المهم أيضا أن يشعر بها الأهالي أكثر فأكثر في مستعمراتنا، فبهذه السياسة سيحبون الوطن الأم.

أما بخصوص الأمم الأجنبية التي تنظر أحيانا إلى مستعمراتنا بعين الغيرة، فإنه لا بد من إفهامها بأن مستعمراتنا ترتبط بنا، بقلوبها تحديدا، ثم بمصالحها، وسوف تؤكد هي هذا، وإذا انتزعت قطعة من لحم واحدة منها، فإن كل المستعمرات سوف تهب لتدافع عن نفسها، بالدفاع عن فرنسا بأكملها)).

هذه الكلمات كان قد تفوه بها أحد النواب أثناء جلسة 22 ديسمبر 1926، وقد أعطتها تصفيقات المجلس بأكمله موافقة فرنسا كلها عليها. و سوف لن أذكر بعد هذا البرلماني إلا فرنسيا عظيما آخر، وهذا فيلسوف، وقد تناول

موضوع الاستعمار بصفة عامة. يقول: ((إن القيمة الإنسانية العظيمة تتمثل في الإنسان في حد ذاته، ولإصلاح الكرة الأرضية لا بد أولا من إصلاح الإنسان. فمن أجل استغلال الأرض والمناجم والمياه وكل المواد وكل قوى الكرة الأرضية، لا بد من الإنسان، كل الإنسان، والإنسانية كل الإنسانية، واختزال قسم من هذه الإنسانية أو إضعافه، أو بعبارة مختصرة: استعماره، فإن عملنا يكون موجها ضد أنفسنا))[1].

إن فرنسا هي جانمير المبجل، والسادة ألبان روزي، وموريس فيوليت، وفكتور باروكان، والسيدة بوجيجا، وجان ميليا، وأوجان جونك، وفكتور سبيلمان، ولكن فرنسا أيضا هي شعرية روح فرنسا كلها وقوتها، هذه هي فرنسا التي عرفتها على مقاعد المدرسة، والتي لم أعثر عليها عندما واجهت الحياة، هذه التي قادتني عبر كل المجتمعات الهمجية، والحروب الأهلية، والثورات، وميـــادين القتال، والحضارات، هذه التي قالت لي ذات يوم: ((احموا أنفســـكم من مرض قرنكم، من هذا التعلق المهـــلك بحياة الراحة غير المتلائم مع أي طموح معطاء. عليكـــم باختيار هدف سام مهما كانت مهنة حياتكم، وضـــعوا في خدمة ذلك الهدف ثقة لا تتزعزع، وهمة عـــالية، وتحلوا بالشجاعة..)).

أهذه هي فرنسا التي يفكر المثقفون المسلمون أن يطعنوها في الظهر؟ إنها لتهمة مجانية. إن الجزائري المسلم يحفظ الجميل، وهو في مستوى الوفاء. إن الأعراق الضعيفة وحدها هي التي تعزل نفسها في الحقد والحسد، وإن الجزائري يود التعاون. وإذا كان قد سقط في معركة غير متكافئة، فإنه يدرك أن أيا كان يدخل في معركة يمكن أن يعرف الهزيمة. واليوم تمد له فرنسا يدها وقد قبل -ويعرف عند اللزوم أن يتذكر ذلك- بحضوره في ميادين قتالها، بعمله في الإنتاج الوطني. وسيتذكر أيضا أوروبيي الجزائر، الفرنسيين والإسبان والإيطاليين والمالطيين، الأقوياء بثرواتهم -بدون أحكام مسبقة عنصرية- الذين

---

1) أناطول فرانس "على الصخرة البيضاء".

احتضنوه وخلصوه من عيوبه، فهناك داخل مجتمع معاد توجد أسر تعامل الأهلي معاملة عادلة، وتكافئه بمودتها، كما يوجد موظفون من متصرفين إداريين وقضـاة ومعلمين وأطباء وما إلى ذلك ، لم يتنكروا لمهمتهم الوطنية، وقد أنجزوا بالكلمة، على سبيـل المثال، مهمتهم العظيـمة كمربين. إنني أفكر بالخصوص في إخلاص معلمي وتشجيعهم الأبوي. هل هنـاك من المثقفين المسلمين من يستطيع أن يتنكر لهذه الكلمات التي قالها رسولنا الحبيب: ((أحبوا معلميكم حبكم لآبائكم))؟ إنني أتذكر كلمة قالها أخي الأصغر: ((إنني لن أذهب إلى الجنة لأن معلمي ليس مسلما، وسأطلب من الله أن يبعثه إليها في مكاني)).

إنها ليست -ربما - إلا كلمات طفل، ولكنها تترجم جيدا درجة اعتراف الأهلي بالجميل. غير أنه ينبغي أن نميز بين الاعتراف بالجميل وبين الضعة، فليس من طبيعتنا أن نعود من النافذة حينما نطرد من الباب، فنحن في نهاية الأمر في ديارنا، ولا نستطيع أن نذهب إلى مكان آخر، وهذه الأرض هي التي عاش منها أسلافنا، وهذه الأرض هي التي سيعيش منها أطفالنا، إنها لنا، سواء كنا أحرارا أم عبيدا، ونحن لها، ولن يرضيها أن تتركنا نموت، إن الجزائر لا تستطيع أن تعيش بدوننا، ونحن لا نستطيع أن نعيش بدونها، ويخطئ من يحلم لنا بمستقبل كذلك الذي عرفه هنود أمريكا، إن العرب/البربر هم الذين حددوا مصير الجزائر منذ أربعة عشر قرنا، ولن يتحقق مصير الجزائر بدونهم، وإنه لمن الأمور العاجلة أن تفكر فرنسا في هذا.

كنت منذ بعض الوقت في شرفة إحدى المقاهي، وكان يجلس إلى طاولة أمامي إسرائيليان، وفي لحظة من اللحظات عبر الشارع أحد رؤساء العرب، وهو مندوب مالي(*)، فقال أحدهم: ((يا لهيئته النبيلة، فرد عليه الآخر: ولكن هذا لا يغير من كونه "بيكو" وسخا)). ومنذ عامين كنت قد تعرفت على أحد العمال الصربيين، وكنا نتناول أكلنا في مطعم واحد، فقابلته ذات يوم في

*) كان يطلق على المنتخبين في المجالس الولائية اسم المندوبين الماليين. (المترجم).

الشارع بصحبة عمال آخرين فرنسيين، فحياني، وفي ذلك المساء بالذات أبلغني استغرابه، إذ قال له رفاقه: لا ينبغي أن تحيي "هؤلاء الناس" مهما كانت وضعيتهم الاجتماعية.

إن هذه الأفكار، التي أذكرها بالمصادفة من ذكرياتي، تتجاوزني وتتجاوز الزعيم الأهلي، إنما تترجم حالة شعور عام، وعقلية يصطدم بها العربي/البربري في كل خطــوة. وفي سياق هذه الظروف يأتي السيد "موبرا" ليتهمنا بأشنع تهم الجحــود، وله أن يلهو بهذه "الشطحة"، فهذه الوضعــية تتجاوزه في العمق هو أيضا، إن المسؤول الأكبر عنها هو فرنسا. ((إن فرنسا، وطوال سبعين عاما، قد سلبت وطردت، وطاردت العرب من أجل إعمار الجزائر بالإيطاليين والإسبان))[1].

وعليه، فإننــا نتوجه إلى فرنسا هذه لنقول لها: ((أعيدينا من أجل أن نستعيد كرامتنا، أو استعيدي مدارسك)). فعلا، ما فائدة التعليم بدون الحرية التي تترتب عنه؟

* * *

---

1) أناطول فرانس "على الصخرة البيضاء".

لقد اضطررنا لكي نرد على مناوئينا أن نعالج بعض المسائل كما تتمثل لنا، وقد أظهرنا أثناء عرضنا للوقائع، وأثناء مناقشتها، نيتنا الحسنة وإخلاصنا، وندعي أننا قد عبرنا عن أفكارنا بوضوح، نابذين أنصاف الكلمات والمظهر الخادع والمعسول، الذي يخفي في الغالب الأحقاد الدفينة، فنحن لا حقد عندنا. لقد قيل ويقال -كيفما اتفق في معظم الأحيان- عن التعصب الإسلامي، وعن سيكولوجية المسلم، وعن أخلاق الأهالي، وعن عاداتهم، وقد قدموا المثقفين الشبان على أنهم جيل من الثوريين والقوميين والناكرين للجميل، بل لقد وصفونا، كما مر معنا، بـ "الأطفال الماكرين، وقد رددنا أن تعصبنا لم يخلق إلا لأنهم أرادوا خلقه، وعندما تعمقنا المسائل تبين لنا أن الإسلام انتشر بسرعة غير مقصودة سلفا. وقد رأينا كيف ألصقت بنا صفة الشيوعية بفعل تضامني شرعي تماما، ولكوننا نتألم عندما يكون جزء منا يتألم. كم مرة سمع الأهلي الذي تكون وضعيته الاجتماعية قريبة من وضعية الأوروبي هذه العبارة: "إنني لا أتحدث عنك أنت بالطبع"، كأنما هناك فرق بينه وبين هؤلاء العراة الذين يملؤون الشوارع المترفة لمدينة الجزائر.

آه، لو كان في استطاعتي مثل الأنبياء المصطفين، أن أقبل هذه الجروح، فأحدث المعجزة ويلتئم الجرح. إننا لا ننكر وسطنا الاجتماعي ولا جنسنا ولا ديننا، ولا ننكر أيضا بؤس إخواننا؛ إن ماسح الأحذية الصغير هو أخي، وله حقوق علي، وعلى ثقافتي وعلى وظيفتي وعلى سعادتي، إنه لا يمكن تصور تلك السعادة بمعزل عن سعادته.

وقد بينا بعد ذلك أنه إذا كان هناك برنامج محدد للاستعمار في فرنسا، فإنه هنا في الجزائر -وضمن فوضى السباق نحو هيمنة المال- لا يوجد إلا ليل أسود. وبمعزل عن الشيوعية، وعبارة "الجزائر للجزائريين"، وسياسة "إفريقيا اللاتينية" مع هيمنة العنصر الأوروبي، فليس هناك في أغلب الأحيان إلا

الخطابات الأكاديمية، والشتائم غير المستحقة. إننا لم نصدر أي حكم على البرنامج الشيوعي، الذي يهدف إلى تحطيم نظام اجتماعي قائم، وهو ما يتجاوزنا، أما المسائل الجديرة بالدراسة في هذا الموضوع فهي التالية:

1- الدولة الشيوعية هل هي قابلة أن تتلاءم مع المجتمع المسلم؟

2- ماذا جرى للمجتمعات الإسلامية التي تعيش في البلاد الشيوعية؟

3- هل الشيوعية في الواقع القائم قادرة على هدم المجتمع المسلم؟

أما بخصوص مفهوم إفريقيا اللاتينية، فإننا لم نتردد في التنديد به، باعتباره "يوطوبيا" لن تكون نهايتها -بلا أدنى شك- إلا خيبة دامية. ومثل ما فعل السيد"لوي برتران" قمت بزيارة الخرائب الرومانية، ورأيت جدي في سراب أيام سبتمبر الحارة، هذا الشيخ البربري، رأيته منحنيا على مطحنة، تحت شتائم وسياط الروماني.

السيد لوي برتران، وباسم التضامن المسيحي اللاتيني، يريد أن يبعث الروح من جديد في الإمبريالية الرومانية، ويريد أن يحيي مخزن حبوب روما الذي يتغذى على عرق قطيع العبيد، وأن يضع الصليب مكان الهلال. ولقد رأينا أن كيفية الاستعمار هذه ليست غير عادلة وحسب، ولكنها مستحيلة. هي غير عادلة لأن الجزائر أرض الإسلام، وتحدها من الشرق والغرب على السواء العقيدة الإسلامية. وهي مستحيلة لأن الاستعباد المفروض على الشعوب الحرة سيتبدد إن عاجلا أو آجلا في الثورات والفوضى.. ولكن ها هو السيد لوي برتران يضع في الموازين تضحيات الاحتلال، ويلجأ إلى الدليل الذي كان من الممكن أن تقدمه ألمانيا لكي تبقي مقاطعة الألزاس ألمانية: ((حتى ولو كنا خمسة عشر ألف فرنسي فقط، فإننا من أجل هؤلاء الفرنسيين قد غزونا الجزائر. فالظاهر أننا من أجل أن نقدم لهم بلدا رائعا خلقناه بأنفسنا كهدية، ترك آلاف من الجنود الفرنسيين عظامهم في الأدغال، ومات بالحمى أجيال من المستوطنين في مستنقعات المتيجة والتل)).

إن الأمر لم يكن يتعلق إلا بشارل العاشر ووزيره، وإلا لكان قد مات هؤلاء الجنود من الشيخوخة في وطنهم، وبالتأكيد أن فلاحنا ما كان سيذهب ليقلق راحتهم. ويبقى أن المائة ألف جزائري مسلم، الذين "تركوا عظامهم" في سهول "المارن" وفي سوريا، وفي جبال الريف، وآلاف المسلمين الذين ماتوا بالحمى في مدغشقر أو في "التونكان" (الفيتنام) من أجل فرنسا العظمى، هم تعويض كاف على ذلك. ولقد عرضنا في آخر المطاف لمسألة الاعتراف، وللمفاهيم الحالية لفرنسا التي تقول: الاستعمار معناه التحضير، وقلنا إنه، بمعزل عن هذه المفاهيم، لا شيء يربطنا بفرنسا، باستثناء الدم المراق. وقد دأب مناوئونا على المقابلة بين هذه المفاهيم وعدم تلاؤم الإسلام مع التقدم الحديث، أما الأقل عدوانية فإنهم يفكرون أنه لا بد وقبل كل شيء، من إصلاح دين وعادات هذا البلد.

وعلى العكس من هذا، لا بد من احترام ما يجب احترامه بكل نزاهة، أي احترام القوة المعنوية للإسلام، وقانون الأحوال الشخصية للمسلم، وشخصيته. إن هذا ليس أمرا سهلا مع الأسف، لأنه لا يمكن أن نحترم ما لا نؤمن به، ولا أن نفهم بسهولة ما لا يشكل جزء من ذاتنا. وعلى أية حال، يبدو واضحا الآن أن حقوق التحضر تقف عند عتبة حقوق الشخصية الإنسانية، وهذا ما جعل بعضهم يقول: إنه لا توجد هناك حضارة، ولكن هناك حضارات. إن العلوم الحديثة التي تقوم عليها المجتمعات، لا تنتج حضارة ولكن تنتج حضارات. إن العلوم الحديثة لا تنتج بالضرورة الحضارة نفسها، إذ هناك فروق ملموسة بين المجتمع الفرنسي والإنكليزي، والألماني، وهي فروق تترجم في إنجازات خصوصية في الفن والأدب والسياسة والقوانين.

إن القوانين في فرنسا -حتى نكتفي بمثال واحد- تدخل عامل الظروف المخففة في الإجرام، ولكن القوانين في إنكلترا لا تدخلها. وهناك نموذج خاص يقدمه اليابان، بعد التطور الذي حدث فيه، وهو أنه بالرغم من مخابره وجامعاته، قد حافظ على عاداته وتقاليده وقوانينه. ويستنتج من هذا أن

عادات شعب ما تتلاءم دائما مع الحضارة، وكل ما هنالك هو أن نعطي لـ "قوة التحضير" شكلا يتلاءم معها. إنها شكل من أشكال التطبيب، إذ من المعلوم أن الطب نادرا ما يحيط الوصفات التي يقدمها بتركيباته الثابتة، إن تركيبته الحقيقية تتمثل في أنه ((لا توجد هناك أمراض، ولكن يوجد مرضى)). إن هذا الطب يخضع لكل فرد دواءه الخاص به حتى يجعل منه دواء كامل الفعالية. لا بد أن يكون هذا هو مثل الذين يجدون أنفسهم أمام مؤسسات اجتماعية لشعوب يكونون مكلفين بنهوضها الاجتماعي، فمهاجمة هذه المؤسسات، باسم مؤسسات أخرى تكون قد أخذت من جهة أخرى بطريقة اعتباطية، باعتبارها قبل أي شيء نماذج يحتذى بها، إنما هو تعطيل للتطور، ومضيعة للوقت، وهذا هو السبب في سرعة تطور الشعوب التي تمتلك مصيرها بالقياس إلى الشعوب المستعمرة.

وهناك سؤال آخر ينبغي طرحه، وهو: هل هناك مصلحة في دفع من ليسوا أوروبيين إلى اكتساب صفة الأوروبيين، حتى في أبسط التفاصيل؟ هل هناك مصلحة مثلا في صنع أفراد يلبسون سترات أوروبية ويدخنون السجائر أمام أقداح البيرة؟ إن المسألة يمكن أن تطرح بشكل مغاير: هل من المفيد لليابان مثلا، الذي هو عرضة في معظم الأحيان للهزات الأرضية، أن يستبدل بيوت الخشب بالهندسة الباريسية؟ وبناء عليه، فإن ما لا يمكن نكرانه أن إصلاحا ما يكون مصدر رفاهية وتقدم هنا، يمكن أن يأتي بنتائج سلبية في مكان آخر.

لقد قيل هذا: إن لكل شعب ولكل بلد قوانينه التي تنبثق منه مثل ما تنبثق الثمرة من الشجرة، وحيث أن هذا البلد لم يتخل عن الإسلام، فهذا معناه أن الإسلام يلائمه، فهل يعطل تقدمه من أجل هذا ويرفض أن يعطى وسائل العمل من أجل رفاهيته وازدهاره؟ إن الحضارة تتجاوز -كما نردد ذلك باستمرار- توافق زواج أو طلاق ما، إن الحضارة هي العمل داخل نظام، إنها الدفاع عن المجتمع ضد الآفات التي تتسبب في فساده، وضد تعاطي المشروبات الروحية، وضد الدعارة، وضد المجاعات، وضد الأمراض. إنها ضبط العمل

بقوانين من أجل ثراء الجميع، إنها المساواة واحترام حقوق كل فرد. أن نتحضر معناه أن نعرف واجباتنا وحقوقنا، ومعناه أن نتعلم يدويا وعقليا. إنه ينبغي أن لا يغيب عن ذهن الاستعمار الفرنسي الذي يحكمنا منذ قرن أن التحضير هو أن يحقق هذا الكل لا غير، وأن الأخلاق والقوانين سوف تتلاءم معه من تلقاء ذاتها.

* * *

V

العدالة والنزاهة أولا، والسياسة بعد ذلك
هذا برنامجنا

لقد جرت العادة أن يطلق اسم "قوى إسلامية" على تلك الدول الأوروبية التي جعلت من بعض الشعوب الإسلامية رعايا لها، والحقيقة أنه لا توجد هناك "قوى إسلامية" إلا تلك التي يعيش المسلمون في كنفها أحرارا، ويشاركون بكل حرية في الحياة الوطنية، ولا يوجد —حسب علمي مع الأسف— بلد أوروبي قد أنجز مثل هذه الصيغة السياسية.

ولقد بينا أسباب هذا الإفلاس الذي بدأ مع الاستعمار الروماني، قبل أن يكون الإسلام قد رأى النور بعد، وإنه لشيء مثالي لو تصبح فرنسا بالملايين الستة من الجزائريين القوة الإسلامية الأولى في الوقت الذي هي فيه قوة مسيحية، إن هذا ليس بمستحيل، من حيث أنه لا شيء في قرآننا يمنع جزائريا مسلما أن يكون من حيث جنسيته فرنسيا "قوي الساعدين، متيقظ الذهن، طيب القلب" واعيا بالتضامن الوطني. ليس هناك شيء يمنع إلا الاستعمار نفسه، بمصالحه الأنانية، بتصلبه، بتوجيهاته الحقيرة، مضافا إليها خطأ محاولة إدماج ببساطة تامة، فهل ينبغي إذن أن نختم بإفلاس كل تلك التضحيات من قبل هذا الطرف وذاك، بالإضافة إلى اختلاف الأعراق الأبدي، واختلاف الأديان؟

عشية الاحتفال بالذكرى المئوية للغزو الفرنسي، طلب مستوطنو مركز يقع في نواحي المدية من الإدارة أن ترفع لهم مساحة قطعهم الأرضية، ودفعوا بنائبهم السيد مالارمي إلى التـــدخل في هذا الشـــأن، وكان رد الحاكم العام -الذي نشر أثناء الحملة الانتخابية لتشريعيات 1928- كما يلي: ((لقد طلبت إدارتي من أهالي الناحية أن يبيعونا أرضهم بالتراضي، فرفض هؤلاء بإصرار، وفي هذه الحالة سوف نلجأ إلى تجريدهم من أراضيهم بحجة الفائدة العامة)). الإمضاء: "بيار بورد".

إن هذه السياسة ظالمة، وفوق ذلك فهي عمياء وبليدة. إن الفلاحين الذين ينتزعون من أرضهم بهذا الشكل سوف يضخمون "البروليتاريا" التي لا عمل لها ولا خبز، المستغلة بأبخس الأثمان، والتي تشكل وضعيتها البائسة وغير المستقرة مخزن بارود قابلا للاشتعال في أية لحظة . أليس من الأفضل أن نأمل في قدوم رجـــال جدد ومعهم صيغ جديدة لكي يعطوا هذا البلـــد الوجه الذي يليـــق به؟ إن الجزائر لا تستحق أن تكون مستعمـــرة، ولا مسرحا للثورات والقتل الجماعي.

قبل كل شيء، لا بد من التغلب على الاستعمار ليتبدى حينئذ الوجه المحبب لفرنسا وللشعوب الأوروبية . لقد استعرضت في مؤلف لي في مرحلة الإعداد بعنوان "ما ينبغي على فرنسا إصلاحه" المسألة الجزائرية كما تبدو لنا، وإن هذه المسألة تتجاوز حدود مقال جريدة، ومناقشتها يضيق المكان عنها هنا، ولذلك نكتفي بالقول إن علاقة فرنسا بالعالم الإسلامي قد تركت طوال القرن الحالي لمصادفة الارتجال الوزاري، وهي تتطلب اليوم مرجعا حقيقيا يستمد مضمونه من المعطيات الحالية. إن الإسلام الذي تعرض للاستفزاز من كل جهة، هو في حالة تحول، والمسألة بالنسبة إليه هي مسألة حياة أو موت، ومن الأنفع لفرنسا أن تأخذ هذا التحول في الحسبان، وأن تساعد –حسب التقليد الذي أبدعه "لافاييت"(*)– ما هو جدير بالمساعدة.

((إن صفتي التسامح والعالمية في الإسلام –أي العطاء الثقافي والإحسان الروحي– تتيحان لشعب ما، وحضارة ما، بلوغ أعلى الأشكال الاجتماعية، في حين أن ما ينقص هذا الشعب اليوم –لكي يتطور– هو المساندة المخلصة لأمة أوروبية تقوم بدور حلقة وصل، توصله إلى التمتع بفوائد الحضارة الأوروبية، دون أن يخشى من وراء الكلام الجميل عن التقدم والتطور والحرية والأخوة الاستعباد السياسي والاقتصادي الذي يختفي في ثناياه))[1].

---

*) الماركيز دو لافاييت (1756 – 1834) أحد أبطال فرنسا الوطنيين، وأحد قادة الثورة الفرنسية، وقد لعب دورا مهما في تحرير أمريكا (المترجم).

1) دكتور "إنساباطو" "الإسلام وسياسة الحلفاء".

إن هذه الأمة التي يتحدث عنها الدكتور "إنساباطو" يتمناها المسلمون الجزائريون أن تكون هي فرنسا. ألا يشكل هذا التمني أفضل دليل يمكننا أن نقدمه عن تعلقنا بفرنسا؟ إن الحي الإسلامي بباريس هو علامة على العصر، وهو أمل، وسيصبح رمزا حيا حينما تتوقف فرنسا عن التحالف مع أعداء الإسلام في أعمالهم التخريبية في البلاد الإسلامية. لقد شهدت نهاية الحرب العالمية الأولى ميلاد عدد كبير من الدول في أوروبا الوسطى، أوجدها الحلفاء من العدم، وجعلوها تحي بقوة التضحيات والمشورة، وهذا ليس شرا، ولكن هؤلاء الحلفاء أنفسهم قد فرضوا في الوقت نفسه نيرهم على دول، وعززوه على أخرى، تلك التي كانت موجودة منذ مدة طويلة، والتي لا تطلب إلا التعاون معهم، وهذا حال تونس ومصر والعربية السعودية وأفغانستان، والمسكينة تركيا نفسها تدين بحريتها لجهود فوق طاقة البشر لنخبتها المثقفة. لماذا على هذه الشعوب أن تعاني بسبب معتقدها الديني؟

وبخصوص الأمة العربية، لقد وقع اتفاق بين فرنسا وإنكلترا من جهة، والشريف حسين، شريف مكة من جهة ثانية، وقد حافظ الشعب العربي على عهده، فثار من الحجاز إلى سوريا على الهيمنة التركية، وعندما انتهت الحرب، خضع حليف الأمس للتقسيم، وحول إلى الاستعباد، وتحول الاتفاق في يد الأمتين العظيمتين إلى "منشفة ورقية". فماذا يمكن أن يفكروا فيه أمام هذه الخيانة المزدوجة؟ هل عليهم أن يصفقوا؟ هل عليهم أن يصمتوا ويحاولوا التلاؤم مع واقع مهين!؟ إنه من الأفضل أن لا نخدع ضمائرنا، وعلينا أن نسمي الأشياء بأسمائها.

لقد توجه الرجـــل الجليل بن رحال في هذا الصـــدد برسالة مؤرخـــة في 14 ديسمبر 1927 إلى شباننا بقوله: ((وأنت أيها الشباب الطري العود، المتردد، الذي لا قوام له، يا من يبتهج باتخاذ مواقف لا لون لها، أو يصمت صمتا انتهازيا، متى تفهم أن واجبك هو أن تشجع الإخلاص، وتساند الضعف، وأن تعري الطموحات غير السوية والانتفاعية المنحطة؟ واأسفاه، إنني

أخشى أن لا أرى أبدا تباشير اليوم الذي تتخذ فيه موقفا رجوليا، ولهذا آتي، لا لأقول لك إلى اللقاء، ولكن لأقول وداعا))[1].

كنا أفرادا قلائل في الكلية الذين تأثروا بهذا التأنيب، ورفضنا أن نكون بلا لون، وانتهازيين. أن يكون الفرد صيدليا، أو طبيبا، أو محاميا، أو أستاذا، فهذا ليس هدفا في حد ذاته، فالمهم هو أن نتسلح معنويا من أجل أن نتحرر، وأن نحرر الجماهير الشعبية من الاستعباد الاستعماري، معبرين بوضوح عن مثلنا الأعلى في الحرية، وأن نقول لفرنسا -المسؤولة عن مصيرنا- ما هو ملائم أن تقوم به، فهذا واجبنا الأول. نقول: العدالة على مستوى العالم الإسلامي، هذا هو المبدأ الأساسي للسياسة الإسلامية إذا أريد للجزائر أن تكون بقلبها مع فرنسا، فلا أحد على الأقل يمنعنا أن نكرس حياتنا من أجل بعث وفاق نزيه في حدود قوتنا بين الإسلام وفرنسا، بين وطننا الروحي ووطننا الفكري، وإذا قيل لنا بأن هذا حلم واهم فإننا نرد بأن كل الأفكار تولد في جو الحلم، والوقت والاستمرار فيها يجعلها خصبة. هذه هي تصوراتنا في مجال السياسة الإسلامية الخارجية.

إن لفرنسا سياسة إسلامية داخلية أيضا، أي السياسة الجزائرية بالمعنى التام، إننا لا نذكر هنا إلا ما نعتبره المحور الذي يدور عليه الفعل الفرنسي في الجزائر، أي النهوض الاجتماعي للمجتمع المسلم، وسيره نحو"روح جماعية"، والاستيطان الأوروبي أولا، وفرنسا المركز بعد ذلك. فينبغي هنا القيام بالعمل بواسطة المراحل، والمرحلة الأولى والمستعجلة من بينها هي مرحلة المدرسة والطريق والمستشفى. ومما لا شك فيه أن بعض أناسنا قد بلغوا مستوى السيارة والمرقص وقناني الشامبانيا، ولكن هذه واحدة من بين الضلالات التي لا ينبغي أن تنسينا الحقيقة.

((إن هناك بالجزائر ما يزيد عن ثمانمائة ألف أهلي ممن هم في سن الدراسة، ولا يوجد من بينهم إلا حوالي ستة وثلاثين ألفا ممن هم مسجلون في المدارس)).

---

1) فقد محمد بن رحال مؤخرا مقعده كنائب عن وهران، مهزوما من قبل مرشح الإدارة، الباشاغا بن شيحة، وهذا التأنيب مازال صالحا لشبابنا الجزائري اليوم.

هذه الأسطر كتبها الأستاذ "لارشي" سنة 1913، والحالة لم تتغير، فالإحصائيات الأخيرة للحكومة العامة تعطي 543 مدرسة للستة ملايين أهلي، بثلاثة وأربعين ألفا من التلاميذ المسجلين بها، وللأوروبيين 1130 مدرسة لحوالي مائة وعشرة آلاف تلميذ. وعليه، لابد من توفير مدارس لنا بحصة عادلة، أي توفير 6000 مدرسة على الأقل، يخصص قسم منها للتلميذات المسلمات، لأن تعليم المرأة شيء أساسي، وكان ينبغي أن تكون البداية بها، فتأثيرها في مراعاة قواعد حفظ الصحة وتربية الأولاد أكبر، ودورها الاجتماعي أهم. وعليه، ينبغي توفير المدارس لكل الناس، ولكل طبقات المجتمع، مثلما كان الحال في زمن انتشار الإسلام. إن المعلم والمدرس(*) هما روح تطورنا[1]، فبواسطة اللغتين الفرنسية والعربية نستطيع في ظرف خمسين عاما أن نتغلب على جرح الجزائر، أي على الجهل. ولا نريد أن نؤكد كثيرا على أهمية اللغة العربية، لأنها الكفيلة بتخليص ديننا من التعصب والمعتقدات الخرافية التي أفسدته.

((لقد تعودنا أحيانا في شمال إفريقيا أن نقول إن الأهالي المتعلمين هم ألد أعدائنا، وأنهم القادحون الأشد في حضارتنا، وأنا على العكس من ذلك، أقدر أن المتعلمين، والعلماء منهم –حتى أولئك الذين يقصرون علمهم على أدبهم الشديد الثراء والشاعرية– لهم من الحكمة واللين والحذر والحس النقدي ما يجعلهم يحكمون حكما صائبا على التحسينات التي أتت بها فرنسا إلى بلدهم، وإنما يخشى من المتعصبين الجهلة، فهم الذين يشكلون الخطر الحقيقي))[2]. ولا بد أن نضيف إلى هذه الأسطر للسيد "فيالا" التوجيه التالي: ينبغي أن تفوت فرنسا، في جميع الأحوال، فرصة أنها تريد أطفالا جديرين بها، ولكنهم أطفال مسلمون، ولغتنا هي وحدها التي تستطيع أن تعطي تربية إسلامية.

في الحرب الأخيرة كانت الحكومة في حاجة إلى إرسال جزائريين إلى العربية السعودية للدفاع عن مصالح فرنسا، إلا أنه –ولنورد هنا مزحة الأستاذ

---

*) يقصد بـــ "المعلم" هنا معلم اللغة الفرنسية، و"المدرس" (وقد كتبه في النص بنطقه العربي) معلم اللغة العربية. (المترجم).

1) يوجد حاليا 30 مدرسا (معلم لغة عربية) لستة ملايين من السكان.

2) الأستاذ كاستون فيالا "مستقبل المسلمين الجزائريين" في: La grande revue (المجلة الكبرى) أوت 1926.

"كوتيي"- ((كان هناك ممثلون يعيشون في مجتمع جدة يجهلون حتى قواعد التشريفات في البلاط الإمبراطوري)). والحال أن هناك مسلمين "يحملون الجنسية الفرنسية"، يذهبون كل عام إلى مكة، وسيظلون يذهبون في كل وقت، وإنه لشيء مهم أن هؤلاء المسلمين هم مسلمون حقيقيون، ويمكن مقارنتهم ببقية المسلمين، وليسوا عملاء جاحدين.

وتعد المدرسة المهنية المكمل الضروري للتعليم، فعندما لا يكون ممكنا لفلاحنا أن يعيش من الرعي باستغلاله المراعي الواسعة لبلدنا يصبح خاملا وكسولا، وقد كان هذا أحد الأسباب الكبرى لانعدام التوازنات الاجتماعية التي لم تسجلها الإنسانية قط، إذ يمكن له أن يصبح بناء، أو نجارا، أو ميكانيكيا، أو صياد سمك، أو بحارا، إلخ.. فالمسألة تتمثل في بناء مدارس حيث يكون ذلك ضروريا، فإنشاء مدرسة للصيادين أو البحارة في عنابة أو جيجل أو بجاية أو مستغانم أو دلس ستعطي نتائج ممتازة، والمدارس الفلاحية مهما كانت فائدتها، تبقى تابعة لتنظيم الملكية الأهلية، وللقرض الفلاحي. لا بد من "فرنسة" أراضي "الملك" و"العرش"[1]، وتزويد الفلاح بعتاد حديث. إن في هذا تكمن المشكلة الحيوية. وحين يكون للجزائر هذا النمو في"اليد العاملة" الخاصة بها. يبقى تنظيم العمل لفائدة الجميع، دون التخلي عن مصلحة الفرد. إن الأجرة هي تشجيع للعمل، وهي مصدر الأمان للبلد.

ولنمر إلى الطريق. إن الجزائر تمتلك نظاما رائعا للطرق، فقد ربطت كل مراكز التعمير، وكل مزارع المعمرين بالطرق الوطنية الكبرى، وهذه نتيجة رائعة، وبناء عليه، ينبغي التفكير الآن في اقتصاد العشائر والدواوير. فالتجمعات السكانية المسلمة ينبغي أن تكون مربوطة بدورها بالطرق الكبرى، فالطريق هي سبيل التقدم، وبفضلها يغير الأهلي وسائل تنقله، يضاعف تنقله ومبادلاته. إن أهمية الطرق أهمية رئيسية.

ويبقى المستشفى والوقاية الصحية الاجتماعية. فحسب شهادة طبيب عسكري، مقارنة مع ما قاموا به في "كوشينشين" (فيتنام)، فإن المساعدة

---

1) أراضي "الملك" هي الملكية الخاصة، و"العرش" هي الأراضي المشتركة التي هي ملك القبيلة كلها.

الطبية لا وجود لها في الجزائر، في حين أنه ينبغي أن يكون هناك علاج للأهالي، ولا يمكن أن نتوقف عند مستشفيات المدن الكبرى، فالأهلي يوجد في الريف، وكل قرية ينبغي أن يكون لها مشفاها، ولكل دوار عيادة، لكل خمسين ألف ساكن مستشفى، ولكل ثلاثة آلاف عيادة، وليس في هذا الطلب مبالغة. ولا بد أيضا من مضاعفة الدوائر الطبية، فالحاجة كبيرة جدا، فطبيب واحد لا يكفي لقرية يساوي امتدادها دائرة من الدوائر الفرنسية.

ولا بد من حماية العامل في المصانع والموانئ والمؤسسات التجارية والصناعية من الإدمان على الكحول، ومن سوء التغذية، بواسطة تأسيس مؤسسات متخصصة، حيث يستطيع ليس فقط، أن يأكل حتى يشبع، ولكن يستطيع أن يستحم، ويغير ملابس العمل بملابس الراحة. أليس عيبا أن ترى في الشوارع الجميلة لمدينة الجزائر مخلوقات بشرية يغطيها الفحم والوسخ؟ وحمالو الميناء البؤساء؟ إنهم يكونون وسخين أحيانا إلى درجة أن المسافر يعاف أن يحملوا له أمتعته. يا له من منظر محزن بالنسبة للأجنبي الذي ينزل بالجزائر، ويا له من تناقض -بالخصوص- مع المحلات الفخمة للشركة البحرية. إن الأهلي سهل الانقياد، ويحب النظافة، ويكفي أن نجعلها في متناوله بواسطة مؤسسات تنشأ من أجله، وسيتعود عليها، فلم لا تنجز؟ إنها ليست من أبسط متطلبات العدالة الإنسانية فحسب، ولكنها مسألة كرامة وطنية أيضا.

هذه هي المرحلة الأولى معروضة بشكل موجز للمرور نحو وضعية أفضل. ولا بد من المال، بطبيعة الحال، إذ تتطلب الأعمال في العشرية الأولى قرضا بـ 300 مليون فرنك ربما، وهذه الأموال موجودة، والجزائر لا تستطيع حقا توفيرها، وبقي لها وسيلة بسيطة غالبا ما استعملت وهي التسليف. تطلب 300 مليون مثلا من فرنسا المركز، ويرد هذا المبلغ بفضل ضريبة خاصة هي ضريبة الاقتطاع الاجتماعي، التي يدفعها من نسميهم هنا النخبة المسلمة، ونحن من جهتنا، أطباء ومحامين وصيادلة وكبار المفاوضين، على استعداد للقيام بهذه التضحية الجديدة.

ولا بد من القيام بهذا الفعل بسرعة، فقد ضيعنا كثيرا من الوقت، وسيكون أخيرا حكم الجماهير حينئذ منصفا. إن وضعية الفلاح هي مفتاح الدخول إلى المبنى، وإهمالها يعني السير على خطى نوميديا الرومانية. ((كانت نوميديا الرومانية بلدا يستغل فيه الأرستقراطيون اللاتينيون، أو الذين اكتسبوا صفة اللاتينيين، بروليتاريا زراعية عريضة))[1]. فبأي ثمن ينبغي تجنب هذه النتيجة السلبية، وإلا فإن أدنى خلل سوف يهدد بانتفاضة الجماهير ووقوع المجازر.

إن الإسلام عندما غزا النفوس لم يستعمل القوة ولا الخطب الجميلة، لقد علم لغته، ونشر المساواة الاجتماعية بنزاهة وبلا قيود، وعلى هذا النحو لم تكن منطقة القبائل في حاجة إلى التخلي عن قوانينها(*) لكي تعطي الأسرة الإسلامية الكبرى قادة مشهورين وأسرا ملكية. ومن أجل أن تعصرن وتفرنس فإن لفرنسا وسائل قوية الفعالية هي لغة "كورناي" و"راسين"(**)، والتربية المهنية، والوقاية الصحية الاجتماعية، ومساعد مهم هو الدين الإسلامي. فإذا عممت هذه كما ينبغي، فسوف يكون لدينا خلال خمسين عاما عمال وموظفون في مستوى رفقائهم الأوروبيين، أرباب أسر، واعون بواجباتهم، وقادرون على إعطاء أطفالهم تربية ممتازة، على غرار تلك التي يعطيها الأوروبيون لأطفالهم، وسيكون لنا بيوت نظيفة ومؤثثة، حيث لا يأتي إليها الرجل وهو نصف ثمل، ليوسع زوجته ضربا، وسيكون لفلاحينا ملكيتهم الصغيرة الخاصة، التي سيدافعون عنها ضد المغامرات، وسيلبسون الأحذية، وسيأكلون حتى الشبع، وسيكون للبنات والأولاد طاقم لباسهم، وسيكون الاستهلاك الكبير، والتجارة الرائجة، والرفاهية الكبرى، لفرنسا: فرنسا المركز، وفرنسا الجزائر.

* * *

---

1) إ.ف. كوتيي، مرجع سابق.

*) قوانين عرفية ما تزال سارية.

**) كورناي وراسين هما رأس شعراء المدرسة الكلاسيكية الفرنسية في النصف الثاني من القرن السابع عشر. (المترجم).

لقد بين العلامة الأستاذ كوتيي وبعض المستعربين -أثناء توضيحهم للمزايا الكبرى للإسلام- عيوب العالم الإسلامي بفهم عميق للروح الإسلامية، وقالوا لنا -نحن الجزائريين بالخصوص- حقائق مرة، نشكرهم عليها، فمعرفة الحقيقة تشكل جزءا من تربية الشعوب. إن عيوبنا موجودة، وهي عديدة، وإذا كان الشخص يستأهل حقيقة ما يترل به، فقد استأهلنا نحن -من بعض الوجوه- ما نزل بنا، ولكننا دفعنا الثمن، بل دفعنا الكثير، لقد أعطينا مالنا وثروتنا ودمنا. وحيث أن لدينا خصالا حميدة أيضا، لا يمكن نكرانها، فلعله قد حان الوقت لكي نستثمرها، ولكي نقوم بذات الفعل عوائق العقل وعيوب الجهل.

لقد بينا -من منطلق ما يعود بالسلام على هذا البلد ليس إلا- ما بدا لنا أنه يمكن أن يكون دواء ناجعا ونهاية مأساة. إننا لا نغذي الحقد ولا روح الانتقام، وإن الوفاق ممكن، ولكن إذا استمر، من وراء الفعل الحضاري الذي فرضته فرنسا في الجزائر، احتقار الأهلي واستغلاله، وانتزاع أملاكه منه، واستجلاب الأوروبيين، والتنصير، والعمل على هدم الإسلام، فلن يكون أمام المثقف المسلم إلا أن يلبس الحداد على بلده، وعلى تصالح الأعراق والأديان، وعلى الأمل في قيام عالم أفضل.

ولكن، على الاستعمار أن يأخذ حذره، إذ ينبغي عليه أن لا ينسى بأنه سيبقى قابلا للعطب، فاليأس يمكن أن يؤدي إلى العنف والتمرد، وإن مبادئ 1789 تمثل "غذاء" تقدمه فرنسا مع مدارسها وجامعاتها، وسوف يأتي اليوم الذي يمكن أن يتسبب في انفجار رهيب.

* * *

الأمـــــــــل

إلى أصدقائي: بول سوران، الرئيس السابق للجمعية العامة لطلبة مدينة الجزائر. بيار ديفيزيا، الزميل في داخلية تكميلية سكيكدة. جلبير سارامي، ابن البلد، والزميل في المجلس العام لقسنطينة. لوي شامبري، الأمين العام السابق لبلدية سطيف، الذي ساعدني كثيرا في تقديم يد العون للفقراء.

أخويا.

* * *

إننا لا نريد أن ندفع بستة ملايين من الناس إلى اليأس من أجل الحصول على "إربنت"(*) من الأرض. إن الشبان الفرنسيين، دون تمييز في أصولهم، سوف يكبرون معنا، وسيكون في مقدورهم أن يميزوا بين الأفكار السليمة وبين النظريات العبثية، بقدر كثير أو قليل لرجال مصابين بداء الإمبريالية. لن تكون هناك مسألة قتل أو خيانة بين من يأكلون خبزا مشتركا. أمام ناظري رسالة لطبيب فرنسي هو اليوم أحد أطباء المستعمرة، كتب يقول لي: "ولك صداقتي الأخوية"، فبين صداقته الأخوية وبين "الاستقبال الأبوي" للسيد لوي برتران، توجد بالتحديد المسافة بين عاطفة حقيقة وكوميديا سياسية.

إن الجزائر سوف تعول في مستقبلها على قلب شبيبتها بالتحديد، ففي هذا البلد هناك مكان للكل، ولكن لا ينبغي فقط أن يعقد أبناء من ماتوا من أجل حريتهم في هذا السباق الوطني سوقا للخداع، فالحضارة يجب أن تحمل خبزا لكل الموائد، ونقدر أننا قدمنا ما يكفي من التضحيات لكي يكون لنا خبز على مائدتنا. إن الإصلاحات سوف تأتي، ولذلك، وبالرغم من النتائج الهزيلة المحصل عليها فإننا ممن يأملون. إن فرنسا ورجال الجبهة الشعبية سوف

(*) Arpent قياس فرنسي قديم للمساحة يتراوح من مكان إلى آخر ما بين 35 و50 آرا. (المترجم).

يكتشفون في يوم من الأيام أنهم كانــوا مخدوعين من قبل عالم خاص في خدمة مصالح خاصة، أما القدر فهو أقوى من الأنظمة السياسية، وهو طيع أحيانا، ومتمرد أحيانا أخرى، وسوف يتحقق، وأما الطبيعة المتبصرة فسوف تمضي في عملها، ببطء ولكن بثقة، هازئة من العوارض، وسيكون من الصعب إزاحتها عن الطريق.

((المستقبل... المستقبل... المستقبل إنه لي...
لا يا سيدي... ليس المستقبل لأحد..
إن المستقبل لله)).

إن السياسة الجزائرية يمكن لها أن تخدع معاصريها ولكنها لن تخدع التاريخ. لقد تفتقت براعة السيد لوي برتران على ميلاد نظرية يوطوبية، مزركشة بلغة حربية، إذ يقول: ((إن الجزائر هي واحدة من معاقلنا، وواحدة من أمجادنا الحربية))، ويسعدني أن أضع في مقابل براعة الأكاديمي الجديد قول عبقري فرنسي: ((إن الفصل الأخير هو فصل دموي مهما كان جمال الكوميديا في باقي الأجزاء، حيث يهال التراب على الرأس، هكذا وإلى الأبد))[1]. هذا التراب الذي يهال على الأشخاص يمكن أن يهال على الشعوب، وقد أهيل على روما، وعلى ما قام به المسلمون، وما تركوه من آثار يقوم اليوم كأشباح تبعث على الاضطراب على جانبي طريق الأمم، وتقول: هذا ما كنته بالأمس، وهذا ما يمكن أن تكون عليه أنت غدا.

إنه لم يبق لنا وسط هذه البداية الأبدية المتكررة إلا عملة واحدة هي أيضا أبدية، وهي أن نفعل ما يجب فعله مهما كانت الأحوال، وهذا الواجب سيقوم به الشبان المسلمون بمعية من سيقومون بواجبهم على أرض الجزائر هذه، ووسط الكذب المنطبع في الأذهان، والاحتقار الذي يشل حركتنا، ستكون لنا القوة لرفع الرأس والإرادة للعمل.

---

1) باسكال "افكار".

إن صداقتنا لرفاقنا ذوي الأصل الفرنسي والإسباني والمالطي والإيطالي والإسرائيلي هي الحلف المعنوي الذي يربط مصائرنا. إن فرنسا وطنهم ووطننا تنحني اليوم على سرير آلامنـــا. لقد ولد أمل كبير في قلوبنا، وقد بدأ ألم الغزو ينمحي في ذاكرتنـــا، وغدا سيحمل معه النسيان، وهذا البلد الذي سقط بهزائم المسلمين في فوضى مؤلمة، سيرى خصال جنسه تولد من جديد بإلهام من الفكر الفرنسي، إذ أنه لم يضع كل شيء، والجذر لم يمت من حيث أن هناك غصونا تزهر، وغدا، وبفضـــل عمل الجميع ستعرف الشجـــرة رونقها السابق من جديد.

إن إطار الحياة النشط والواعي يتوسع، وقد بدأنا نلمح النهار القريب، حيث تغطي جبالنا، بفضل سياسة أفضل، منازل بيضاء، وطرق سالكة للسيارات، وعيون تنضح بالماء الصافي، و"القربي" (كوخ القش) يتحول إلى أطلال لا تقوم لها قائمة مرة أخرى.

وفي الدواوير البعيدة، في وسط مشاتي الديس والوحل، هناك حجر وضع، وبدأ البناء يعلو، وعدد البيوت يتضاعف: المدرسة، ومجمع الجماعة، والمستشفى، ومكتب البريد، والدرك، وهناك قواعد حفظ الصحة، والمساعدة الطبية، والأمن، والأهالي يسرعون ويتجمعون ويستقرون. لقد ولدت القرية الجزائرية، والسكة صنعت، والعقل تثقف، واليد اكتسبت المهارة، وتحت الشمس الذهبية الإفريقية يتسرب احترام العمل والأمن إلى كل القلوب. لقد تحقق العمل الإنساني الدائم الذي هو مجد الشعوب القوية.

تقرير إلى الماريشال بيتان
(أبريل 1941)

تنبيه إلى القارئ:

إن هذا التقرير قد وجه يوم 10 أبريل 1941 بواسطة عامل عمالة قسنطينة ماكس بونافوس، إلى الماريشال بيتان، رئيس الدولة الفرنسية.

لقد ظل هذا العمل المتواضع غير معروف لعموم الناس، سواء في الجزائر أو في فرنسا، وإنني إذ أطبعه الآن ملحقا بـــ "الشاب الجزائري"، فلأنه يمثل آخر كتاباتي لصالح المساواة في الحقوق، ضمن إطار الجمهورية الفرنسية.

وتجنبا للإطالة التي لا فائدة منها، فقد حذفت "المدخل"، حيث أنه لا يحتوي إلا العموميات التي لم تعد لها اليوم أية أهمية، وأقدر أن الجزء الذي يشكل صلب الموضوع هو وحده الجدير بأن يعرف. وإذا كان هذا التقرير يفتقر إلى الأهلية والابتكار فإنه يعكس -على الأقل- سداد سياستي التي انتهجتها مع كل أنظمة الحكم. لقد بلغت في كل الأوقات عن الوضعية البائسة لشعبنا، وبينت للسلطة ما بدا لي أنه يمكن أن يكون دواء لأدوائه.

لماذا هذا التقرير سنة 1941؟ إنني أذكر أن فرنسا كانت في أوج ثورتها الوطنية، فبدا أن اللحظة ملائمة لسياسة التغيير، وقد سبق أن عمم مرسوم "كريميو" سنة 1871 لفائدة يهود الجزائر في ظروف مشابهة، وذلك بعد نهاية الإمبراطورية وقيام الجمهورية الثالثة. لقد سقطت الجمهورية عقب الهزام فرنسا واحتلالها من قبل ألمانيا الهتلرية، وأصبحت السلطة مركزة بين يدي عسكري عظيم، بمنأى عن التأثيرات غير الظاهرة التي كانت تشل باستمرار العمل الإصلاحي للسلطات العمومية، فأصبح من الممكن إذن "تثوير" النظام الاستعماري في الجزائر، دون لقاء مقاومة كبيرة.

ولقد كنت مخطئا، لأنه كان هناك خلف الماريشال بيتان، زيادة على تأثير النازية، تأثير الجيش، والبحرية، والاحتكارات الاستعمارية، ولذلك فقد اكتفى الماريشال بتوجيه شكره لي، الذي كتبه أحد الجنرالات نيابة عنه، ثم لم يفعل أي شيء.

في سنة 1946، حيث كنت أحتل كرسيا في المجلس الوطني التأسيسي، قام نائب وهران "فرانسو كيليسي" بعرض هذا التقرير في المجلس، ظنا منه أنه يلحق الضرر بي باعتباره انتماء مني لنظام "فيشي"، وكان من السهل علي أن أرد عليه بأن الجزائريين من حيث أنهم لا يعتبرون مواطنين فلم يكن خليقا بهم أن يحشروا أنفسهم في الشؤون الداخلية لفرنسا، وكان يستوجب عليهم -في مقابل هذا- أن يطرحوا مشكلتهم الخاصة على ضمير فرنسا، أيا كان النظام الذي يسيرها.

إنني أظن أنني قد أديت هذا الواجب، مع شيء من الشجاعة، وإن رجلا لا يتطرق الشك إلى إيمانه بالجمهورية، هو من وصفني بهذا، ألا وهو الرئيس "ليون بلوم". لقد تطرق بنا الحديث أثناء مقابلة خصني بها، عن نشاطي أثناء نظام حكم "فيشي"، فأيد الرئيس ما قمت به، ولاحظ لي في الوقت نفسه أن أملي في أن أرى النظام الاستعماري يصلح حاله تحت نظام فيشي كان يستند في جزء كبير منه على السذاجة.. ولاحظت لرجل الدولة اللامع أن الموقف الذي اتخذته كان مسموحا لي بالخطأ فيه، فحينما تكون شاهدا على مجتمع وهو يغرق، فإنه لا يكون محرما عليك أن تستغيث، وأن تطرق على كل الأبواب.

إنني عندما توجهت إلى أحد ماريشالات فرنسا، إنما كنت أداعب الأمل المجنون في أن أضع "التجديد الذي هو منبع التقدم والعدالة الاجتماعية على الطريق، وإنني لأتأسف لأنني لم أوفق في ذلك.

-ف.ع

* * *

إلى الماريشال بيتان
رئيس الدولة الفرنسية

إن قدر بلدنا يوجد بين يدي الله وبين يدي حكومتكم، وإنك قاض في نزاع ينوء بكلكله على تطور الجزائر، وهو النزاع الذي لم يكن لأية حكومة سابقة الشجاعة والحرية لمجابهته ووضع حل له. إن الشبان الجزائريين، حينما يتوجهون إليك، إنما يرغبون في أن يعرضوا عليك وعلى ممثلي فرنسا تعاونهم النزيه والمطمئن، من أجل إرساء نظام جديد في الجزائر. وأول التزام لهم هو أن يتحدثوا إليك دون التباس، ودون تكتم، وهذا التقرير يمثل حصيلة ذلك، ويمكن له أن يتضمن أخطاء، ولكنه لا يتضمن كذبا. إننا نضعه بين يدي رئيس الدولة على أمل أنه سيسهم في الإتيان بتغيير في الجزائر، تغيير يكون خليقا بالنظام الجديد وبفرنسا الجديدة.

إن فرنسا موجودة في الجزائر منذ 1830، ومنذ بدايات الاحتلال، أي منذ الأربعين سنة الأولى، توجد بها سلطتان، وتصوران استعماريان يخوضان نضالا شرسا، أي السلطة العسكرية والسلطة المدنية. تنزع السلطة الأولى إلى تحديد إقامة الأوروبيين ونشاطهم، وتريد الحفاظ على الوضع الاجتماعي الموجود، وتكتفي بإدارة شؤون العرب/البرابر، أما بالنسبة للثانية فترى أنه من الضروري تحطيم المجتمع الشرقي، وفرض الاقتصاد الأوروبي، وتنظيم استغلال البلد لفائدة التجمعات الأوروبية. إنه منذ مجيء الجمهورية الثالثة فإن السلطة العسكرية قد انتهت نظريا، ولم يبق تحت حكمها إلا المناطق الجنوبية. وعندما عين في 1879 أول حاكم عام مدني فإن أول فعل قام به هو أنه انتزع من الإدارة العسكرية خمسة ملايين هكتار كان يسكنها مليون أهلي، الذين قام بإلحاقهم بالإدارة المدنية، ومنذ ذلك التاريخ دفع بتنظيم البلد، في أطر الإدارة المركزية (في باريس) إلى إيقاع تسارعي حتى يومنا هذا.

لقد عبر المؤرخ "كوتيي" عن حصيلة الأعوام الستين من الاستعمار في جملة آسرة، قائلا: ((لقد قمنا في الجزائر بتغريب زاوية من الشرق)). إن هذا التغريب لهو واقع لا يقبل الجدل، وإذا كان العنصر الأوروبي قد لعب فيه دورا كبيرا فقد لعب هذا الدور لفائدته، فأصبح هو رب العمل والأهلي هو الأجير أو العامل، فطوال الغزو كان هذا التجمع يدعو العنصر الفرنسي، وقد قدموا وأقاموا كمزارعين، وكجنود للجنرال بيجو، وكعمال باريسيين في بطالة (سنة 1848)، وكمبعدين سياسيين (سنة 1852)، وكلاجئين من مقاطعة "لالزاس لورين" (سنة 1872).

وبعد انتهاء الغزو، جلب حلول السلم في البلد المهاجرين الأجانب، فكان الزحف، وكانوا في معظمهم إسبان، ومالطيين، وإيطاليين. ومن أجل تمتين وتوحيد هذا المجتمع الأوروبي الناشئ، سمح قانون صدر بتاريخ 26 يونيو 1889 لهؤلاء الأجانب بالتجنيس التلقائي، وشيئا فشيئا تجذرت في المستعمرة طبقة ذات حظوة وهيمنـــة، وكانت قد تدعـــمت بعد من قبل بواســـطة مرسوم 26 أكتوبر 1870 الذي أدمج الإسرائيليين من الأهالي في الفرنسيين، مع كل الآثار الرجعيـــة للغالب. ومنذ هذا التاريخ بقي العرب/البرابر وحدهم هم الذين يرزحون تحت ثقل الغزو، ويوفرون اليد العاملة الرخيصة، التي سوف تصنع -بتوجيه الأوربيين- الرخاء الكبير الحالي للجزائر.

لقد ضاعفت من إنتاجها، ومن قدرتها التبادلية، بواسطة هيكلتها الغربية، وبواسطة مصالحها العمومية، وبواسطة بنوكها، وبواسطة مرافئها ذات النشاط الهائل، وبواسطة الثلاثين ألف كيلومتر من الطرق المسفلتة، وبواسطة الخمسة آلاف كيلومتر من السكك الحديدية، وبواسطة أدواتها الحديثة، وبواسطة فسفاطها ومناجم الحديد فيها، وبواسطة تنوع مزروعاتها، وبواسطة غاباتها وفلينها، وبواسطة تربية المواشي.

وقد ذكر التاريخ أرشيف الغرفة التجارية لمرسيليا، أن الواردات من الجزائر إلى مرسيليا قد بلغت في سنة 1822 ستة ملايين وخمسمائة ألف فرنك، وهو

ما يساوي 40 مليون بعملتنا الحالية، أما التبادلات التجارية اليوم فهي من الأهمية بحيث تبلغ ما بين 6 و8 مليارات في العام.

وقد تركزت التحولات الاقتصادية الكبرى العميقة، والظاهرة الاستعمارية بكامل ازدهارها في الأطلس التلي وفي السهول التي تحيط به، حيث يكثر تساقط الأمطار. إن القرى التي أنشئت في هذه المنطقة هي الآن في أوج الرخاء، بسبب أن التل قد وجد الزراعة الملائمة له ملاءمة تامة، أي زراعة الكروم. إن هذه الشجيرة العميقة الجذور لا تخشى جفاف الربيع مثل الحبوب، إنها تشكل قاعدة ثروة الجزائر. إن الكروم تغطي اليوم 230 ألف هكتار وتنتج سنويا 13 مليون هيكتولتر.

إن الجزائر من حيث العتاد قد اكتسبت مظهر أرض أوروبية، وقد دخلت بقدم ثابتة في موكب البلدان المتقدمة، وهي قادرة – فيما يخص الإنتاج – أن تدخل بسهولة في منافسة مع الجنوب الفرنسي، وقد بلغ التجمع السكاني الأوروبي بها هذا الرقم الدال: 833 ألف نسمة. إلا أنه لم يكن لهم جميعا النصيب نفسه، ولم يبقوا جميعا متعلقين بالأرض، فهجرت قرى كانت قد أنشئت بتكاليف كبيرة، ولم يبق حاليا بها إلا 25 أو 30 ألف مستوطن. وبسرعة تحولت الملكية الأوروبية إلى مزارع كبيرة، وفشلت صيغة الماريشال "بيجو". إن المزارع الأوروبي غير معروف في الجزائر، والملكية الكبيرة هي القاعدة، حيث تمتد مزارع الحبوب والبقول على مساحات تتراوح بين 500 و1500 هكتار، ويمكن أن تبلغ محاصيل المستوطن الواحد سنويا خمسة وعشرة آلاف إلى 15 ألف قنطار من القمح، كما نجد من بينها أيضا "مزارع نموذجية" ذات مساحات تتراوح ما بين 800 و1200 هكتار، التي يمكن أن يصل إنتاجها إلى 30 ألف قنطار من القمح سنويا، بفضل التقنية الحديثة.

وتشبه مزارع الكــــروم من جهتها، أكثر فأكثر المؤسســـات الصناعية، وقد ابتلعت الملكية الكبيرة، هنا أيضا، الملكية الصغيرة، ونستطيع أن نزور، على سبيل المثال، في المتيجة أو سهول وهران أو عنابة أو سكيكدة مزارع

بمساحة 600 هكتار من الكروم. وتشغل هذه المزارع بصفة دائمة حوالي 300 إلى 400 عامل، يجنون حوالي خمسين ألف هكتولتر من النبيذ، وهو ما يعطي، بحساب 250 فرنكا للهكتولتر، مبلغ 12 مليونا ونصف المليون فرنكا ثمن المحصول السنوي.

في عمالة وهران توجد 130 مزرعة كروم، ذات مساحة تتجاوز 100 هكتار، وتوجد في المتيجة 194، وفي عمالة قسنطينة نستطيع أن نحصي حوالي خمسين مستوطنا يملكون وحدهم 200 ألف هكتار من أجود أراضي القمح. إن هؤلاء المستوطنين من كبار الملاك يشكلون إقطاعية زراعية حقيقية، حيث تخضع الهيكلة الكاملة للبلد لمصالحهم. إنها لا تشكل الطبقة المالكة فحسب، ولكنها تشكل أيضا الطبقة المسيرة، إنها أوليغارشية (أقلية مستغلة) وبلوتوقراطية (حكم الأغنياء). إنها تبسط نفوذها بواسطة الصحافة، والقرض الزراعي، والوظائف العمومية، كسيدة مطلقة على البلد. إنها تراقب مالية المستعمرة (أي المندوبيات المالية ومجالس العمالات) والسياسة (أي التمثيل البرلماني وفدراليات رؤساء البلديات)، والإدارة (أي البلديات والبلديات المختلطة)، لا شيء يمكن فعله بدونها، أو بالأحرى ضدها. إن طبقة النبلاء الفرنسيين سنة 1789 لم تكن تتمتع بمكانة بهذا القدر من القوة الخارقة للعادة.

* * *

لقد تم تحديث الجزائر، كما رأينا، والنتائج ترضي أصعب الأذواق، ولم ينس إلا شيء واحد أساسي هو تحديث سكانها، وهكذا وصلنا إلى مفارقة تبعث غريبة، وهي أن يعيش على أرض أوربية، وفي أطر أوروبية، ستة ملايين من الشرقيين، وفوق كل هذا يوجد هؤلاء الشرقيون في وضعية مزرية. إن المجتمع المسلم في سوريا وفي مصر، وحتى في تونس والمغرب، له دواليبه، وله مثقفوه، وله بورجوازيته، أما هنا فنحن أمام تربة أفراد يعيشون في صميم عصر وسيط.

ونستطيع أن نتصور مسار هذا التخلف على النحو التالي: كانت الجزائر واحدة من مقاطعات الإمبراطورية التركية التي كانت تعيش تحت حكم إقطاعي، من نوع الإقطاع القبلي، الشديد التألق، والشديد العنف والحيوية. ولابد لنا من الرجوع إلى الخلف، إلى عهد "شارل المتهور" في فرنسا، لكي نجد التعبير الملائم للمقارنة النسبية. هذه القبلية هي عبارة عن وحدة بيولوجية، اجتماعية واقتصادية، كانت في عهد الترحال، والحياة الرعوية والزراعية، وكانت غنية وقوية، إنها هي التي حاربت الجيوش الفرنسية طوال خمسين عاما، وقد أشاد الماريشال "بيجو" بشجاعتها، وإشادته مستحقة، فكتب قائلا: ((آه لو أنه لا وجود للعرب في الجزائر، أو لو أنهم يشبهون تلك الشعوب المتأنثة في الهند، إذن لكنت قد نصحت لبلدي أن تقيم فيها قاعدة للاستعمار، تخصص لها الميزانيات، وتعمرها بالعنصر العسكري)).

((لكن وجود هذه الأمة، التي هي على هذه الدرجة من الشدة، ومن الاستعداد للحرب، والمتفوقة فيها إلى هذا الحد، على الجماهير الأوروبية التي نستطيع أن ندخلها إلى البلد، تفرض علينا الواجب المطلق أن نضع أمامها، وإلى جانبها، وفي وسطها، تجمعا سكانيا يكون شديدا إلى أقصى ما يمكن)).

لم يصمد الجيش التركي عند الاستيلاء على مدينة الجزائر، ولم يتم الاستيلاء على الجزائر بصفة نهائية إلا بانهزام هذه القبائل المحاربة، وقد حاول نظام الإدارة العسكرية أو "المكاتب العربية" أن يحافظ على وحدتها، ولكن ((لا ندري كم مرة هوجمت فيها هذه المكاتب العربية من قبل المستوطنين، بسبب أنها، بالتحديد، تحمي العرب من أطماع الأوروبيين، و تجعل شهية وكلاء الأعمال معتدلة)) (عن أوغيست برنار). وعليه فإن هذا النظام لم يستمر، فقد جاءت ثورة 1848، ثم الجمهورية الثالثة بعد ذلك، لتعلن الجزائر أرضا فرنسية، وتقسمها إلى ثلاث عمالات مشابهة للعمالات الفرنسية، وإلى دوائر وبلديات على رأسها مجالس بلدية منتخبة عن طريق الاقتراع العام، ولكن العرب/البرابر كانوا مقصين من الاستفادة من هذا التنظيم الإداري والسياسي.

القبائل هي الأخرى كانت مجزأة إلى أجزاء صغيرة تسمى الدواوير، يديرها "القياد" أو الأغاوات أو الباش آغاوات، أما البلديات المختلطة، وحيث أصبح على رأسها متصرف مدني، فقد عوضت المكتب العربي، وبقيت الجماهير المسلمة إلى يومنا هذا سجينة داخل هذه الكوادر الضيقة والمتصلبة.

نستطيع القول أن القبائل لم تكن بالتحديد مراكز إشعاع فكري، وأن البدوي المحارب ليس محبا للكتب، مع أن ذلك لازم. لقد كان هذا الصرح الإنساني يفتقر إلى الإسمنت الثقافي، ولهذا لم تتمكن القبيـــلة من الوقوف في وجه تفتيتها ترابيا. ووسط هذا الانقلاب العميق جاء النظام الأوروبي والاستعمار ليحطا رحالهما.

سيكون شيئا زائدا ومملا أن نتتبع خطوة بخطوة تطور الملكية الزراعية في الجزائر منذ 1830، ونوضح كيف انتقل الأهالي من وضعية مالكي الأرض إلى وضعية البروليتاريين والخماسين، وكيف استخلفهم المستوطنون في أرضهم، إنه يكفي الرجوع إلى "المدونة الأولية للتشريع الجزائري" للأستاذ "لارشي"، الذي هو حجة في هذا الموضوع، ويكفي أيضا التنقل في البلد ومساءلة المعنيين أنفسهم كيف جردوا من أراضيهم. لقد كانت عملية ذات طابع رسمي لنزع الملكية، حيث نجد عملية بيع قضائي مدمرة هنا، وعيوب تطبيق القوانين هناك، أو ببساطة الاعتباطية والسرقة.

وقد كانت عملية الاستخلاف سريعة، ففي سنة 1900، كان هناك 2250560 هكتار من أجود الأراضي مصنفة ضمن أملاك الدولة، التي سلمت لفائدة الاستعمار، وذلك عقب عملـيات أمرية 01 أكتوبر 1844، المتعلقة بقانون 1851، المتمم بنظام "المضارب"(*) (Les Cantonnements) وكذلك "التحقيقات" التي رسمت سنة 1863 بواسطة "السيناتوس كونسولت". يقول

*) هو نظام أحدثه الحاكم العام للجزائر الماريشال "راندون" ما بين سنتي 1852 و1858 وبموجبه يتخلى الجزائري عن حقه فيما "يزيد عن حاجته"، أو "لا يستطيع استغلاله" من أراضي الملكية المشتركة، أو أراضي "العرش"، كما كانت تعرف، مقابل اعتراف الدولة له بالملكية الفردية على الجزء الذي يستغله. (المترجم).

"أو. لارشي": ((إن هذه الأمرية قد جعلت من عمليات السيناتوس كونسولت أحد أهم الوسائل الأكثر فاعلية لتجريد الأهالي من أراضيهم، حيث كانت تصنف بشكل مباشر ضمن الملكيات الخاصة كل الأراضي التي لا يقدم الأهالي عنها عقد ملكية، أو يقدمون عنها عقودا تقدر من الإدارة بأنها غير كافية، أو تعلن أرضا تابعة لـــ "العرش" (مشتركة) كل أراضي القبيلة، على أمل اقتطاع عدد معتبر من القطع الأرضية لفائدة الدولة، عندما يلجأ بشأنها إلى التحقيقات الجزئية. وعلى هذا النحو حصلت الجزائر على قسم من الأراضي الموجهة للتعمير دون أن يحل فيها عقد على نقد)).

المأساة –ونحن نفهم هذا اليوم– هو أن حياة الترحال شكل اجتماعي تجاوزته أوروبا، وإن تعايشه مع نظام أوروبي آخر يمثل عدم تلاؤم أساسي، ومهما يكن الأمر فإن انهياره كان تاما، حتى في بلاد القبائل، وهو بلد الملكية الفردية، إذ فقد الأهالي في عملية المصادرة التي تمت سنة 1871 وحدها 2639000 هكتار.

إن الفلاح الجزائري هو الآن في حالة تقهقر مستمر، بسبب حالة الإعاقة التي يعاني منها على جميع الأصعدة، ففي سنة 1935، وأمام محكمة سطيف وحدها بيعت 35 ملكية صغيرة تقدر مجتمعة بـــ 1258 هكتار و21 آر، وفي سنة 1936، وأمام المحكمة ذاتها فقد الفلاحون 555 هكتار تعود ملكيتها إلى13 أسرة.

إن الفلاح الجزائري بعتاده البدائي وطرق عمله الموروثة عن الأجداد، وأميته، وتكدره بعش من الأطفال، هو في طريقه نحو الانقراض. إنه يشكل اليوم، وقد انتزعـــت منه أرضه، هذه البروليتـــارية الزراعية العريضـــة التي تأتي مدفوعة بدافع البطـــالة والأجر الذي لا يسمن من جوع (ما بين 8 إلى 12 فرنكا في اليوم سنة 1944) لتتكدس في المدن، وتنشر أكواخ القصدير، والأوبئة، واللا أمن، والإدمان على المسكرات، والدعارة.

وهذا الفلاح المنتزع من أرضه، كان قد عاش في الهواء الطلق، وفي الشمس، ولم يخلق لـــ "المدن العفنة" حسب التعبير البدوي، وتترجم لديه أيضا سوء

التغذية، ونقص تطبيق قواعد حفظ الصحة، والسل، بتدهور جسماني رهيب، تقدره مجالس المراجعة بـــ 75 إلى 80%.

والتدهور الأخلاقي ليس بأقل من التدهور الجسماني . إن هذا الشعب ذا التقاليد الحسنة قد أضاع مزاياه العرقية التي كان ضباط الغزو يظهرون إعجابهم بها، ويرغبون في التعرف عليها، ألا وهي النخوة، والشجاعة، والوفاء بالعهد، والصدق، ونقاء الأخلاق. إنه لم يعد في الوقت الراهن إلا جمعا من طالبي الصدقة والمتسولين والمخبرين، الذين لا ضمير لهم في غالب الأحيان ولا شرف. لقد أضاعت الأمة التي وصفها "دوق إيسلي" (بيجو) بشدة البأس فضائلها دون أن تكتسب فضائل الفرنسيين.

أما أولئك الذين مازالوا يتشبثون منهم بالأرض فإنهم يعيشون عيشة ضنكا، وهم في الغالب أناس مساكين، مسالمون، بسطاء وشرفاء، يكافحون على الدوام الجوع، والقايد، والدركي، وحارس الغابة، وجامع الضرائب، وعون التبغ، وديوان القمح، وجهاز العدالة. وأما الغرامات فهي عديدة ومتنوعة ومدمرة، ونستطيع أن نأتي بأمثلة على ذلك، فمن أجل بضعة أقدام من التبغ لم تحترم فيها الأبعاد النظامية، يغرم مرتكبها بغرامة تتراوح ما بين 5 و10 آلاف فرنك، في حين أن ثروة الجانح كلها لا تتجاوز في معظم الحالات 1500 فرنك.

إن الفلاح ، في المناطق الجبلية بالخصوص، وفي الدواوير النائية، مازال في الحالة البدائية. ((نستطيع أن نقول إن السكن والكساء والغذاء قد تضاءل عند العدد الأكبر (من الفلاحين) إلى درجة من البساطة، بحيث لا يمكن أن نمر به دون أن نعود إلى ما قبل التاريخ، إلى زمن الكهوف)). (الأستاذ "سوليي" المجلة الطبية الجزائرية، عدد سبتمبر 1927).

ماذا نستطيع أن نقول سوى أن تطور الأهالي كان آخر ما يشغل الطبقة المسيرة، في حين أن قوانين القرن العشرين الفرنسية لم توضع لشعب من الأميين بقي على عتبة العالم القروسطي. لقد لبست الجزائر منذ حوالي خمسين عاما ثوبا جديدا لم يعد فلاحونا يجدون فيه أنفسهم، إن هذا الثوب يزعجهم،

إنهم لا يحسنون ارتداءه. إن المفارقة في أزمنة تقييد النفقات هذه وبطاقات التموين، والتقنين المستمر، لهي أكثر بروزا، إنهم ضحايا في كل مكان، إنهم طائر القطرس "الأخرق، الخجول" على جسر المركب الذي وصفه "بودلير".

في هذه الشبكة المعقدة من اللوائح والقوانين التي لا يفهمها الفلاح، لا يجد أمامه إلا بابا واحدا يخرج منه، ألا وهو"البقشيش"(*) الذي يدفعه، إذ ليس له من سلاح يمتلكه ضد المآسي اليومية إلا ما يوفره من مال قليل. وقد مست عادة تقديم البقشيش الأوروبيين أيضا، ونمت على نطاق واسع، فأصبحت مع الربا والجهل أحد الجروح الكبيرة التي تعاني منها الجزائر. لقد أصبح "دهن البرنوس" حسب التعبير الشائع، بالنسبة لبعض الأفراد من جميع الطبقات، ومن جميع الأعراق، مهنة مربحة.

ولعلنا نستطيع أن نكمل هذه اللوحة التي ترسم الحياة القاسية لجماهيرنا الشعبية في الأرياف بالوصف الذي قدمته كاتبة مشهورة هي "إيزابيل إيبيرهاردت"، التي عاشت في الجزائر، وقطعتها في جميع الاتجاهات، وترجمت بأفضل مما نستطيعه نحن، الحالة الاجتماعية لفلاحينا. تقول: ((إن حياة الفلاح رتيبة وحزينة ، مثل الطرق المتربة لبلده، متعرجة إلى ما لا نهاية بين الهضاب القاحلة، الضاربة إلى الحمرة تحت الشمس. إنها تتشكل من سلسلة لا تنقطع من ألوان البؤس الصغيرة، وأنواع المعاناة الصغيرة، والمظالم الصغيرة. إن المأساة فيها نادرة، وإذا صادف أن جاءت لتقطع رتابة الأيام فإنها هي نفسها تختزل إلى مقادير محددة جدا، ومتدنية جدا، من الخضوع اليومي والاستعداد لأي شيء (...) لا مجال إذن في قصتي الواقعية لما تعودنا العثور عليه في "الحكايات العربية"، فلا فنطازيا، ولا حبكة، ولا مغامرات، باستثناء البؤس الذي يتساقط قطرة قطرة)).

مع أن هذه الجماهير التي تعيش في الشقاء لا تناصب العداء للتطور والتقدم، إنها تنتمي إلى جنس البحر المتوسط، وتستطيع أن تستوعب العلوم الغربية بسهولة. إن ما كان ينقصها إنما هو الشروط العامة المواتية لانعتاقها. إن

*) أثبتنا الكلمة كما هي في الأصل: "بقشيش".. (المترجم).

القانون لم يكن في صالحها، إذ لم يعمم أي مرسوم بشأنها يمكن مقارنته بمرسوم 26 أكتوبر 1870 (الذي أعطى حق المواطنة للإسرائيليين)، ولا ذلك الصادر في 26 يونيو 1889 (الذي أعطى حق المواطنة للأجانب). لقد ظل المسلم خاضعا للسيناتوس كونسولت الصادر سنة 1865، الذي جعل منه مجرد شخص خاضع.

والتضامن الاجتماعي بدوره تخلى عنه، فالكتلة الأوروبية والكتلة المسلمة بقيتا متمايزتين، غريبتين عن بعضهما، ولا روح مشتركة بينهما. وبالرغم من هذا الانغلاق المحكم، في عدم المساواة الحقوق السياسية بالخصوص، فإن شروط عمل المستوطن لم تبق بلا تأثير على الأهلي، فقد جرت الجزائر الأوروبية وراءها جزء من الجماهير المسلمة التي تبنت تقنيته ووسائله الإنتاجية. إن مزارع الكروم نادرة، وهذا الأمر يتعلق بتأويل مرتبط بالدين، الذي يحرم زراعة "شجرة الخمر"، وفي مقابل هذا يمكن لنا أن نرى هنا وهناك مزارع مجهزة بعتاد حديث، منقول بدقة عن مثيله الموجود لدى الأوروبي.

وفي مجال الصناعة والتجارة نجد ظاهرة التبني نفسها، إذ أننا نجد بعض معاصر الزيت، ومعامل الصابون، وصناعة الخروب والفلين مجهزة تجهيزا كاملا ومزدهرا.

أما التعليم بالخصوص، فقد أخذ بعملية تجديد فكري ومعنوي جدير بالتقدير. لقد أوجد الغرب والحياة العصرية أتباعا لهما ذوي قناعة، وهذه النواة ضعيفة ولكنها عوضت عن النقص العددي بقناعتها وحيويتها، وبتصميمها على الانتصار على كل العراقيل، من أجل أن تعطي الجزائر المسلمة مستوى اجتماعيا ينسجم مع مستوى الاستيطان الأوروبي. إنه لا ينبغي لنا أن ننسى أن تعليم الأهالي لم يبدأ إلا في سنة 1892، وأنه ولد في وسط عداء عام للمستوطنين، وكانت النتائج ستقدر أكثر لو أن الأهالي المتخرجين من المدارس قد وجدوا تعاطفا أكثر ضمن النظام الجديد.

إنه يوجد اليوم 500 معلم وبعض المعلمات من أصل مسلم. وأما في مجال العدالة، وفي الإدارة، وفي الجيش فإن هناك وحدات، على قلة الفرص التي تمنح

لها، تملأ مكانها بكل شرف. وفي مجال المهن الحرة أيضا، كان في إمكان هؤلاء الرجال أن يذهبوا بعيدا لو كان القانون لا يمنعهم من تقلد وظائف السلطة. والوسط العمالي، ووسط الموظفين الصغار والعسكريين القدماء يقدم هو أيضا أفرادا مميزين بما لديهم من روح المبادرة، وقدراتهم على التمثل. إن هذه العناصر تشكل أساس مجتمعاتنا الخيرية والرياضة والمسرحية، فهم الذين يجعلونها تحي. إن الكشافة الإسلامية بالخصوص هي من صنعهم، وهم يؤكدون في كل لحظة، باللباس وبالأفكار وبالمحافظة نزوعهم وتصوراتهم التي يترجمونها عن طريق الرغبة في التعلم والتحسن والتطور.

ماذا يلزم لهذه الحفنة من الرجال ذوي التكوين الفرنسي، الذين يبحثون عن تحويل الحياة والعادات لمجتمع متخلف، والارتفاع بها إلى مستوى هذا القرن؟ يلزمهم الدعم الصادق من عالم الاستيطان، ومن السلطات العمومية، لكن عالم الاستيطان هذا لم يحتضنهم، ولكنه يصدهم عنه لمجرد حكم عرقي مسبق، خشية المنافسة، ويلقي عليهم الشبهة، ويستعدي السلطات العمومية عليهم، وهكذا ظلوا غرباء عن الإسهام في الفعل الحضاري المشترك، بعيدين عن أي مركز قرار، ولا تأثير لهم حتى على مستقبل إخوانهم الأميين.

إن خلاصة هذا العرض بسيطة، إن عدم التوازن الاجتماعي الذي حصل في المجمع العربي البربري، عن طريق الاتصال اليومي مع المجتمع الأوروبي، هو عدم توازن حقيقي عميق، ومع ذلك فهو لم يكن كافيا بحيث يوقظ كل الجماهير المسلمة من سباتها الذي دام قرونا، ويأخذ بيدها نحو آفاق جديدة. لقد بقيت هذه الجماهير بين عالمين، أحدهما ميت والآخر غير قادر على الانبعاث. إننا في مفترق طرق، وعند ملتقى لها، ولا بد من الاختيار: إما التقدم لتوسيع دائرة الحياة الحديثة، أو الخضوع إلى رؤية الشرق القروسطي يغرق في مستقبل الأيام تحت وطأة العدد، ويهدم الفعل المنجز بأكمله.

إن جيلنا قد اختار. إننا نريد أن نتقدم لأننا نؤمن بالتقـــدم، وبالتقنية الحديثة، وبالتقدم البشري ، وبإمكانيات التمثل لدى جنسنا. إننا نريد أن

نتقدم لأننا على يقين أن الشعب سوف يتبعنا، وسيخضع للانضباط الذي لا مندوحة عنه. إننا أخيرا نريد أن نتقدم لأن لدينا الثقة في الشعب الفرنسي وفي عبقريته المبدعة.

هل الإنجاز الذي حققه كمال أتاتورك في ظرف عشرة أعوام، والإنجاز الذي حققه من قبل "بيار الكبير"(*) هو فوق طاقة أمة عظيمة مثل فرنسا؟ إننا نعرف جيدا أن الإجابة بـ "لا"، وأن الصعوبات كثيرة ولكنها ليست مستحيلة، لأن ما يمكن لحفنة من الرجال أن تنجزه مقابل صعوبات لا حصر لها، تستطيع أمة توجد على رأس التقدم الإنساني أن تنجزه بسهولة. إن أول المهمات يتمثل في كسر أنانية الإقطاعية المضاعفة التي تنوء بثقلها على مقدرات الفلاح الجزائري، وأعني بها الإقطاعية الاستيطانية مالكة الأرض، والإقطاعية العربية، بمجلسيها: مجلس الطرق الصوفية ومجلس الأعيان.

إن جماهيرنا الشعبية ليس لها من أعداء سوى هاتين الطبقتين، اللتين تقعان على طرفي نقيض، ولكنهما تتفقان ضمنيا على العيش على حسابها. فهل ستترك فرنسا الجديدة هذا التجاور المخزي للثروة العريضة والفقر المدقع؟ إن مشهد جموع غفيرة من لابسي الأطمار في قرن القاطرة والطائرة لهو نوع من عبث التاريخ. إنه ليس من العدل أن يكون العدد الأكبر من الجماهير الشعبية في بلد ما يقبع في الأمية والبؤس، في الوقت الذي تتمتع فيه الأقلية بكل امتيازات الحياة والعيش الرغد. إن احتفالاتنا المدرسية تقدم مشهدا آخر للتناقض المؤسف والمؤلم لطفولة مسلمة ترتدي الأطمار، وتسير حافية الأقدام، تجر تدهورها إلى جانب التلاميذ الأوربيين الذين يتألقون نظافة وصحة. لقد تجددت منذ سنة 1930 معظم شعوب البحر المتوسط، بتبنيها العلم والتقدم، ولم يبق إذن إلا شعبنا وحده في طور البؤس الفسيولوجي، وتجار التمائم، وأكلة العقارب، لأن مصالح طبقة من السادة الإقطاعيين -المسلمين والأوربيين- تتطلب ذلك؟

---

*) بيار الكبير امبراطور روسي، اشتهر بإنجازاته الحضارية الكبرى عاش ما بين 1672 و1725. (المترجم).

إنه من حيث العدل، ومن حيث الإنسانية لظلم فظيع، وإن الإبقاء على هذا التوازن الاجتماعي المختل، من حيث الأخوة الفرنسية الجزائرية والوفاق بين الأعراق، لهو وضع فظيع.

* * *

مخطط لتحديث الجزائر المسلمة

إننا، ونحن نتوجه إلى عسكري كبير على رأس امبراطورية، لعلى يقين أنه يكفي أن نبقى مثل ما كنا لنيل الاهتمام وكسب الضمائر والقلوب إلى صفنا، وإننا بتوجهنـــا بهذه المذكرة إلى رئيس الدولة الفرنسية نكون قد التزمنا أن نبقى مثل ما كنا.

بالأمس كانت الجزائر المسلمة جامدة في تقاليدها القديمة، وفي اقتصاد تقليدي، وتتطلع اليوم إلى تحول اجتماعي، ظلت لمدة طويلة -وهذا يجب أن يكون متفقا عليه- غير مكترثة به. وهذه التطلعات ذات الطابع المادي والمعنوي، كانت قد عبر عنها في العديد من المرات، وقد عارضت إنجازها الطبقات الغنية بعنف، وقد تراجعت حكومات النظام القديم أمام التهديد بالرغم من وعودها القاطعة، كما وضعنا أملنا في تفهم أفضل من قبل الطبقات المحظوظة، ولكن من الخطإ في السياسة الاعتماد على حكمة الخصم.

إنه لن يكون في إمكان أي كان تحطيم تلك المقاومة إلا حكومة قوية، وإدارة تتسامى عن أي تأثير، وإننا لنضع بين يدي هذه الحكومة، ويدي ممثليها مخطط تجديد الجزائر هذا، على أمل أن يستأثر باهتمامهم، هذا المخطط الذي ليس له من مزية سوى أنه صادر عن رجال لهم إرادة حسنة، ويؤمنون مخلصين بجهد الأمم العظيمة، وباعترافها بالأمم الصغيرة.

1- المشكلة الأخلاقية:

قبل التطرق إلى المشكلات الأساسية، ينبغي القول قبل كل شيء، أن المشكلة التي تهيمن على باقي المشكلات في الجزائر، مثلما هو الحال في كل المستعمرات، إنما هي مشكلة الاحترام الواجب للشعوب المغلوبة، ومشكلة العلاقات بين الغازي والمغلوب.

إن الأوروبي بصفة عامة، انطلاقا من فكر مشوه يرجع إلى وضعه الاجتماعي القوي، يظن نفسه إنسانا من طينة متفوقة، ولا يشترك في أي شيء مع أهل البلد الأصليين، ومفكرو القرن الماضي من الفرنسيين أنفسهم في هذا الميدان كانوا يعتقدون بهذا المفهوم، وذلك حينما قصروا دفاعهم على البولونيين والصرب والإغريق والأيرلنديين وحدهم، إذ يقف هنا تصنيفهم للشعوب التي يرونها أهلا لتعاطفهم، أما ملايين الأسيويين والأفارقة فلا أحد منهم يشغل نفسه بشؤونهم. وقد جعل "اختصاصيو" المستعمرة هذا الحقل من النشاط الفكري حكرا عليهم، والدليل على ذلك هو جو الأخطاء والأكاذيب التي تلف مشكلات المستعمرة، وهي الأخطاء والأكاذيب التي يغذيها مستفيدون وعملاء يعملون لحسابهم. والحال أنه يجب أن تكون هناك قناعة أننا أناس مثل الغربيين على السواء، وأننا لم نكن لنستحق الاحتقار الذي يرهقوننا به، وأن لدينا الحق في الحياة.

إن المستوطنين الأغنياء، وبعقلية مستحدثي النعمة، هم المسؤولون الرئيسيون عن هذه الأوضاع، ولكي يبرروا بعض مواقفهم غير المعقولة، والإجرامية أحيانا، أمام استنكار الرأي العام في فرنسا لها، فإنهم يبدون افتخارهم بما يسمونه ((معرفتهم بالأخطار المحتملة، وبوسط الأهالي)). وباسم هذه الأخطار المحتملة –ومعناها امتيازاتهم ومصالحهم الأنانية– حولوا فرنسا عن أعدائها الحقيقيين، وجعلوها تضحي بأهالي الهند الصينية، وبالسوريين، والتونسيين، والجزائريين، والمراكشيين، معرضة بهذا مفهوم رابطـــة الشعوب التي ولدت سنة 1918 من الانتصار المشترك المحصل عليه للفشل. إن مثل هذه الطرق تحفر خنادق حول الشعوب والديانات والأعراق لا تستطيع فلسفة فرنسا السخية أن تملأها. إن مباشرة الكفاح الصحي والخطير في الجزائر، من أجل تقويض الكذب، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإعادة الاحترام والكرامة لشعبنا، لهي المهمة الأولى التي نطلبها من رئيس الدولة ومن إدارته.

2- المشكلة الزراعية:

إن إعادة توزيع الأراضي تبدو لنا ضرورة مطلقة. إن المسلم الجزائري هو بالأساس فلاح يجب إعادة الأرض إليه أو تثبيته فيها، ونستطيع أن نعالج أزمة الفلاحة كما يلي:

1) بتثبيت الملاك الصغار الموجودين حاليا في أرضهم، ومن أجل هذا يمكن حمايتهم من الربا عن طريق إنشاء القرض الفلاحي، والرفع من مردودية زراعتهم باستعمال العتاد الحديث. ويمكن لجمعيات الأهالي للاحتياط أن تقوم بهذه الخدمة وتلك، وذلك بتحولها إلى جمعيات قرض وتوفير العتاد الحديث من جهة أخرى (مثل المحاريث، والحاصدات، والجرارات) تتخلى عنه لفائدة مشتركيها، مع مهلات دفع، أو تقوم بكرائه لهم.

2) ببعث النشاط الفلاحي في الأماكن التي توقف فيها عن الوجود. وفي هذه الحالة لن تعود الأرض الفلاحية إلى الانبعاث إلا إذا وضعت الحكومة صيغة محددة، قابلة للتطبيق، ومثل هذه الصيغة موجودة بكثرة، ونستطيع أن نورد هنا واحدة منها على سبيل المثال وهي:

مشروع مرسوم:

المادة I: لقد أنشئ للحكومة العامة للجزائر، إدارة الشؤون الإسلامية، صندوق ذو استقلالية ذاتية، يسمى الصندوق الفلاحي لإعادة إدماج الفلاحين في الأرض، وحماية وتطوير الملكية الزراعية في الجزائر. وسيدخل هذا الصندوق في الميزانية الخاصة بالجزائر، ضمن فصول المداخيل والمصاريف، وتحت بند خاص.

المادة II: يكون الآمر بتلقي المداخيل أو الآمر بالصرف هو الحاكم العام، باقتراح من السيد مدير شؤون المسلمين. وتوضع أموال هذا الصندوق تحت تصرف ولاة العمالات بحصة متناسبة مع طلباتهم.

المادة III: ينشئ ولاة العمالات في كل دائرة لجنة أو عدة لجان فلاحية، وتكون هذه اللجان مهما كان عددها تحت رئاسة رئيس الدائرة.

المادة IV: تقوم اللجان الفلاحية بشراء الأراضي وبتوزيعها، وفي جميع عمليات بيع الملكيات الريفية، مهما كانت طبيعتها، يكون لهذه اللجان حق الأولوية في الشراء، وأية عملية بيع تتم دون أن تكون اللجنة الفلاحية ممثلة فيها تكون مشوبة بالإلغاء.

المادة V: وبصرف النظر عن إعادة شراء الأراضي من الخواص، فإنه يكون من مهمة اللجنة الفلاحية القيام بجرد الأراضي الجاهزة، سواء البلدية أو التابعة لأملاك الدولة، والشروع في توزيعها.

المادة VI: في حالة ما إذا قام أحد الأهالي ببعض التحسينات على قطعة أرض تابعة للبلدية أو لأملاك الدولة (مثل بناء بيت من مواد البناء، أو حفر بئر، أو إنشاء بستان، إلخ..) فإن هذه القطعة تمنح له بصفة نهائية، وتصنف ضمن الأراضي التي تسمى أراضي فلاحية.

المادة VII: إن إعادة دمج الفلاحين تتم بشكلين: إما بصفة فردية أو في شكل تعاون فلاحي. بخصوص الفلاحة الفردية، يمنح الفلاح قطعة أرض تتراوح ما بين 20 و50 هكتارا، وتكون المساحة الممنوحة بحسب نوعية الأرض، وحسب أعباء الفلاح الأسرية، وقدرته على العمل. أما بخصوص الفلاحة ذات الطابع التعاوني، فإن الأرض التي يخشى من قلة جدواها في حالة تقسيمها، تستغل بصفة مشتركة تحت إشراف تقني.

المادة VIII: إن الأرض الفلاحية التي يتم إنشاؤها على هذا النحو تكون تابعة للفلاح، الذي يكون حرا في استغلالها بالكيفية التي يرغب فيها، غير أنه لا يكون له الحق في إهمالها أو رهنها أو بيعها.

المادة IX: تؤمن الدولة للفلاح الذي يستقر في الأرض قطيعا من الماشية وعتادا، وما يلزمه لمدة عامين من البذور والغذاء.

المادة X: يدفع الفلاح للدولة، زيادة على الضرائب العادية على الدخل، رسما للصندوق الفلاحي، من ناتج الأرض أو نقدا، يوزع على أقساط تغطي دينه على امتداد 25 عاما.

المادة XI: للجان الفلاحية سلطة المراقبة والصلاحية القضائية على كل الأراضي الفلاحية.

المادة XII: يسجل في مصاريف ميزانية الدولة الفرنسية مبلغ 300 مليون فرنك يخصص للعمليات الأولى لإدماج الفلاحين في الجزائر.

3) بنزع ملكية الشركات العقارية (أي الشركة الجزائرية –شركة جنيف- الشركة العامة الجزائرية –شركة الهبرا- شركة ماكتا إلخ..) وتسليمها للفلاحين.

4) بتحرير ملكية الأهلي، بتسلمه عقد ملكيته للأرض، سواء ضمن الملكية الخاصة أو المشتركة "العرش"، وهذا بعد إجراء تحقيق عام إجباري ومجاني.

5) بجعل التأمين ضد الكوارث الزراعية إلزاميا.

6) بمراجعة التشريعات الغابية، بطريقة تصلح ذات البين بين الغابات وبين السكان المجاورين لها، بمضاعفة الاستفادة الفعلية منها للمعنيين، التي تأتي من حماية الشجرة.

7) بإيقاف إجراءات بيع وحجز الأراضي، وإعطاء مهلة لتسديد الديون الفلاحية.

إننا في الجزائر أمام جماهير شعبية شديدة الخصوبة، فهي بالرغم من ارتفاع معدل الوفيات، في طريقها إلى الزيادة باستمرار، وإذا هي لم تثبت في الأرض فسنكون بعد سنوات معدودة أمام مشكلة خطيرة.

3- المشكلات الاجتماعية:

أ/ من بين المشكلات التي تهم الأهالي هناك مشكلة التعليم، التي تهيمن على كل المشكلات الأخرى. إنها تكيف كل المبادرات التي تهدف إلى تحسين الوضع الاجتماعي. فنحن إذا أعطينا لواحد من الأهالي، على سبيل المثال، سكنا لائقا في الظرف الحالي، فسوف يتحول هذا السكن في ظرف قصير إلى "قربي" غير صالح للسكن، وإذا نحن وضعنا قابلة في دوار، فستكون لا محالة موضع منافسة من قبل العجائز. وعليه، فلا بد إذن في البداية من تغيير العادات والأفكار والسلوك، إذا كنا نريد أن يستفيد الأهلي من الأعمال التي أنشئت

لفائدته. إن مصداقية بعض المؤسسات ترتبط بمدى درجة التعليم في المجموعات المحلية. إن هذا يصدق على أوروبا ويصدق على الجزائر أيضا.

وتبقى المدرسة -المدرسة الفرنسية السليمة والمتينة- هي الوسيلة الفعالة والمثالية، ولكن المدارس، ويا للأسف، غير كافية، وتعليم البنات المسلمات بالخصوص مازال في حالته الجنينية، علما أن تأثير المرأة على تطور الأخلاق الأسرية هو تأثير رئيسي، وتأثيرها على حماية الطفولة أساسي. إن تطوير المدرسة التي ستعد فتياتنا لتأدية دور الزوجات والأمهــات، لهي إحدى أمنيات جماهيرنا الشعبية.

وليس تعليم الأطفال الذكور أقل سوءا، فمن بين مليون ونصف مليون من الأطفال الذين هم في سن الدراسة، هناك 900 ألف منهم لا يدرسون، إنه عدد ضخم، إن الجزائر في مواجهة هذا الوضع توجد أمام صعوبة مزدوجة، صعوبة مالية من جهة، ونقص المعلمين من جهة أخرى؟ غير أن أزمة نقص المعلمين لا توجد إلا في الظاهر، فمنذ سنوات والمنتخبون المسلمون يطالبون بتوسيع مدرسة بوزريعة (وهي مدرسة المعلمين الذين يوجهون لتعليم أبناء الأهالي)، فالمتعلمون العاطلون عن العمل ليسوا قلة في الجزائر، ولا في فرنسا بالخصوص، فهؤلاء يمكنهم أن يكونوا معلمين ممتازين. والحي اللاتيني(*) قبل الحرب كان يعج بشبان عاطلين عن العمل، وكانوا سيسعدون، بعد إجراء تدريب بيداغوجي لهم، بعمل قار في الجزائر، ولسوء الحظ أنه لا يوجد لهم دائما مكان في بوزريعة.

ومسألة الميزانية بدورها ليست مشكلة غير قابلة للتجاوز، إنه يكفي أن تكون هناك صيغ ثورية و"تعبئة" لمصادر الدخل وللإرادات الطيبة مثل:

ا) تعاون سكان الريف في بناء المدارس، بتطبيق مبدأ "التويزة"(**)، حيث يمكن دعوة سكان الدواوير إلى التطوع بيوم عمل أو يومين، فهؤلاء السكان يدركون جدوى التضحية ويقبلونها.

---

*) الحي اللاتيني بباريس حيث توجد جامعة السربون. (المترجم).
**) وردت بلفظها العربي في الأصل. (المترجم).

2) مساهمة "صناديق الدوار" في البناء المدرسي.

3) مساهمة الميزانيات البلدية والولائية.

4) مساهمة ميزانية المتروبول، إذ لا بد أن ينظر إلى الإنفاق على نشر اللغة الفرنسية باعتباره إنفاقا على السيادة الوطنية.

5) تبني برنامج بناءات اقتصادية، إذ بالرغم من وجهة نظر المسلمين، فإن إدارة الأشغال العمومية دأبت منذ سنوات على بناء مدارس فخمة، ونستطيع أن نذكر أرقاما وأمثلة على ذلك، مثل بناء مدرسة سطيف الذي كلف مليون وسبعمائة ألف فرنك، ومثل بناء مدرسة مكونة من ثلاثة أقسام في زمورة، وهي بلدية مختلطة في منطقة البيبان، الذي كلف مليونين ونصف مليون من الفرنكات، ومدرسة تليتيت في البلدية المختلطة لميشلي (عين الحمام)، التي كلف بناؤها ثلاثة ملايين. فبالميزانية ذاتها كان في الإمكان بناء عدد من الأقسام يفوق ما بني بأربعة أضعاف.

عرض مؤخرا السيد "هاردي" عميد جامعة الجزائر، في إصدار له، حلا للمشكلة التي تستأثر باهتمامنا(*)، ونحن وإن كنا لا نرفض حله، فإننا نرى فيما يخص التمدرس أن صيغة المدرسة البلدية يجب أن تبقى هي القاعدة، سواء بالنسبة لسكان الأرياف أو لسكان المدن. إن درجة تطور التعليم لدى الأوائل لشديدة الضعف بالقياس إلى الآخرين، أفلا يعد نقصا آخر يضاف إلى نقائصه، ويعرضه للخطر، استحداث "مراكز التربية الريفية"، التي هي على العموم ليست إلا صورة كاريكاتورية عن المدرسة الابتدائية الحقيقية؟

إن للريف الحق في النهوض بمستواه الاجتماعي، وفي تكوين أطبائه، وموظفيه، وضباطه، على قدم المساواة مع المدينة، وقد أنتج بعد بعض العناصر المهمة، إذ يوجد اليوم عدد لا بأس به من معلمينا، ومن أطبائنا وموظفينا، تخرجوا من مدارس العشائر، وما يخشى في الحل الذي قدمه السيد العميد

---

*) أقر السيد هاردي عميد الجامعة تعليم الريفيين، وأوصى بمضاعفة المدارس التي يديرها الممرنون، التي تسمى بـ "المراكز التربوية الريفية".

هاردي، أن يكون فيه حكما على الريف بالعقم، وتركا له لينمو خارج دائرة جزائر فرنسية، قوية وواعية.

إنه في الوقت الذي بدأت فيه المدارس القرآنية ذاتها تترع إلى استعمال الطاولة واللوح الأسود، تترع مدرسة "الحصيرة" الفرنسية إلى أن تصبح مثال التدهور والتراجع. ولكن هل نحن في حاجة إلى أن نقولها؟ إن العرض الذي قدمه السيد هاردي عميد الجامعة يستجيب لانشغالات عناية سخية. إن الجزائر المسلمة سوف تعرف كيف تتذكر مؤسسي التعليم الأهلي، أولئك الذين قدموا مقترحات لنشره على نطاق واسع، مثل العميدين جانمير وهاردي، ومعهما كوكبة من الفرنسيين الذين باشروا مهمة صعبة هي مهمة تعليمنا وقولبة عقولنا، سوف يبقون السلسلة الحية التي تربط بين عالمين وحضارتين كانا قد أدارا ظهريهما لبعضهما طوال آلاف السنين، واللذين سوف يرتبطان غدا ببعضهما بفضل هؤلاء الرواد، وبفضل العمل المشترك. ففي الوقت الذي توقف فيه غيرهم عند حدود اعتبار بلدنا مصدرا غير عادي لكسب المال لا غير، لم يحمل هؤلاء معهم في تقاعدهم إلا الاعتراف الحار بالجميل لأجيال من التلاميذ.

ب/ التعليم المهني، الذي هو مكمل للمهمة المدرسة، فتكوين يد عاملة مؤهلة هو عامل ثراء ونهوض لقدراتها الاقتصادية.

ج/ المساعدة الاجتماعية، حيث أنه نظرا إلى أن ثلاثة أرباع سكان هذا البلد هم من المعوزين، فإن هذه الخدمات يجب أن تحظى باهتمام الحكومة، لأن الإحسان إلى الآخرين ليس بالمال ولكن بالمشاعر القلبية، وطبيب الفقراء ليس أيا كان. وقد أنجزت في هذا الميدان أعمال جديرة بالتنويه، مثل مكافحة الأمراض الوبائية، وبناء "مستشفيات رديفة"، ومصحات للوقاية، وإنشاء نظام الممرضات الزائرات، ووضع نظام للإطعام المدرسي، فهذه الأعمال قد أعطت نتائج معتبرة، ولكن بقي هناك الكثير من الأعمال التي تنتظر الإنجاز.

ويجب أن يستجيب بناء المستشفيات ومحلات المساعدة الاجتماعية إلى المبدأ المزدوج، مبدأ اللامركزية والاقتصاد، فالمستشفى الفخم لا ضرورة له، وكذلك الشأن بالنسبة للمدارس. يجب تجنب البناءات الفخمة بقدر المستطاع، وعدم تركيز المساعدات في المدن. إن صيغة المستشفيات الرديفة، التي تكون مجهزة بالحد الأدنى من الرفاهية والتجهيزات، لهي شيء ممتاز في بلد تلعب فيه المسافة دورا مهما. كل دوار ينبغي أن يكون مجهزا بعيادة على الأقل، يلحق بها عون من أعوان الصحة العمومية، وممرضة زائرة، حاصلة على دبلوم قابلة.

ويجب أن تنشأ أيضا في البلديات الريفية مراكز إيواء للشيوخ والعجزة، ودور للأيتام، مثل ميتم سيدي مبروك بقسنطينة، وحينئذ سوف تختفي المشاهد المؤسفة في المدن الجزائرية، لمواكب المتسولين العميان أو أصحاب العاهات، التي نشاهدها اليوم كثيرا.

د/ القضاء على المساكن القصديرية، بإعداد برنامج بناء لمساكن صحية.

هـ/ تطبيق مبدأ : عمل متساو بأجر متساو، وتوسيع العمل بما يعرف باسم"المنحة الجزائرية"، لتشمل كل الموظفين المسلمين الذين يعينون للعمل في ظروف مشابهة لعمل زملائهم الفرنسيين، والمساواة في الأجور، والحق في الوصول إلى كل الوظائف العمومية.

4- مشكلة الإطارات:

ليس اعتباطا أن المثقفين المسلمين يتوجهون نحو ممارسة المهن الحرة، إذ أنهم من الناحية العملية مقصون من سلك الإطارات الإدارية، وهذا من الموضوعات التي تثير الاستياء، إذ من بين حوالي 200 ألف موظف في الجزائر، لا يوجد من بينهم إلا حوالي 20 ألف مسلم، بمن فيهم "شواش"(*) مختلف الإدارات. فحبذا لو أن نصف هؤلاء الموظفين يحولون في الحين ليكونوا في خدمة الأهالي. إن وجود

*) بلفظها العربي في الأصل، وتعني الحجاب أو السعاة. (المترجم).

هؤلاء الموظفين في المكاتب، وعلى رأس بعض الإدارات العمومية للحكومة، سيجعل العنصر المسلم مشاركا في حياة البلد، وسيحد نفوذهم، على هذا النحو، من نفوذ المستوطن، وتستطيع الإدارة العليا، التي توضع بين مصالح هؤلاء وأولئك، أن تلعب دورها كحكم بشكل أفضل.

إن هذا لا يعني، بالطبع، أن تعطى الإدارة الجزائرية "موظفين" على الطريقة التركية، لأن الموظف المسلم سوف يعد لمسؤولياته، ولهيبة وظيفته، ولهذا فإن إنشاء "مدرسة عليا للإطارات"، تقوم على الأسس نفسها التي قامت عليها مدرسة بوزريعة بالنسبة للتعليم، ستستجيب لحاجات الإدارة، وستسد نقصا فادحا في هذا الميدان.

إن مشكلة الإطارات الإدارية مرتبطة ارتباطا شديدا بمشكلة خلق مجال لتصريف المتخرجين، فهذه تحمل حلا للأخرى. إنه لشيء خطير أن نستمر في تعليم المسلمين، إذا كان علينا أن نتركهم بلا عمل. إننا بهذا نصنع منهم متذمرين وثائرين، ولكن، في المقابل، لا يصبح ثائرا من يحصل على 50 ألف فرنك في العام، إنه يصبح ثائرا عندما يحشر في وظيفة صغيرة لتلقى الأوامر، وبأجرة بائسة.

إن دخول الأهالي إلى الوظائف عن طريق المسابقات، يبدو بلا جدوى في الوقت الراهن، حيث تظل الإدارة قلعة لا يمكن أن يدخلها كل راغب، لأن الممتحنين يخضعون أحيانا لأحكام مسبقة كثيرة، ولتأثيرات كثيرة. وعلى أية حال فإن الأهلي -في الغالب- مبعد بطريقة أو بأخرى.

5- مشكلة اليد العاملة:

إن هذه المشكلة يمكن حلها عن طريق حل معضلتين على قدر كبير من الأهمية:

أ/ توفير العمل للبروليتاريا الزراعية الواسعة.

ب/ جعل الأجر الحيوي الذي يسمح بالعيش قابلا للتطبيق.

ولامتصاص اليد العاملة (حيث يصل حاليا عدد العاطلين عن العمل كليا أو جزئيا إلى مليون شخص) نستطيع أن نضع حلولا مختلفة تتكاتف فيما بينها وتتكامل:

1) إنشاء صناعة جزائرية كبيرة.

2) مضاعفة مراكز التعليم المهني، التي تسمح بتكوين مختصين، وتقوم مكاتب رسمية بتعيين وتوزيع هذه اليد العاملة، وتوجهها حتى نحو فرنسا لتحل محل اليد العاملة الأجنبية.

3) فتح ورشات أعمال كبيرة تكون ذات منفعة وطنية.

4) منع تشغيل اليد العاملة الأجنبية مهما كان أصلها.

5) تنظيم "الخماسة" قانونيا، وتشغيل الخماسين إجباريا في أية ملكية تتجاوز 200 هكتار من الأراضي القابلة للحرث.

وبخصوص حماية الأجر الحيوي وضمان تطبيقه، كانت هناك أنظمة مختلفة طبقت من قبل، مثل دفتر الدفع المزود بهامش، وتعليق التعريفات الرسمية للأجور، إلخ.. وكانت الحصيلة هزيلة، ولذلك نعتقد أن العمل النقابي الحر هو وحده الذي يضمن للعامل، أمام أرباب العمل ذوي السطوة، أجرا معقولا، ويراقب ظروف عمله.

ومن الواضح أن أجرة اليوم تخضع لجودة الأرض، ومن هنا تأتي ضرورة إنشاء تقسيم جهوي اقتصادي، ويقوم الولاة بوضع نقابة تراقب كل الأيدي العاملة، بحيث لا يكون في مقدور أي كان أن يشغل أحدا دون المرور على القناة النقابية، وتقوم النقابة في الوقت نفسه بإحصاء العاطلين عن العمل، ومعالجة البطالة عن طريق العلاقات بين النقابات المختلفة، وتبادل اليد العاملة فيما بينها بشكل دوري من منطقة إلى أخرى. وسيكون في مقدور هذا العمل النقابي أن يحسن أيضا أكل العامل وملبسه، عن طريق التسيير التعاوني الجيد.

ويستطيع المختصون في هذه المسائل أن يقترحوا أنظمة أخرى، فالشيء المهم هو التخلي عن أنواع العلاج الظاهري، إذ من اللازم هنا، بقدر أكبر من أي مكان آخر، أن نبني في العمق. لقد طلب بعض رؤساء البلديات من ملاك

الأرض، انطلاقا من عاطفة تشرفهم، وباسم الإنسانية، واسم مصالح فرنسا، أن يتخلوا عن تطبيق أجرة 8 فرنكات في اليوم، ولكن الملاكين الأوروبيين والأهليين هزوا أكتافهم، وواصلوا عدم اعترافهم بالتعريفة الرسمية للأجور.

6- مشكلة الأعمال الكبرى:

إن تجهيزات القرى الاستيطانية قد انتهى العمل فيها، وأما تجهيزات الدواوير فلا وجود لها، وتحتاج للقيام بكل شيء، مثل شق طرق للعربات تربط الدواوير فيما بينها، وتربط كل دوار بمركز البلدية، لأن الطريق عامل حضاري مثله مثل المدرسة، وكذا كهربة الدواوير، وتحويل المياه، وتزويد أقل القرى شأنا بالماء الصالح للشرب، وبناء السدود الصغيرة لتلبية حاجيات الأهالي المحلية، مثل تربية الماشية، وغرس أشجار الزيتون والحمضيات.

7- مسائل التجنيد العسكري:

لقد كانت الفرق الفرنسية - التي عرفت باسم الفرق الأهلية - تنشأ أيام زمان عن طريق الالتزام التطوعي، وهذا الالتزام كان الفلاحون يقبلون عليه في سنوات الجفاف خاصة، ونادرا ما كان هؤلاء الجنود يعرفون القراءة والكتابة، وعند إنشاء نظام الخدمة العسكرية الإجبارية سنة 1912 تغير وجه فرق القناصة، فارتفعت فيها نسبة العناصر المتعلمة، التي يمكنها أن تقوم بالمهام نفسها التي يقوم بها الأوربيون، ومنذ هذه اللحظة لم يعد في نظر هؤلاء ما يبرر التمايز في المعاملة وعدم المساواة في الأجور مع الأوربيين، وأحدثوا تململا بسبب هذا، ومنذ انتصار 1918 ما فتئ هذا التململ يزداد.

لقد استدعت حالة التعبئة سنة 1939 عددا لا بأس به من المثقفين لحمل السلاح، وكانوا معلمين وأطباء، وصيادلة، وجراحي أسنان، وموظفين، إلخ.. فبدا الإجحاف في المعاملة بين الجنود الفرنسيين والجنود الأهالي صارخا أكثر من ذي قبل. في نوفمبر 1939 لم يتمكن الأطباء والصيادلة المسلمون بالجزائر، كما هو في العادة، أن يتابعوا دروس فصيل طلبة ضباط الاحتياط (E O R)

مثل رفقائهم الأوروبيين، وكادوا يسرحون من الخدمة بالرغم مما جاء في مرسوم "ماجينو" الصادر في 14 مايو 1930، ولكنهم ، على أية، "حشروا" في آخر الأمر، وهذا الإجراء لم يتخذ من أجل رفع معنويات أولئك الذين كانوا يستعدون لتأدية الخدمة. ومرسوم 13 مارس 1940، الذي ينص على إنشاء "إطار ضباط الصحة الاحتياطيين" للمسلمين الجزائريين، حرص من جهته على أن يأتي على ذكر عبارة "للقب الأهلي"، كأن دبلوم الدولة الذي حصلوا عليه لم يكن هو نفسه الذي حصل عليه رفاقهم الأوروبيون.

ومرسوم فبراير 1940، الذي رسم الأجرة الشهرية لضباط الصف الاحتياطيين، الذين أمضوا أكثر من عامين في خدمة العلم، طبق حتى على ضباط الصف الذين كانوا في الخدمة بصفة "أجنبي"، ولكنه لم يطبق على ضباط الصف العاملين من الأهالي، حيث ظلوا هم أيضا يتقاضون راتبهم باليومية.

إن الجندي المسلم يشتكي بمرارة من هذا الاختلاف في الراتب: عدم مساواة في الأجر، وعدم مساواة في المنحة، وعدم المساواة في التقاعد، إلخ.. غير أنه واع في الوقت نفسه أن الدفع به إلى أتون الحرب لا ملامة فيه، لأنه يأمل أن لا يعتبر بعد الآن جنديا رخيص الثمن، أو من مقاتلي المنطقة الثانية في الجبهة.

إن حقل تجنيد الأهالي في الجيش أصبح واسعا، ولم يعد فيه إلا حيرة الاختيار، بحيث يمكن استبعاد الأميين منهم والجهلة، بسبب نقص تعلمهم، دون أن ينتج عن ذلك عيب، وفي مقابل هذا ينبغي أن يخدم الذين يرتدون البزة العسكرية منهم في الظروف نفسها التي يخدم فيها الأوروبيون، بحيث لا يكون هناك إلا جيش فرنسي واحد، وجندي واحد هو الجندي الفرنسي. إن الخدمة العسكرية بصفة مجند أهلي لم يعد لها ما يبررها، وهذه هي أمنية كل العسكريين المسلمين.

8– المشكلة الثقافية:

* تحترم كل الأديان، وتطبق كل القوانين التي صدرت استنادا إلى مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة وعن الدين الإسلامي.

* تدار المنشآت الدينية، تحت مراقبة الدولة، من قبل الطائفة الإسلامية، التي يكون لها فيها حق الاستعمال الحر، بإشراف الهيئة الدينية المعينة رسميا.
* تلغى كل إجراءات القوانين الاستثنائية التي تضرب اللغة العربية، مشبهة إياها باللغات الأجنبية. فاللغة العربية يجب أن تعتبر لغة رسمية على قدم المساواة مع اللغة الفرنسية.
* تطلق حرية التعليم الديني، ويلغى قانون 8 مارس 1938 الذي يمنع إنشاء أي نوع من المدارس الحرة الإسلامية دون تصريح من عامل العمالة.
* تلتزم الدولة الحياد في تأويل العقيدة الإسلامية.

9- المشكلة الإدارية:

كنا قد كتبنا في مكان آخر أن تطور الشعوب مرتبط ارتباطا وثيقا بالهيئات التي تسيرها، والجماهير المسلمة تعيش منذ 70 عاما في الأطر الإدارية للبلديات المختلطة، والبلديات الريفية ذات النشاط الكامل، ويمكننا أن نتساءل عما إذا كان في استطاعة هذه الأطر أن تهيئ لها نهضتها؟ لا أحد في استطاعته أن يؤكد ذلك.

والرأي العام المسلم يشكو من عدة مظالم ضد البلدية المختلطة نلخصها كما يلي:

1) إن البلدية المختلطة تمتد على مساحة واسعة جدا قد تبلغ 900 ألف هكتار، تقطنها جماهير يمكن أن تعد بمئات الآلاف من السكان، ويمسك المتصرف الإداري الذي وضع على رأسها، بحكم قوة الأشياء، بسلطات واسعة، وهو في معظم الأحيان يستغل سلطته هذه.

2) يبقى المتصرف الذي أعد لكي يسير بلديته بضمير يقظ بعيدا عن الجماهير التي يدير شؤونها لأن مهمته كبيرة جدا، ولا يمكن له أن يكون موجودا في كل مكان، وبسبب هذا يسقط أكبر جزء من سلطاته بين يدي القياد. علما أن استقلالية المتصرف ليست تامة، فهي مرتبطة بالمندوب العام، وبالنائب، وبعضو مجلس الشيوخ الفرنسي لدائرته، وغالبا ما لا يعين إلا

بموافقة هؤلاء المنتخبين، ونستطيع أن نروي عن نشوب خلافات حادة بين المنتخبين الفرنسيين وبين المتصرف، لأن هذا الأخير قد تجرأ ودافع عن مصالح الأهالي ضد المستوطنين. وغالبا ما تضحي الإدارة العليا بالمتصرف وتنقله. أما القائد الذي يعين على رأس الدوار، فإنه في أغلب الأحيان يكون مساعدا أميا، وقليل الاكتراث بالأمور، ولذلك فهو غير قادر أن يكون مثلا يحتذي به الأهلي أو يسهم في تطويره، وبقدر ما يكون الأهلي جاهلا بقدر ما يسهل على القايد استنزافه، ولهذا فهو عدو المدرسة الفرنسية، والدليل على ذلك أن هذا الموظف ينسى أحيانا أن يعلم حتى أبناءه.

3) وبسبب تعيينه الاعتباطي فإن القايد يكون في معظم الأحيان رئيس عصبة، وهو لهذا يتصرف على أساس انتمائي وتحيزي، من حيث أنه هو نفسه بقي في مستوى أحقاد الصفوف(*)، ويستحيل عليه أن يرتفع على مستوى النوايا والمصالح الخاصة. إنه الحكم والخصم، وأسباب الخلافات التي تقوم بين المحكومين والقايد تعود إلى هذا الأساس الأول. إن البلدية المختلطة هي في الغالب منطقة نفوذ عائلة واحدة هي عائلة القياد، وقد أصبح نفوذ هؤلاء مبالغا فيه، ولذلك فقد غدا الأهلي مسحوقا تماما ومرغما على الصمت، ففي بسكرة، على سبيل المثال، أصبحت سلطة المتصرف لا وجود لها إلى جانب سلطة مرؤوسه "الباش آغا بن قانة"، والله وحده يعلم ما سيحدث لو أن هذا الرجل بقي "شرقيا" في فن إدارة شؤون أهل ملته.

وهناك مثال آخر من بلدية "قرقور" المختلطة، يتمثل في عائلة بن عبيد، العريقة، حليفة الباش آغا المشهور عبد الرحمان أورابح، التي تدير وحدها معظم دواوير البلدية كما يلي:

بن عبيد محمد: قايد دوار ذراع القايد.

بن عبيد الشريف: قايد دوار موعقلان.

بن عبيد عبد ربو: قايد ذراع عقبيلة.

---

*) الصفوف (بالعربية في الأصل: واحدها صف) وهو انتماء يستند على رابطة القرابة.

بن عبيد عبد العزيز: باش آغا دوار راس طلع التين.

وحيث أن هذه العائلة التي تحتكر الوظائف قد ضاق بها الحال في بلديتها الأصلية، فقد تجاوزت حدودها إلى بلديات أخرى كما يلي:

بن عبيد الزين: قايد بلدية ريغة المختلطة.

بن عبيد أحمد: قايد بلدية بلزمة المختلطة.

بن عبيد عبد الكريم: قايد بلدية البيبان المختلطة.

بن عبيد نور الدين: قايد بلدية مهديد المختلطة.

بن عبيد عبد المجيد: قايد بلدية تاقيطونت المختلطة.

بن عبيد الصغير: قايد بلدية الصومام المختلطة(*).

وعليه، فإن سياسة العصبة هي واقع فعلي، ويمكن لنا أن نأتي بأمثلة عديدة على غرار العائلتين المذكورتين آنفا. وبعد هذا يحدثوننا عن نزاهة القياد العرب، وهو حديث بعيد عن النزاهة، من حيث أنه يبيح لهم في مقابل هذا اعتصار فقراء الناس وسلبهم أموالهم، هؤلاء الفقراء الذين قدموا فيما يخصهم الدليل على نزاهتهم في ميدان القتال، في "فيردان" و"سوم".

4) لقد دأبت الحكومة العامة منذ سنوات، ومن منطلق اقتصادي، على تكليف قايد واحد بإدارة اثنين أو ثلاثة أو أربعة دواوير، وقد أعطى هذا الإلحاق للقايد سلطة معتبرة، وجعل منه طاغية حقيقيا، كما خلق، من جهة أخرى، صعوبات لا يمكن تصورها لانتقال الأشخاص، حيث يكونون مرغمين في هذه الأحوال على قطع مسافة 50 و60 كيلومتر عبر الطرق غير المعبدة حتى يصلوا عند القايد، وينبغي أن لا ننسى أن القايد هو ضابط الحالة المدنية، وأن المواليد والوفيات يجب أن يبلغ عنها في ظرف ثلاثة أيام، وأنه هو

---

*) من احل ان أكون منصفا، لابد لي أن أذكر أن بعضا من أفراد هذه العائلة كانوا قد التحقوا بالجبل أثناء حرب التحرير، وأخص منهم بالذكر الدكتور بن عبيد، عضو اللجنة المركزية للاتحاد الديمقراطي للحركة الجزائرية، الذي كان منتميا من قبل أيضا إلى المقاومة الفرنسية في "فيركور"، وقد كان لمدة 16 شهرا طبيبا للولاية الثالثة وللعقيد عميروش، كما أخص بالذكر أيضا الأستاذ بن عبيد يوسف المحامي، الذي كان أمين سر الولاية الثالثة نفسها، وفي الولاية الأولى كان هناك بن عبيد الصديق، وبن عبيد عبد الوهاب، وبن عبيد كمال.

مساعد الشرطة والعدالة، وأنه هو الذي يضع قوائم التصريحات الضريبية، إلى غير ذلك من المهام، فيكون الأهلي في كل هذه الحالات ملزما بالقيام برحلات مكوكية، وإذا رغب القايد في التعسف معه، بعث به لأتفه الأسباب، إلى مركز البلدية عند المتصرف الإداري. إن هذا ليس بنظام إداري، إنه أشبه ما يكون بمحتشد.

وليست البلدية ذات النشاط الكامل بأرحم بالأهلي، فهو حاضر هنا ليشكل بمجموع سكانها الكثيرين، ولأجل توازن الميزانية البلدية، وبلا أدنى شك أن مقابلته لـــ "المستوطن، رئيس البلدية" هو أقرب إليه من مقابلة المتصرف، وأن القايد بلا أدنى شك، ليس أكثر طغيانا منه في البلدية المختلطة، وأن مكاتب البلدية، بلا أدنى شك، هي أقرب إلى الدوار، وأن قانون 1919، بلا أدنى شك، قد جعل من هذا الأهلي ناخبا في الدور الأول في انتخابات الدرجة الثانية من الدوائر الولائية، وكذلك في انتخابات "المجالس الجزائرية"، إلا أن هذا لم يجنب هذه الدواوير، التي ألحقت بإدارة رؤساء البلديات، من أن تكون حالتها أكثر إهمالا من حالة البلديات المختلطة، فـــ "المستوطن، رئيس البلدية" موجود هنا من أجل تحقيق أهوائه الشخصية، وضمان انتخابه، وانتخاب نائب الجهة وعضو مجلس الشيوخ فيها. إن هذه هي علة وجود هذه البلديات الريفية، التي يصل عدد سكانها من الأهالي إلى غاية خمسة آلاف، ولكن الخمسين فرنسيا من قاطنيها يتصرفون في ميزانيتها ليهيئوا لأنفسهم ملاعب للتنس، وقاعات للحفلات، في الوقت الذي تعاني فيه الدواوير التي تركت وشأنها من نقص الماء الصالح للشرب، ومن الطرق المعبدة، ومن المدارس، والعيادات، وما إلى ذلك.

إن هذه البلديات الريفية، التي أنشئت من أجل إيجاد التوازن السياسي بين المواطنين الفرنسيين، قد ظلت غير مكترثة تماما بتطور المسلمين، بل إنها بالأحرى تشكل عائقا لتطورهم، من حيث كون المستوطن، رئيس البلدية هو أحد مالكي الأرض، ممن لا يحسنون القراءة والكتابة إلا لماما، ولا يتحدث العربية إلا بصعوبة، وهو مشغول بمصالحه وشؤونه الصغيرة.

إنه لا البلدية المختلطة، المفرطة في اتساعها وكثرة سكانها، ولا البلدية الريفية ذات النشاط الكامل، التي أنشئت لتلبية حاجة المستعمرة، هما صيغتا مستقبل المجتمع المسلم، إنهما ليستا إلا وحدتين مصطنعتين، لا تستجيبان لتصوراتنا عن الحياة البلدية، ولا عن حياة الدوار أيضا، لأن الدوار هو الجنين الاجتماعي، الضارب في محليته، الذي يمكن أن يبنى على أساسه مجتمع جديد. إنه مجتمع يمكن له، إذا أريد له ذلك، أن يكون مركزا للرخاء المادي والإشعاع المعنوي. إن هذا الدوار قد أخذ أهميته الكاملة من تفكك نظام القبيلة المتنقلة، إنه يمنحنا فرصة مثالية لتغيير وجه البلد بأكمله، بتثبيت الرحل والحياة الرعوية في الأرض، بالمفهوم الغربي. وهذا التنظيم القاعدي سيكون عامل ازدهار بقدر ما تكون سلطة القرار سريعة، ولهذا السبب فإن إيجاد سياسة إدارية لامركزية هي ضرورة تفرض نفسها.

من هذه الملاحظات ينتج حل المشكلة التي تشغل بالنا على النحو التالي:

1) قيام الدواوير في البلديات المختلطة والبلديات ذات النشاط الكامل بصفة مراكز بلدية تسيرها مجالس منتخبة أو معينة، وإعداد القياد إعدادا عقلانيا للاضطلاع بمهام وظيفتهم، في انتظار أن يصبح تعيينهم عن طريق المسابقة.

2) تجميع ثلاثة إلى أربعة مراكز بلدية تحت إدارة ومراقبة مستشار تقني يعد لهذه الوظيفة.

3) تحويل البلدية المختلطة إلى"كنتونة" إدارية يكون على رأسها مراقب له مساهمات واسعة، على المستوى الاقتصادي بالخصوص، في مجال الفلاحة، والعمل النقابي، والتموين إلخ..

4) رفع عدد نيابات العمالة ومد سلطات نواب عمال العمالات.

5) تحويل عمالات الجزائر الثلاث إلى مقاطعات (Provinces) ثلاث هي: مقاطعة الجزائر، ووهران وقسنطينة، يكون على رأسها حكام مقاطعات لهم سلطة التسيير.

6) إنشاء ثلاث عمالات -على الأقل- في كل مقاطعة من هذه المقاطعات.

7) إلغاء الحكومة العامة، وتعيين حاكم مراقب يضطلع بمهمة الحكم، ويتخلص من أية هموم إدارية، يساعده ثلاثة أو أربعة مفتشين عامين (للمالية والجمارك والإدارة).

8) إلغاء الحكم العسكري في جنوب الجزائر إلى حدود الصحراء الكبرى.

إن هذه الإصلاحات ستتجنب الإطالات الإدارية، وستعطي القرارات التي تتخذ بسرعة حيوية أكثر للبلد. وهذه السلطة التنفيذية السريعة تلتقي، من ناحية أخرى، مع طبيعة العرب/البربر، الذين سيستقبلونها بارتياح. غير أن إصلاح الهياكل سيظل هو إنشاء المركز البلدي، أو الدوار/البلدية. إنه بهذا الإصلاح، وحوله، ينبغي أن تزدهر الفلاحة، والصناعة التقليدية، والتعاونيات، والهيئات، ويزدهر الإسكان.. وحينئذ سيولد في قلب المستعمرة الأوروبية، وفي أعماق ضمير انبعاثنا المتعدد الأوجه "الرغبة في أن نكون مجتمعين"، هذه الرغبة التي هي حسب تعريف"رينان"(*) العنصر التكويني الأساسي للأمة.

—انتهى.

* * *

*) المقصود هنا هو المستشرق والكاتب والمؤرخ الفرنسي "أرنيست رينان" (1823—1892). المترجم.

فهرس المحتوى

سحب الطباعة الشعبية للجيش
الجزائر 2007


ISBN 978-9947-24-276-6
9 789947 242766